

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الثاني

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

صيحة رافعة . . . تسمع الصم ولا تستطيع دفنها أذن نائم . لها في
السمع دوى مجلجل ، وفي القلوب أصداء ، وعلى الشفاه همسات تلتئم حديثاً
بيناً يطير في الآفاق .

هي في أصلها شعور قلب : رقيق كالنسمة السابحة مع الفجر ، صاف
كالنبع المتفجر من صخر . . . استوعب مشاعر فقراء قومه وما زخرت به
قلوبهم من عذاب الحرمان ، ووعى في ذهنه خواطرهم التي كتموها حيناً ثم
راح يثنها بلسانه في كل مكان .

وكانت رهيبة كصوت القدر ، قاطعة كالسيف لأنها حق ، رنانة الجرس
كقصف الرعود أو صليل السلاح . . . ما سمعها أحد ينكرها إلا تلفت
حواليه من خشية . ثم انطلق يفر من جزع وقد اضطرب فؤاده كالجنحاح
بين جنبيه ، وود لو ردها عنه أن يضع أصابعه في أذنيه .

وكانت أيضاً شجية كأغاريد ، رقيقة حانية ، قد تسكر السامع وتحرك
الدامع . . . إذا ردها الليل هفت إليها قلوب من ولعوا بها قبل الآذان ،
وإن حملها الصبح تلمسوا مصدرها ، مشوقين خفافاً ، كما يلبي العابد
نداء الأذان .

جاءت كنسمة الصبا من الشمال ، طيبة ريانة . . . ثم انطلقت سباقة إلى
الوادي الأجرد ، تقطع الصحراء — بغير وني — من الشام إلى قلب الجزيرة
حتى حاضرة الإسلام . . . لم تقف بها في مسراها أودية وشماط ، ولم يخفت
من حدة صوتها حجاب أو باب . . . بل مشت في أعقاب صاحبها
— الهاتف بها من قلبه — كما يتبعه ظله .

حتى المدينة أيضاً سار فيها ظله . . . فحين دلف بهيكلكه الضامر ، وخطت
قدماء الناحلتان على دروسها ، وتطلع بصره النفاذ إلى مسالمها ، رهقت وجهه

المعروق غبرة حزن . . . أهذه حقاً مدينة رسول الله ؟ . . الأرض الطيبة
الحيا والممات ؟ . . البلدة التي خلفها منذ أعوام عالماً وحدها من الإيمان ؟ . .
لكم لب بها الزمن إذن وأحال معدنها الحر إلى مظاهر وقشور ، ومشت عليه
شراة النفوس حتى صدى وغاب لمعانه ! .

أضحت بلدة غير البلدة ، كأنها استماتت ثوب أختها في الشمال . . .
كذلك بدت في عينيه لأول وهلة حتى حسب أنه في دمشق لم يرحبها ولم
يخرجه منها عاهلها العاتى . . . ولكن ذهنه تاب إليه في لحظات وقد وخرته
آلام نخذه . ألا غفر الله لمعاوية وأوسع له في عفوه بقدر ما أساء إليه . . .
وعفا أيضاً عن صقالبته الخمسة : أولئك الذين وكاهم بهذا الشيخ الداوى
التحليل يطرون به الطريق كلها من الشام ، خلال سمير الصحراء ، على بعير
عار ولا يترشون به مرة واحدة ليستريح . . . ومع ذلك فقد حاول أبو ذر
طوال الرحلة الشاقة أن ينسى آلامه ، وأن يهين نفسه لمقام — خير من مقامه
ذاك على حدود الروم — تطيب نفسه فيه . . فاذا لقي بعد أن انتهى به المسير ؟ .
كاد الشيخ أن يطالع صورة ثانية من حاضرة الشام في حاضرة الإسلام . .
أما البلدة الفاضلة — مدينة محمد القديمة — فقد كادت أن تختفي خلف
البذخ الصارخ . أين ما هي فيه اليوم من رفاهة ولين مظهر مما نشأها
عليه الإسلام من خشونة وصلابة عود . . . وكيف غلبت عليها سريعاً هذه
الميوعة المنتقلة إليها كالوباء من أرض الروم خلال بلاد ابن أبي سفيان ؟ . .
با ترى هل آثرت أن تستبدل بمسوح الزهد والوقار غلائل الترف والاستهتار
لتعرض نفسها سلعة في سوق الدنيا ؟ .

واعترضت يد الأسى قلبه الكبير وعصفت به . ما كان أحب هذه
الأرض إليه وما أشد ما أصابها عليه . . . إن تربها الذي طهرته أقدام
المهادى ، وبللته دماء الشهداء ، وذكت فيه دوحة دين الفطرة بهم اليوم
أن يطلع نباتاً خبيثاً . فأينما ولى الشيخ بصره في نواحي البلدة رأى رفاهة

ورقاً وجدة حتى لأوشك أن يحسب نفسه الشيء الفقير القديم الوحيد في المدينة! حتى مسجد الرسول زالت عنه بساطته السالفة وحشدت على حيطانه النقوش والزخارف فبدأ اليوم على غير ما كان . وهذه الدور ، التي كان عهدده بها مساكن صغيرة لا تكاد أن تمنع عن أربابها لفح الهجير وقر الزمهرير ، ما لها ذهبت الآن قصوراً شاحخة تطاول السماء؟ ... أرقّت الأجسام فوهنت القلوب التي قومتها قوة الإسلام ؟ .. إنه ليقرب كفيه أسفاً وبصره بتنقل حائراً بين هذه المظاهر التي لا ريب تنبئ عن خور وجنوح إلى الرخاوة والضعف . وما كان له إلا أن يأسف وهذا أمير المؤمنين نفسه — الرجل الذي صاحب نبيه الزاهد العزوف ، قد أقام له قصرآ كالمروس المجلوة بين هذه القصور ، له شرفات وأبراج على عمد من مرمر شفاف كالعاج .

هذه المعالم الفاخرة لم تكن في ذاتها ما ملأ قلبه أسى وحسرة ، بل دلالتها ... إنها العنوان البغيض لسفر الأخلاق الذي سطرته حديثاً سهوات الأنفس الزائغة عن بساطة الدين إلى زخرف الحياة ! ... إنها الرده ثانية إلى متع جوفاء كادت دعوة محمد أن تغيبها في قبر الغابر . وكان أبو ذر دواماً يؤمن بالجواهر ويكفر بالمظهر : يعلم أن قوة الرء في قلبه لافي ثوبه ، وحدة الحسام بحده لا بغمده .

كذلك بدت المدينة — غب نقيه إليها — في ثوب دمشق - متبرجة كالصنم في يوم عيده ... لم يكد يحس فيها براحة النفس التي أعانها ، بل سريماً عاوده شعور الاستنكار وهو يجوس دروبها تماماً كما كانت حاله من قبل وهو يذرع طرقات حاضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته . ما ترك الجنوب إذن للثمال منقصة لم يبارده فيها ، لا ولا مذمة ! .. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباؤهم على بطونهم حجارة — تأسيماً برسول الله — لقهر الجوع ، قد أصبحوا يخطرون الآن في مصيبتات الديباج ، مصمرين الحدود شاحخين بالأنف ، ولا يأبه أحدهم أن يظأ في خيلاته أخاً له في الدين ألقاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع ... يا رحمة الله ! هذه أمة ، بفضل إيمانها المبني

فلى نكران الذات ، دان لها العالم المترف ورجالها فى أسمال ، فالحا اليوم تدين
بشرية المال وتمنو لسلطان المال ؟ .

وبمثل دوى الرعود القاصفة ، وصليل السيوف ساعة الجلال ، عادت كرة
أخرى إلى الظهور دعوة هذا الشيخ الذى نذر حياته لإنصاف الفقراء من
ذوى اليسار :

« . . . وبشر الذين يكتزون الذهب والنمضة ولا ينفقونها فى سبيل الله
بمكاو من نار » .

٢

. أهى زلة عصية على الفئران أن يملك عثمان المال ويبنى في البناء ؟ .
من عجيب أن النفوس التى ثارت عليه ، وصلت إلى حد كانت لا تستطيع معه
أن تغفر ، لأنها رآته — وقد جعلت الخلافة الأمر له — كمن أراد أن تكون
الدنيا أيضاً له وما أحسبه إلا قد زودها من مقومات الثورة وأسبابها
بأدم زاد .

هذه هى نقطة التحول فى حياة الخليفة المنكود . أو — على التحقيق —
فى الأثر النفسى الذى انضمت عليه جوائح شعبه حيماله . . . أما الواقع
فلا ينكر على الرجل أنه كان مترقياً طول عمره من قبل الإسلام . وكان
غنياً مسباحاً ، سخي الكف والقلب ، له فوق هذا من السجايا الخلقية
ما يجذب إليه الناس ويؤلفهم حوله . ولكن الشعوب دائماً تحصى حركات
قاتتها ، وتمنى يتصيد هنات حاضرم بغير اعتبار لما أولوها فى غواير أيامهم
من أفضال . وقد نظرت الأمة الإسلامية إلى عثمان من خلال نفس المنظار
الذى كانت ترقب به سلفيه ، فهاها أن تجده من طراز آخر : معنياً بمظاهر
دنيا لم يقبلها مطلقاً عليها وزهد فيها قبلهما رسول الله . . . وكذلك كانت
الحال حين تفتحت الميون على الترف السابق الذى خاضت فيه الدولة الفاشنة

وخاض فيه الخاصة . واستطاع كل غائب مغرق في الاهتمام ، أو غائب مستلهم بساطة الإسلام أن يرى الرجل بالتشبث بالجانب الباطل من الحياة : هذه الرفاهة وهذا الولع بكنز المال ... فما كان - في رأيهم - إلا مثلاً لسواء من عماله وذوى قرباه والكثرة الغالبة من صحابة رسول الله ؛ ساروا جميعاً على شاكلة ونهجوا نهجه . أو كان - بأعدل الآراء - الحاكم الذى له القدرة على الحد من غلواء أولئك الترفين ولكنه أغضى عن هذه النسلواء . على أن النصف يمكنه أن يبعد عنه اللوم قليلاً . فلم يكن هو الذى أغرى الناس بالترف وحب الثراء ، بل هى طبيعتهم البشرية التى حضتهم على التملك ، وظروف الدولة الفتية التى اتسحت رقعتها فى أعوام معدودة فضمت تحت جناحها نصف العالم الحبيب . وما أحسب بدوياً نبت خلال جدوبة الصحراء ، وعانى مرارة الحرمان فى رمالها المستعرة ، إلا يعمل قدر وسعه - وقد تفتحت أمامه الأبواب - على جمع المال الذى يجلبه الفاقة والشظف وسوء الحال .

بهذا قضى منطق الحوادث قضاءً لامعدي عنه ، فاستجابات له طبيعة الإنسان ، وله اتسع فهم عثمان ، كما اتسعت موارد دولته الآخذة فى النماء ، فزاد عطاء الناس مائة درهم منذ اليوم الذى امتلك فيه مقاليد الحكم . وهكذا أبدى الرغبة الصادقة فى أن تعمل الدولة جاهدة لمصلحة الفرد . وخط عنواناً أميناً لسياسة حسنة - لو أنه احتذاها طوال أيام عهده - لكان تغير تاريخه المعروف .

وفى الحق لسنا نملك إلا أن نحكم له بحسن نواياه حيال الشعب كلما تقبمنا عن كثر الخطوط التى رسمها لعماله فى البلاد وأمرهم فيها بتقديم خير رعاياه على كل ما عداه ... كان أول كتاب بعث إليهم به .

« ... إن الله أمر الأمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا

جباة .. »

وأوضح النهج الذى يسير عليه عمال الخراج بقوله :

« . . . إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق ، وأعطوا الحق به . . . والأمانة الأمانة ! . . . قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . . والوفاء الوفاء ! . . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم . . . »
ولكن هذه السياسة لم تكن كفيلة وحدها باقتلاع البذرة التي أثمرت على الأيام دوحة السخط في نفوس الناس . ولم يكن عثمان غارس هذه البذرة بل كان — لسوء طالع — ذلك الذي انقرض بالحصاد . . . أما البادر فكان مهر . وضعا نواة صغيرة في مبدأ عهده ، ثم تركها تنمو ليجنى منها خلفه ثمرتها المرة .

هذه حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل . ولعل عمر لو امتد به أجله كل هذه الأعوام التي حكم فيها عثمان بلاد الإسلام ، للقي مصرعه بغير خنجر ذلك المجوسى الحاقد . ولن حسب أن هيبة ابن الخطاب كانت قينة بأن تحميه من ثورة النفوس فإنه إذن أخطأ جانب الصواب . ذلك أن التذمر نار آكلة ، لا تفتأ تدب في الخفاء ، تحت الرماد ، حتى يتاح لها ما يكشف عنها الفطاء فتنبعث سميراً ذاكي الضرام . ولقد أشعل عمر الجذوة حقاً ثم لم يمهله العمر ليصلي حريقها المشبوب .

أشعل مهر الجذوة وتركها تتقد وتأكل كل النفوس . . . وتلفت الناس بعد مضيه عن الدنيا بأعوام ليروا عالماً غير ذاك الذي ابتناه لهم الإسلام . فلقد أوشكت المساواة بين الأفراد أن تكون معدومة ، بل إنها احت أصلاً مادام قد قر في أذهان الجمهور أنه لا مساواة إلا بتكافؤ الفرص أمام الجميع للرزق اليسور .

ولكن هذه الفرص كانت انطوت مع الماضي . وانقضى أجلها باقضاء أجل ابن الخطاب . فهذا الرجل الذي كان مثالا تحتذيه العدالة القضائية لم يكن كذلك في نظر العدالة الاجتماعية — أم خانه التوفيق حينما أمر بتنفيذ طريقته في تقسيم العطاء بين الناس ؟ إنه لا بد قد حضرته إذ ذاك

عوامل وجعت لديه رأيه . ولكن مما لا ريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه وكان أخرى به — لو استشفها من وراء حجب المغد القريب — أن يعدل عما حزم عليه أمره واستقر في بآله . ولكن رأيه رأيا فالتزمه . لم يجد به عنه علمه أن سلفه قبله لم يقبله ، وأن رسول الله ، صاحب خير الآراء ، كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا عمر نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينما نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم ويقول : « . . . إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيههم ذلك يوم القيامة . . . » إذا بابن الخطاب من بعده يخالفه ، ويجعل سياسته الجديدة في كلمات :

« . . . إنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله . فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام . والرجل وحاجته . . . » .

وبهذا الأساس الذي وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين كلهم على سواء بل رتبهم درجات ومنازل لكل درجة حظ من العطاء معلوم . . . ولعلنا نستطيع أن نفهم كيف رأى أن يخالف شرعة صاحبيه التي التزم المساواة ، وكيف أثر عليها هذه التفرقة في القسم حين نسمعه يقول : — « . . . لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل منه . . . »

وإنها حقاً مفكرة جميلة ، ولكنها أيضاً غير سديدة . . . وهي هكذا تكشف عن عمر رجلاً تسرع به دائماً عاطفته . غير أننا نبخسه حقاً إن تركناه قائماً بصحة رأيه حتى ساعة حينه . . . ذلك أنه في آخر عهده ود لو ثاب ثانياً إلى نظام التسوية ، بل قد أعد العدة للعود إليه ، ورسم الخطة المثلى التي هدته إليها التجربة وتداول الأحداث . وقال في آخر طام من أعوام حكمه :

« . . . والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلهم رجلاً واحداً . . . »

ولكنها رغبة أبت أن تحققها له الأيام . ومضى الرجل من الدنيا إلى
مثواه وقد خاف أمته طبقات ، تختلف — على مر الزمن — بين ذروة
الغنى والثراء وحضيض الحرمان والفاقة . فلما انعدمت بين أفرادها المساواة ،
واتسعت هوة الفوارق الاجتماعية ، كانت ثمرة السخط قد نضجت وحن
قطافها بيد خلفه المنكود .

٣

كانت صيحة أبى ذر صدى النتائج اللازمة التي تولدت من اختلاف
التقسيم . وكانت النتائج هذه الفوارق التي نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع
هضمها نفوس الفقراء . . . بل تبدلت حسداً ، وسرت إنكاراً ، وانقلبت
حقداً على أولئك الأشراف ، الذين نبئت طبقتهم من بين أوائل المسلمين ،
وبدأوا حياتهم — أيام رسول الله — مثالا يحتذى في البذل والإيثار
ونكران الذات ، ثم ختموها — أو كادوا — بالترف المفرق والغنى والدأب
على جمع المال . . . أى المحرومين إذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت
من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها أداة تكسيه ثم لا يلهب
الحسد في جوانب صدره ؟ . . . وأين محتاج يستطيع أن يرد طرفه راضياً
بعد أن يشهد ماشية ابن عوف وما اقتناه من أباعر وأفراس عديدها
الآلاف ؟ . . . وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والإماء عند طلحة ،
وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والكوفة وسواها من البلدان ،
لا يفكر هذا أشد استنكار ؟ . . . يا هجهاً من أولئك الذين آزرُوا نبيهم في
دعوتهم لدين المساواة تجمع بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن
المساواة ! . . .

هكذا جرت خواطر الناس في أذهانهم وهم يرمقون السادة الجدد بعين
حاسدة ، وكان عهدهم أنه لا سيد ولا مسود في الإسلام . وبه اعتملت

هو اطفهم كالنار في قلوبهم ، تأكل وشائج الاخاء فيها وتميت الرحمة . ولم يكن أولئك الذين حف بهم الاستعمار هم وحدهم أصحاب الطايا الجامعة نحو نعيم الدنيا ، بل كانوا أمثلة معدودة للبقية الباقية من صحب محمد ، الذين أقبلوا على الحياة وقد استهوهم منها جانبها البراق بعد أن كانوا من قبل يميلون تعففاً عن مظاهر الحياة . . . ولكن الفراغ والمال آفتا النسك والزهادة ، وهذا عطياء عمر لا تكاد حاجاتهم أن تأكل منه ، والأعطية المتوالية في عهد خلفه تتكدس لديهم العام بعد العام كلما امتدت رقعة الدولة ووسعتها الفتوح بين قرنى الشمس ثم دع هناك بعد هذا ما أفاده عليهم الاتجار بمختلف الأمصار من خير سابغ وقد خلى عثمان بينهم وبين بلاد الدولة جميعها يذرعونها وفق هواهم وأباح لهم منها ما منعت سياسة ابن الخطاب .

ثمروا إذن فائض أموالهم حتى بلغت إلى ما يكل عنه الاحصاء . وانبسط أمامهم عيشهم ليناً وحياتهم ناعمة رخية غاية الرخاء إنهم في الواقع لم يبخسوا الناس حقاً ولا جاروا على فريضة الزكاة للفقير المحروم . ولكن الزكاة لم تكن وحدها مجزية تسد حاجة الطبقات الفقيرة في زمن بيعت فيه النخلة — وثمرها خبز العربى — بألف دينار . ولئن كان الدين قد ضربها على أصحاب المال ؛ فلائها وسيلة للتخفيف عن أثقلتهم أعباء الحياة وليس لأنها غاية الغايات في النظم السماوية التى جىء بها لوضع الفسافة عن كاهل البشرية وما من امرىء أشرب قلبه روح الاسلام إلا عرفه دين إخاء ، وما من إخاء بغير مساواة إن لم يكن بالتقديم والايتار وهل كان لغير طائل قول رسول الله حين قال :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ؛ وليلبسه من لباسه ؛ ولا يكلفه ما ينغلبه فإن كلفه ما ينغلبه فأيمنه . . » .

هذه هي الناحية الانسانية في الدعوة الاسلامية ما أحسب إلا أخفتها عن عيون القوم أكداس النصارى الوهاج . ولو أن الناس عنوا بانهاجها حق

عناية لوسعهم أن يجتثوا شجرة البؤس من الأصول والجذور . ولكن
الانسان هو الانسان في كل عصوره ، منهموم أبداً ، لا يشبع من مال . اما
صاحب محمد فقد عسر عليهم بعده أن يظفروا إلى الدنيا بمثل نظرتة ، وأن
يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة ، وأن يجملوا متع الحياة تحت مواطئ
الأقدام . . . كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية — أمام أغراء الذهب —
حتى أن يقولوا كما قال :

« ما يسرنى أن لى مثل أحد أتقعه فى سبيل الله أموت وأترك منه

قيراطين . . . »

فيل :

« أو قنطارين يا رسول الله ؟ »

« يل قيراطين ! »

* * *

هكذا كانت نفوس الخاصة والأشراف فى تلك الفترة من تاريخ
الاسلام . . . ولم تكن صيحة أبى ذر هى الصوت الأوحى الذى ارتفع
يحارب هذا النهم ويحاول أن يردهم عنه ، بل سمعت هاهنا وهناك همسات
تذكر الترف ، وأصوات تدعو جاهدة إلى السبيل الواضح السليم ، ليست
كلها على السنة ذوى الحاجات . وكان طبيعياً أن يتماثل فى عزلته معلم الناس
الأول ؛ وحكيمهم بعد رسول الله . وأن يتحرك قلقاً كما يفعل أسد
حبيس فقصة إذ يلوح ما بهيج ثائرتة من خلال القضبان . . . كان دائماً
يشعر أن هذه المظاهر البراقة التى جنح إليها أصحاب محمد ، رجال كتائب
الايمان الأولى ، إن هى إلا جراح فى قلبه تدميه لأنها خدوش أحدثتها
شراهة النفوس فى كيان الدين . ولكنه لم يكن يملك غير لسانه يفيض
بجوامع كلمه — تماماً كالأسد إذ يلحق به دماء كلمه . كم من يوم مشى على
إلى أولئك المترفين من الصحاب ، تارة بالتصيح وتارة بالعتاب ! . . . وكم من
مرة واجه فيها عثمان برأيه فى سياسته المبنية على التهاون واللين إزاء تهالك

هؤلاء اسادة على زخرف الحياة دون بساطة الزهادة ! .. وكما عاد من حديث ملامة عجب لهذا المال كيف يستعبد الرجال ، ويشترى منهم قلوبهم رخيصة .. إنه هو واحد منهم ، نهل كمثلهم من نبع هاديه وبدأ وإياهم السير على سفنه .. فما لهم توقفوا من دونه عن إتمام الرحلة ؟ .. وإنه أيضاً واحد منهم ، له عطاء كمثل عطائهم أو يزيد قليلا ، فما له لو أراد شيعا لأعوزه أن يجد في يته ما يملأ بطنه من دقيق الشمير ؟ .

ولكن أمن المستطاع حقاً أن تقرر به غيره ، هو الذي ولى الدنيا ظهره ، وزهدا مقبلة أو مدبرة ، وقرن فيها البذل وإتفاق المال بالايان فقال :
« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده . »

٤

غلبت فتنة البذخ على نفوس السكرة من كبار رجال الإسلام ، واستهوهم الثراء وحب الاقتناء . وكان عثمان كأحدهم ، لولا أنه يملك مفاتيح بيت المال فيستطيع متى شاء أن يهب يمين وشمال . وكان سخياً حياً ، ما قصد إليه امرؤ إلا أطلن له كفه ... غير أن الحياء والسخاء كأيهما كانا عون أهله عليه ، ووسيلتهم إلى قلبه الرقيق ... وهل يسمعه أن يرفض لهم حاجة وقد اتخذهم من دون المسلمين بطانة وأعوانا يسندون ملكه ؟ .

إنما وسعه أن يصدق عاينهم من الأموال ما جادت به أريحته وتسأى إليه كرمه . ولكنه في البذل لهم لم يكن مسوقاً بسجيته السخية بقدر ما دفعته ظروف الأحوال ... كان يعلم حق العلم أي الرجال بين الناس كان ذووه ، وأي المنازل تزلوها في قلوب شعبه ؛ وبأي النظرات كانت تراهم عيون الأمة ... ما من واحد منهم إلا نهامت به الألسن اللاغطة أو اقتحمته الأبصار واثارت به القلوب النقية الصافية والعقول الذاكرة الواعية ... كانوا في الناس ذوى ماض مشوب السيرة

معتكر السريرة . وحتى الذين كانوا من بينهم أتقى ضعيفة ، لم تكن الأذهان قد نسيت أنهم أوغموا على اعتناق دين الله فدخلوه وأعناقهم تحت ظل السيف ، وأن قلوبهم لم يعمرها الإيمان أو يعلق بها إلا بعد أن تألفها رسول الله بالأعطية والهبات حتى لا يحملهم ضعف نياتهم على أن يماثلوا عليه الكفار . وكان محمد — العارف بطوايا الأنفس وأهوائها — يقول فيهم ، وفيمن كانوا على غير قرارهم ممن آمنوا ابتغاء مرضاة الله :

« إني لأعطي قوماً أتألف ظلمهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى . »

ولعلنا في هذا المقام يحضرنا كيف وجدت الأنصار أن رسول الله يعطي بعض قريش — وفيهم أبو سفيان بن حرب وابناه معاوية وبزید — ما غنمه في حنين ، فتقدم إلى أنصاره معانها يقول :

« أوجدتم بامعشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟. »

هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا خير بني بيت عثمان وكلهم تأخر عن الإسلام إلى أن وضحت في الأفق شمس نصره . وإن منهم من تخلف عنه — حتى بعد أن فتحت مكة أبوابها لمحمد بغير أهاة حرب — وقام تدفعه الجهالة وسوء تبصره بالأمر إلى إشهار سيفه في عصبة من موتوري الكفار . ذاك كان يزيد بن أبي سفيان : حسب أن قد آن له أن يمنع بلدته ، فما وقف حتى وقع في الأسار .

وكانت هناك أيضاً بقية منهم فيها عمه الحكم بن أبي العاص الذي خاض في رسول الله من فحش القول والإشارة بما لم يغفر له بعد إسلامه ونفى من أجله إلى الطائف لا يبرحها بأمر رسول الله . وظل بمنغاف بمهدا في عهد أبي بكر وإن شفع له لديه عثمان . فلما استخلف عمر ، ومشى إليه عثمان ثانية بالرجاء ، نهره وقال :

« يخرجك رسول الله وتأمرني أن أردده ؟ ... إياك يا ابن تخفان أن

تعاودني فيه بعد اليوم ! . »

ولكنه ما كاد يمتلك مقاليد السلطان حتى أكرم طريد رسول الله ورده معززاً إلى المدينة ومنحه مائة ألف .

وكان فيهم ذلك الفتى ابن أبي سرح الذي أسلم — فيما يبدو — نكاية في الإسلام ، حتى إذا وكل إليه محمد كتابة يعض الوحي خان الأمانة وحول أن يبدل ويغير في التنزيل ، فأهدر الرسول دمه ، ثم عفا عنه عام الفتح واتسع له حلمه . وكان أيضاً فيهم الوليد بن عقبة الذي عاد إلى رسول الله — وقد كان بمشه إلى بنى قريظة بعد إسلامهم — فزعم أنهم هموا أن يفتكوا به وغضب له المسلمون ، وكادوا أن يشعلوها حرباً من أجله لولا أن تداركتهم آية من عند الله قالت فيه :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واقدرت فعلا كلمة الله عليه ، لأنها لا تلبث إلا قليلاً حتى تطالعنا من تاريخ هذا الفتى صفحة ملطخة ، هي الصورة الواضحة لنفسه التي كشف عنها القرآن الكريم قبل كثير من الأعوام .

هذه ألوان من أسرة عثمان انمكت عليها عواطف شعبه منذ اليوم الذي تملك فيه أمور الناس . . . وكان رجلاً يجتمع في قلبه إلى جوار طبيته حبة بيتته ومنه كل أولئك الذين أبت عليهم أقدارهم إلا أن يذهبوا في التاريخ مثلاً حبة لعداوة الإسلام قبل أن تقهر نفوسهم على الولاء له . ولم يكن هذا بالمجيب منهم وهم أمويون . ولكن العجيب أن ينشأ من بينهم عثمان السمع ذو النورين . . . فلما استطاع أن يوليهم منه لم يحجم أبداً ، وتقدم راضياً بمنحهم من خيره وفضله . وما أحسبه قد خالف طبيعته البشرية إذ فعل ، ولكنه استجاب لها . ولئن كان مثله ، تقدم به العمر ووهن قوى ، وأوشك أن ينوء بعظم الأمر الموكول إليه ، أن يؤلف حوله بطانة تشدد

عزمه وتحمل عنه بعض ويره . . . وأوفى الناس له بلا ريب هم أدنى الناس إليه . فلما علمهم موسومين بشبهات ماضيه ، رأى أن يعوضهم عن حسن السيرة بحسن المظهر لعله مستطيع بهذا أن يبهز النظرات الشرراء التي عيدها تقتحمهم من قبل . ولقد يكون المجد العارض مغنياً عن نقاوة السمعة بعض غناء ، والثروة السابغة مدعاة للتوقير والاحترام .

غير أنه نسي في هذا أن الشعب الحائق على تفضيل السابقين إلى الإسلام في العطاء لا يستطيع أن يغفر تفضيل من لهم تاريخ معلوم في عداء الإسلام وإن كانوا أهل بيت عثمان . . . ولكنه كان رجلاً كافئاً بذويه . لا يقدر — لفرط حبه إياهم — أن يتبين خطأ في منة يعدم بها ويرفع من مقامهم بين الناس . وكانت نفسه السخية تجبذ لديه الكرم حينما اختلف وضعه . ولو صله قرابته بر يقبله الله ! .

كذلك كانت نظراته كلما اغترف من المال فغمر به ذوى قرابه . وبهذا جرى في خاطره رأيه فاقتنع به أشد اقتناع . وكان عسيراً عليه أن يقلع عنه وإن عاتبه فيه صحبه ولا موه عليه . . . مشى إليه ذات يوم على بن أبي طالب ومعه نفر علموا أنه وهب أحد ذويه مائة ألف قعائبوه فأجاب .

« إن له قرابة ورعاً » .

فأنكروا عليه حجته وسألوه :

« فإنا كان لأبي بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ »

قال :

« إن أبا بكر وعمر كانا محتسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحتسب في

إعطاء قرابتي » .

فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون :

« فهديهما والله أحب إليفا من هديك ! » .

بدا عثمان كمن حرص على أن يعمل جاهداً لتزيد هوة الفوارق بين الطبقات اتساعاً في وقت دعت الحكمة فيه إلى محوها أو تضيقها في القليل . ولكنه كان يحمل في صدره قلباً لا تنعكس عليه مشاعر شعبه ، قد ملأه حب ذويه حتى لم تبق فيه سمة لغبر الكلف بهم ، والفناء من أجلهم وفيهم . وكانت له عين تقصر عن الرؤية إلا لمدى معلوم ، لأن آله وقفوا يحجبون عنها أشخاصهم وهياكلهم ما وراهم من أبعاد ومسافات . وكان عقله بعد هذا عقل شيخ . فقد مزية الصبر على معالجة ما يعرض له من أمور ، وكل فآثر أن يستعير منهم الرأي والفكرة .

وفي الحق لم يكن الرجل في ثأني شطرى عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان . . . أينما خطر أمام الناس رأوا الأمير الشيخ ، فإذا عمل بدت في العمل آثار المشبر الشاب . . . حتى الكلام لم تكن له سبيل إلى اختيار ألفاظه كأنما كان يلقنه قبل النهوض له . أو كأنه الستر الذي يتحدث من خلفه مروان . وإنه لمن الإجحاف بحق الخليفة الثالث أن يؤخذ بجريرة كل ما نسب إليه إلا إن تركت اليد الجانية وحوسب عنها القفاز .

كان مروان بن الحكم بن أبي العاص هو الحاكم الحقيقي للدولة ، والحاكم أيضاً لحاكم الدولة ! . . . وكان ابن عمه في يده ملاماة ، أضرت به طيبة قلبه وسلاسة قياده . ولكن الشيخوخة تقتل العزم ، وتطفى جذوة التوقد في العقل والحمية في القلب ، وعسير على من بلغ سن عثمان أن يظل معافى في كلا الذهن والبدن ، وأن يملك نفسه أن تلين لضغط من كان أشد مراساً منه . ولقد عرف مروان من قاب الشيخ طوية سليمة ، فلم يعجزه أن ينفذ منه كما ينفذ شيطان . . . ولعله ظل طوال النصف الأول من عهد عثمان يحيك خيط شباكه فبقي هكذا في الخفاء لا يسمع بسطوته الناس . ولكنه كان

متربصاً لوقته ، متحييناً للفرصة التي آمن أن لا بد سيشمرها دأبه . وما دام أمير المؤمنين كلفاً بأهل بيته ، قد أوسم في قلبه لهم ، وغمرت مكارمه البميد والقريب منهم ، فليكن إذن مروان من الأدنى أدناهم . وليتقدم إلى ابن عمه بما يقدمه على كل أولئك الرهط المتهاوتين على ابن الشيخ تهافت الفراش على الثور والنحل على الزهر . . . وهل هناك أجدى عليه من رواج يزيد بأمير المؤمنين توثق صلة وعلو منزلة ؟

ومن اليوم الذي زف فيه إلى أم أبان ابنة عثمان أخذ نجم ابن طريد الرسول يعمل في حكم الدولة . وراح الناس يتطلعون إليه تطلعهم إلى مالك أقدارها المتحكم في مصايرها . ولو كان كيساً لم يركب شططه ، لو سعه أن يصلح ما أفسد الزمن من سلطان صهره . ولكنه كان مفتوتاً بالصلف ، مستبد النزعة ، يثيره النقد حتى الحماقة ، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه . وهذه صفة كانت علماً على سياسته التي أغرى بها عثمان حتى أوردته حتفه .

وكأنما كان الرجلان كفتى ميزان ، رجحان الواحدة على حساب الأخرى . . . فكلما زادت شوكة المشير ، وهنت هيبة الأمير ، وأخذ ما بقي له من إجلال في نفوس شعبه يذهب بدءاً . . . ولو أن عثمان كان أنقذ بصيرة وأقوى على اكتناه نتائج الأمور لاستطاع منذ هذا الزواج أن يأخذ حذره ويتبين موقع قدميه . ولكنه كان ينظر بغير عينيه . وكان كلفاً بمروان مفتوتاً أشد افتتان ، لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق وإن جاءت على لسان من لا تعلق به شبهة . وكان قد منح زوج ابنته يوم عرسه مائتي ألف من بيت المال سوى ما كان قد أقطعه إياه من قطائع . فلما أصبح ، جاءه مع الصباح زيد بن أرقم خازنه ، حزينا يشرق بدمعه يرجوه أن يقليله .

استغرب عثمان غاية استغراب من البسكاء والرجاء وراح يحدس في ذهنه الدافع الذي حدا بعامله أن يترك عمله ، ويتوسل إلى الإقالة باعتصار عينيه .

فلما أعيا ذهنه أن يقع على سبب واضح مقبول ، واستوضح الرجل وعلم سره ، بلغ به العجب مداه .

وقال أخيراً محيراً ، بعد أن التى زيد إليه بما فى نفسه :

« أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحى ؟ » .

فأجابه خازن بيت المال بلا مواربة ولا إخفاء :

« لا يا أمير المؤمنين . . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال

عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . . . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً ! »

فأغضبته هذه البادرة أيما غضب وصاح محنقاً بالناصح الأمين :

« ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإننا سنجد غيرك ! » .

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سجناء عثمان ، وحرمة على أن يتخيم آله بأسباب الجاه . . فحيثما جرت العين فى سطور تاريخه رأت إغراقاً فى البذل تكاد أن تحسبه من خيالات الأوهام . حتى فى بدء حكمه — فى ذات اليوم الأول لخلافته ، مدح أبا سفيان شيخ بنى أمية مائتى ألف درهم . . . فقيم هذا الكرم المفرق العجيب ؟ . . وهل كان أداؤه لسبب معلوم؟ . . . لعل الرجل كان يلبي نفسه المطبوعة على الأريحية ! . . لعله — على حد قوله — آتى المال ذوى قرابه زلفى إلى الله ! .. لعله كان يستجيب لهذا أولئك من الدوافع الشخصية . ولكن المنافع من أجله ، المدافع عنه ، سيميه لا بد أن يقع فى حياته على جواب واحد يشفع له ويقوم مقام أوهى الأعذار .

أما الناقد الفاضل فيسير عليه أن يثبت له . وأن يجهه بكل صنوف الاتهام . ألم يكن هذا الإتفاق فى غير وجوه الإصلاح العامة إلا عبثاً كاملاً بالأموال ؟ .. وهذه الآلاف البذولة — إن عرف جدواها على بنى أمية فما جدواها على الأمة الإسلامية ؟ . . وما للشعب ولأم أبان يتزوجها مروان —

ولعائشة أختها يتزوجها الحرث أخوه فوجزل الأمير للرجلين العطاء ويمهرها
 كأغلى ما تمهر النساء ؟ . قد كان عثمان غنياً حقاً يسهه أن يبذل المون لأهله ،
 ولكن أى ثروة هذه التى تحتل توزيع مائة ألف دينار على الحكم بن أبى
 العاص ورجال بيته ، ومائة ألف ثانية على بنى عثمان ، ومائة ألف ثالثة على بنى
 أمية وآل أبى سفيان .. ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من أمرته
 الوفيرة الفروع والأفراد ؟ .

هذا الإغراق فى السخاء كان حرياً بأن يشكك فى الأمير شعبه الفقير ،
 ويضعه من العيون الفاحصة فى نطاق الشبهات ، فما كان للطبقات المترتبة
 لأخطائه أن تصدق أن نصف هذه المنع النبذولة — فى القليل — لم يكن من
 بيت المال ، وأن ثروته القديمة ، التى أبقى جانبها الأكبر فى الكفاح لنشر
 الاسلام ، تحتل أن تبقى فيها بقية تنى بكل هباته الجديدة .. ولعل أولئك
 المستريين فيه لم ينسوا أن عطاءه طوال حكم عمر ، وكان لا يزيد على خمسة
 آلاف درهم فى العام ، لا يمكن بحال أن يبلغ جزءاً واحداً من مائة جزء
 مما وسعه إنفاقه على ذويه .

ولكنها سياسة اختطها الرجل لنفسه والتمها أشد التزم . إذا وزنها
 الفاحص التريث أعوزه أن يتلمس لها المفاير وإن كان لا يعوزه أن يقدر
 دوافعها وتناجها فلا يخطئ فى التقدير .. ولما غابت عنه دعوة أبى سفيان
 لذويه — يوم استخلاف عثمان — أن يجعلوا الإمرة ملكاً تتوارثه الأسرة ،
 فليذكر إذن هذه الدعوة الآن .. وليعجب أكانت إيماء خفياً من شيخ
 بنى أمية رتب بواعمة الخليفة الثالث ، ثم طفا آونة فى صورة جود يرمى
 بكل جود ، وثانية فى مظهر جاء يعز على النظائر والأشبهاء ! .. ثم ليسأل من
 بعد هلا بنى المال منعة وقوة ، وهلا تنى القوة سلطاناً وسطوة ؟ .

إنه الأمس فقط .. الأمس القريب الذي لم يكذب ينطوي في ألفاف الماضي إلا من قليل وإن بقي ذكره حاضراً في أذهان الناس لا تغيب آثاره .. وإنها الدعوة أيضا .. الدعوة السافرة الجريئة التي حاولت كلمات الخليفة المستنكرة أن تلفها في غلالة تخفيها ، فجاءت الغلالة رقيقة رقة نفسه ، شفافاً أبدتها على هيئتها الأولى ، كما أرادها صاحبها الداعي بها : شيخ فريش .

أجل إنه الأمس المائل والدعوة السافرة . كلاهما له في نفوس الناس أثر عائق لم يعد الزمن إليه يداً لتمجوده بقدر ما كان يعيدها لنشئته أو تضيف إليه . فما من رجل في الأمة كان يرى الخليفة مرة إلا ذكر الواحد و ذكر الثانية .. الأمس يتجدد في كل نهار ، والدعوة يعلو صوتها كأنها تخرج لتوها من بين شفتي أبي سفيان كلما رأى الناس جديداً من فمال عثمان .

كان المصر كله يوماً واحداً ، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الأموي ، يتكرر مع الصباح ولا يتغير ، كالصور الشتي لأصل معلوم ، وكان موسوماً بسماط طبعها عليه الماضي قبل أن يطعمها الحاضر . ولو استعان المرء بخياله لهل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه ، لوسعه أن يراها في ذلك النظر المائل في الذهن وإن غاب عن العين ، بدار عثمان يوم استخلافه ، وقد اجتمعت شرذمة من أسرته يهيب بها شيخها وبالخليفة الجديد :

« يا بني أمية .. تلقفوها تلقف الكرة . فوالذي يحاف به أبو سفيان ،

ما زلت أرجوها لكم ، ولتصبرن إلى صبيانكم وراثته ! .. »

هذا المظهر القديم هو الصورة التي تحمل في معالمها كل دقائق العصر . بل هو — في الحق — الصورة المتكررة لكل أيامه حتى لكأن أبو سفيان كان يقف نفس موقفة هذا في كل صباح ليدعو بدعوته .. بهذا تمحوت الوقائع من بعد كأنما لسان ابن حرب كان لها لسان حال . وبه تكلمت

الأحداث التي تلاحت دراكا . فما مر يوم واحد من حكم السليل الأموي إلا وفي ثناياه دليل بالغ على التزامه النهج الذي رسمه سيد قومه . ولا جاءت لحظة إلا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء .

ضريح بني أمية دعا ، وأمير بني أمية لبي .. ولا عبرة بمد هذا بما كان من استنكار الثأني باديء الأمر للدعوة .. وإنما العبرة بأنه احتذاها خطوة خطوة ! .

بدأ عثمان — أول أمره — كمن أنكر على أبي سفيان دعوته السافرة إلى انقلاب السلطان ، وإلى تبديله من خلافة شورية إلى ملك متواثف في بني أمية .. ثم فعل كمن غلبته تلك الدعوة على عزمه .. قد كان حقاً رجلاً رخواً لا يملك أن يسوس نفسه ، ولكن عوامل كثيرة أخرى تضافرت عليه فسلبته حتى القدرة على الاستمساك بإنكاره . وقهرته — حثفت أنفه بخير افتراض — على سلوك الطريق المؤدية إلى تحقيق مطامع الأمويين .. هذه الأسرة الحاملة بالمجد منذ عهد شمس ، الظامئة إلى السيادة في شخص أمية ، الساعية بسيف أبي سفيان وحققه لهدم كل سلطان يبرزها ولو كان سلطان الدين ، قد آن لها أخيراً أن تشبع مهمها من السطوة والسوطرة والنفاذ .

في كل فعاله كان عثمان يسير على غرار معلوم .. لكأنما كانت تدفمه دائماً تلك الكلمات القلائل التي نطق بها يوم الاستخلاف شيخ الأمويين .. أو لكأنما كان أبو سفيان على أذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتیه .. أم هو ياترى نداء الماضي أيضاً كان ينفذ إليه من خلال الأجيال ؟ .. إن الوراثة أخيراً قد قهره سلطانها الغلاب ، وإن الدم الأموي قد اقتضاه ضريته الواجبة الأداء .

ولقد استجاب الرجل لنداء الماضي ، ولأن لسطوة الوراثة ، ودفع ضريبة الدم .. إنه أموي المولد أموي التكوين ، موصول قلبه بأهواء

أسلافه ... وإذا كانوا جروا من قبله أشواطاً في طريق السيادة ، ووقفوا طويلاً ينافسون المجلدين عليهم في الميدان ، وأمعنوا في منافستهم حتى ناجزوا في محمد نفسه — لطان السماء ... إن كانت قد ركبت بهم نفوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف ، فإنهم إذن اليوم قد أوشكت شمسهم على البروغ . وأوشكت أحلامهم العريضة الموعودة أن نجد لها منفذاً إلى الحياة بعد أن أصبحت في يد أحدهم دولة عريضة تكاد ألا تحدها حدود .

عثمان أمير المؤمنين قد استنب له أمره ، وانقاد له الناس ، وألقت إليه بطاعتها الأمصار . . . هذا الأموي أصبح الآن أمامه حقيقة ما كان أمية يرنو إلى بعضها بين الخيال . تجملت بين أصابعه خيوط يحرك بها دولا وشعوباً كيما يتساءل .. دانت له الرقاب ، وهنت الوجود ، وسالت تحت قدميه الأموال .. إنه ليس بالطامع الذي يستنده الشره ، ولا بالمفتون بالجاه ، ولا بالنهم إلى مرض الحياة . إنه كان تقي القلب ، صافي السريرة ، نفسه غير مشوبة بسواد الأحقاد . . إنه لم يكن مغرقاً في الأموية كبقية الأمويين ! .. ولكنه مع ذلك إنسان كغيره من الناس ، له طبيعة بشرية ، ودم حنان ، وعرق دساس .

هذه كانت وحدها أداة عثمان إلى تحقيق أهداف أسرته . هذه الحوافز النفسية كانت هي الأداة . . أما هو فلمعه أنكر دأماً بظاهر عقله — كما أنكر بلسانه — أن يقر لهم بحق واحد في بلوغ هذه الأهداف . ولكن العقل الطاهر في مثل هذه الحالات جدواه قليلة . . معدوم الحيلة . والكلمة النافذة في النهاية ليست لمنطق اللسان ، بل لتلك القوة الدافقة الدافمة . . لتقل الباطن والواعية التي ليس لصاحبها عليها سلطان .

الحوافز النفسية دفعت عثمان للسير على غرار معلوم . وتحت ضوءها الساطع استطاع فهم كل أخطائه . . هو لم يعرف مطلقاً أنه أخطأ ، ولم يقر على نفسه

يوزد ارتكبه لفعل اتاه . . ذلك لأنه كان يعمل دائماً بحسن نية . أو كان حقا لا يعمل بنية سيئة — على الإطلاق .

كذلك سار الرجل طريقه ، مقودا بزمام نزع قديمة كالغريزة ، انتقلت مع الأجيال الأموية المتعاقبة في عروقه وجرت دما قانيا لا يفيض . وراح يأملاء هذه النزع يسود أهله ويرفهم عاليا فوق رقاب الناس ، ثم لا يعدم — لو وقف موقف لوم أو موقف حساب — أن يتلمس لنفسه المعادير فلا يعميه أن يقع عليها في حسن اضطلاع بالأمر فضلا عن صفة الرحم وقرب الأنساب .

وكما سبق أبو سفيان بقية أهله إلى سخاء الخليفة ونزه حتى لازمته بأول هبة أخرجها يوم الاستخلاف ، كذلك كان هو أول من أفاد من أسباب النفوذ حين شاء عثمان أن يمكن لآله في السطوة بعد الثروة . . فلم يكذب بمضى عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن أبي سفيان في الأفق ولمع . . وغدا ، بعد عامل لعمر على دمشق والأردن ، أميرا للخليفة الشيخ عليهما ومحص وقنشرين وفلسطين . واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثابتة إلى امتلاكها وامتلاك الدولة كلها بعد أعوام .

ثم سار الخليفة يذرع بواعيته البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالا من ذويه ، ويضم في أكتفهم صوالب السلطة . وأخذ أفراد الأسرة الكبيرة ينتشرون في الآفاق أمراء من لدته على الرعية والجند ، يمسون بالزمام في البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان . ولم يمض سوى قليل حتى قفز إلى أماكن الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد ومروان ممن كانوا إلى عهد قريب بين صفوف الأحرار ومغموري الناس .

وكذلك مكن عثمان لأهله في الدولة ، ومكن بهذا الدعوة شيخه الضير أن تتحقق . . وأصبحت البلاد في أكتفهم كذباية أوقعها سوء الطالع في نسج عنكبوت . . .

كيف مضى الزمن والرجل حبيس هكذا بين أسوار تفكيره الخاص ؟
 كيف ظلت غشاوة الأثرة على بصيرته لا تفجأ أبدا ؟ . . كيف عاش أيام
 حكمه كلها في عالم لا يكاد أن يسمع فيه سوى رغبات أقربائه ؟ .

ليس عجبا أن يبقى عثمان طوال عهده مفصولا بين شعبه لا بتبين
 شيئا من مشاعره نحوه ما دام أفراد أسرته كانوا الترجمان غير الأمين لتلك
 المشاعر . هذه الشرذمة لم تصدقه مطلقا القول ، ولم تنفرج شفاهها المتحدثة
 عن كلمة واحدة تنبه ذهنه ، ولم تشر أصابعها مرة إلى موطن الداء . . . كل
 ما أخذوا به تقوسهم كان إخفاء الحقيقة عنه ، وتغطيتها بستار كثيف من
 التمويه والزور . وكان الرجل ، وقد أولاهم ثقتهم ، يسمع بأذانهم ، وينظر
 فلا يرى بعينه ! .

وكانت صوالحهم هي وحدها أسمى الأهداف . وكانت غاياتهم ركوب
 هام الناس والنفوذ إلى المآرب من أي سبيل . . أما هو فكان ساذج القلب ،
 بريئا كالزهرة ، يعيش في نطاق مضروب حوله من الفحل ! . . وكان أيضا له
 سن شيخ وسريرة طفل . يلهيه الغضب ثم يرده الترضي إلى طبيعة اللين
 والاسترخاء . فإذا أوشكت تيارات العواصف الشعبية أن تهددهم في أغراضهم
 أحيوا فيه حدة الشيخ وغضبته الفواردة على كل قائم أمامهم بالمفاجزة والكفاح .
 وإذا هدأت العاصفة ومرت فوق رؤوسهم بسلام فالطفل الكامن في نفسه كفيل
 بأن يفيء هائبهم من الخير كل ما يطمعون فيه ما استطاعوا أن يمسخوا على شعره
 بكف الملاينة والاسترضاء .

هذه هي الخطة التي التزمها الأسرة ، والتزمها — أشد التزام — مروان
 ابن الحكم حيال عثمان . وبها استطاع ابن الطريد أن يملك وحده نواحي
 السياسة في الدولة ، وأن يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضا على فكر الحاكم .

لم يكن فحسب مشيراً للأمر ، ولا وزيراً ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمراء ، ولا أداة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد ، ولكنه كان أوائك جميعاً في حساب المظاهر ، وكان أيضاً الأمير في حساب الواقع الصريح السافر ! .

وكان أمراً لم يعوزه الحبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء ، يحرك بأصابعه الخيط في الناحية التي تملأها عليه شهوته ، ويعمل دائماً وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشهخ فيبدو العمل ويبدو عثمان في آن . مثله بلاريب كتلك الهوام تخفى النور وتذب في الظلام . الحماة كان ميدانه ، ولدى سلاحه ، والتمويه مركبه إلى هواه . أفلا يشي كل هذا بحسن طبيعته ؟ .

بلى قد وثقى وانحسر السر ! . . . ولكنه استهض خبثه وراح يجيس كل ما استبطن من خبيء نفسه ليستعين به على المحنة . . . في بادئ الأمر قبل أن يدلهم الخطب كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كقيلة بما يريد . ولم يكن التذمر إذ ذاك يبدو تهام من الناس ببعض أخطاء عثمان ، أو تناولهم — في كثير من الحرص والتحرز — فماله النايبة ببعض الاستنكار . . . ولو أن مروان كان حقاً وزير صدق لوسمه أن يتدارك الفتنة ، وأن يكشف مخلصاً عن مكنها ثم يشير على ولي نعمته بالعلاج الحاسم . ولمسكنه كان أمراً جبان الطبع ، لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستعان دائماً على الأزمات بأسلحة الظلام .

سل الدس والخداع والوقية ، ومشى بين الخليفة وبين شعبه ، يرسم الحوادث وفق هواه ثم يشير كافة العوامل النفسية التي تضطرم بها دماء الرجل . استغل في عثمان بره بأهله فصور له كل ناقد في صورة ناقم عليه هذا البر ، حاسد أهله ما أصابوا من خير . واستغل فيه ضيق الخلق الذي يلزم الشيخوخة فأوغر صدره على كل من مشى إليه جو الإصلاح أو يطلب الإنصاف . واستغل فيه تشبث الشيخ المهيض بما في يده من سلطان — وطبائع الشيوخ أدنى إلى طبائع الأطفال — فلون له من عارضه من الناس بلون الساخط الملول ، يتمهل

نهايته أن تحين وحكمه أن يزول . حتى طيبة نفس عثمان وحلمه استغلبها هذا الباغى وجعلهما في عين الشيخ ذريعة الناس إلى الاستهانة به والجرأة عليه .

كذلك لم يبق في الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا ألبسها مروان ثوب باطل . ولا دعوة تحدث بها الشفاء إلا حاول خنقها قبل أن تضيع . وكان يستلهم دائماً نفسه فيسمفه خبثها بالذرائع والأسباب ، ويغده جبنه بألف وسيلة للمناهضة والكفاح ولم يكن في هذا بحامي الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سخطه . قد علم في فرارته فيم كان تدمير الشعب وإلى أين تؤدي به استجابة رغباته وأساس الاستنكار دائماً كان الترف الذي غرق فيه أهل بيت عثمان ومن لف لفهم ، وما جره الترف على بقية الأمة من الفاقة والحرمان .

حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن نفسه ، وحاول خنق حرية الرأي لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا في ظلام الاستبداد . ولو استطاع لقطع السنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة . غير أنه بقليل جهد أمكنه أن يجعل الأمير مؤمناً أشد الإيمان بأساليبه يقره على انتهاجها بغير توان . . هو حقاً لم يبد للعيان في صورة المناجز . ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه . وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد .

وهكذا مضت الأيام والخليفة الشيخ غافل ، لا يستطيع أن يعد بعصره لأكثر من نطاق داره ، ولأن يرهف أذنه للصيحات التي جاءت تترى من هنا ومن هناك . فإذا رأى لمحدث آله أصدق عنده من رؤية عينه ، وإن سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو إذن محور السماع . . . خشي معاوية أن تقسد عليه دعوة أبي ذر شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة واستبداد بأموال الناس يحنجها أو يصرفها كما يشاء فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أبا ذر أعضل بي . . . وقد اجتمعت إليه الجوع ولا آمن أن يفسد

عليك . فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك .

فكانه لم يخش من الداعية الزاهد إلا أن يفسد الأمر على عثمان . وكان خوفه هو منه على نفسه لم يطف له ببال .

ومع ذلك فإلى أين أدى به هذا الصوت الداوى الذي ملأ كل الأسماع؟ .. وكيف تنق الدعوة التي جاءت من الشام عبر الصحراء؟ .. ولأى مدى استوعبها قلبه وتفكر في قيمتها ذهنه هو العالم بأن صاحبها ما كان لينطق عن هوى أو ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين؟ .. عجب أن ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب — كما ألهمه معاوية — أن أبا ذر أراد أن يفسد عليه الناس! .

ولكنه كان قد أولى آله ثقته . يسمع بأذاتهم . وينظر فلا يرى بعينه .. ولو مشى إليه بالشكوى آلاف الناس لأصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم بأغلق العقاب كما يشير عليه ذووه .. لا يشفع للشاكي عنده شفيع من حقيقة ماثلة في شكواه ، ولا من إخلاص وأمانة تم عنهما كل مراحل ماضيه . وبهذه الروح التي جانب الإنصاف وواجب الحاكم حيال رعيته ، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد أو دعوة إلى إصلاح .

وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح أظلم الطغاة ، لا يدع وسيلة من وسائل النكال إلا ركبهم بها عسى أن يقهرهم بالظلم على الإقرار بالظلم ... حتى ذلك الصحابي الجليل لم يسلم من يده . لكن لما نسي له عثمان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة .. بلى قد نسي — فيما يبدو — لأنه أراد أن يذكر فحسب أن أبا ذر — ولماوية في هذا القول الفصل — جأر بدعوته ليفسد عليه الناس .. ألا فأين الصواب إذن إن لم يكن في دعوة هذا الشيخ ، وحضه الموسر على أن يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسمعه أن ينفقه من أجل أخ له، وفي سبيل الله ، ومهلا بهدى القرآن .

ومع ذلك فلن يعي طاغية أن يقمع داعية ... ولن يعجز صاحب طول وسلطان أن يقهر من يريد على ما يريد ... وإن السلاح في يديه حاضر ،

وإن البطش لكثير الألوان والأساليب . وبحسب هذا الهزيل أبي ذر أن تبعد داره ويشق مراره ويواري وجهه عن الخليفة بأرض فلاة . . . بحسبه أن ينفي إلى الربذة فلا يلقاه الناس عساه أن يموت فيها وتسكن عن ذكره أسنة الناس !

٨

فما حدثتنا به الآثار ، أوصى عمر الخليفة من بعده بالمهاجرين الأولين خيراً ، يعرف لهم سابقهم . وبالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وبأهل الأمصار خيراً فإنهم رداء العدو وحياة النى .

وأوصاه بمقراء الأمة يأخذ من حواشي أموال الأغنياء فبرده عليهم . وبالمعدل في الرعية لا يؤثر غنيهم على فقيرهم . وبالشدة في أمر الله وحدوده ومعاصيه على القريب إليه من الناس والبعيد عنه .

ثم أوصاه بجماعة المسلمين أن يحل الكبير ، ويرحم الصغير ، ويوقر العالم . وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالنى فيفضيهم ، ولا يحرمهم عطايهم عند محملها فيفقرهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

ولقد كانت حياة عمر في ذاتها سفراً كاملاً لهذه الوصايا لمن أراد أن يستعين بالأمثال النابضة بالحياة ، ولـكنا لا نستطيع — كلما امتد الزمن — أن نرى في خليفته رجلاً يحسن قراءة الوصايا المكنونة فضلاً عن التزامه النهج الذى دعت إليه ، لأن عهد عثمان كاه لا يكاد يقبئنا عن هذا بقليل ولا كثير !

خلف الرجل فنأى بجانبه عن المهاجرين والأنصار . وانحاز تحت ضغط عوامل خاصة إلى فئة من أهله مكانهم في الذيول والأعقاب إذا ذكرت منازل ذوى الفضل من المسلمين السابقين إلى الإسلام . وترك صوالج السلطة بأيدي شرذمة مفتونة من غلبة بيته ينقدون بها إلى استعباد أهل الأمصار . وأوسع

للا ثرياء في رحابه يستظلون بآلالته ويصرفون من نعمائه ، والفقر المحروم مقطوع
 بينه وبين ماله في تراث الفنى من حق معلوم . وأرهف الشدة فكانت سلاحاً
 ذا حدين : واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم ، وآخر مثوم دأب به بغى الظالم ،
 ولا مقياس له عند الحساب غير شريعة الأنساب . . . ثم بدا في نهاية الأمر
 كمن آلى على نفسه أن يقرأ وصية عمر فيأتى من بعد بكل تقيض لها ، فأثر
 الاضطهاد والفساد عند محاسبته ناقدية : يستذلهم وينهيمهم ويضربهم ويقطع
 عنهم موارد عيشهم من النىء والمطاء كلما جاؤ به بنقد أو أرادوه على التزام إصلاح .
 كذلك فعل الرجل وكذلك رأيناه . . تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من
 آراء بادية الأمر في المدينة فنبذه إلى الشام . وارتفع صوته هناك لحق الفقراء
 في أموال الأغنياء فردده للمدينة شرردة . وأعضلت به الدعوة من بعد فنفاه
 بفلاة وفي ظنه أن النفى والتشريد هو السلاح القاطع لآلسنة المصلحين ودعوة الدعاة .
 وأنكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض أخطائه فناب عنها
 لدنه عمار بن ياسر يحضه على الإقلاع عما وقع فيه ، ويبصره بالخير في النزوع
 والرجوع فلم يليق منه سوى الغضب الذى غلب كل روية والعنف الذى بلغت
 حدته أقسى التشكيل والإيذاء .

وخالفه ابن مسعود في رأيه عن جمع القرآن فلم يمالجه بالإقناع أو يصرفه
 بالمعروف والإحسان ، بل أمر به أن يؤدب لاجترائه فضربه بعض عبده
 وضربوا به الأرض إمعاناً منهم في الشدة عليه حتى كسروا أضلاعه ، ثم لم تفر
 عين الخليفة حتى أتبع هذا التعذيب بقطع المطاء عنه .

وبمع ذلك فإن شبح مروان بدا جلياً في هذه الوقائع ومثيلاً لها من الأخطاء
 التى علقبت بذيل أمير المؤمنين . كان هو القائم على تنفيذ مشيئة الخليفة إذا
 أخذنا بظاهر الأمور ، ولكنه حقاً كان صاحب المشيئة الغلابة أو منفذ
 المشيئات على الصورة النائية التى رضى خيلاء . . اعترض سبيل

على بن أبي طالب وقد خرج في جماعة من مريديه يشيرون أبا ذر حين تركه المدينة في طريقه إلى منفاه ، وحاول بما ركب في نفسه من طبائع الصلف والغرور أن يبدو في عين الجمع كأكبر مما يطيقه وسع ثوبه جلس مزهواً على راحلته ، وركض بها يسبقهم إلى الرجل الذي جاء والوداعه ويسد عليهم طريقهم إليه وتخبر من بينهم أرفعهم قدراً يوجه إليه الحديث بنبرات جعلتها الكبرياء كالإملاء .

قال :

« يا على . . . إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ! »

فلم يطق منه على هذا التمسيد الذي جمع إلى عنف التبليغ جفوة التمهيد ، وهادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التي سدت عليه الطريق ، وهتف يقول :

« تنح . . . نحاك الله إلى النار ! »

وتذاكر عمار بن ياسر وتقر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله فأنهى بهم الرأي إلى كتاب رفعوه إليه فلما دخل به عليه عمار ، قال له الخليفة وهو لا يخفى الاستياء :

« أنت كتبت هذا ؟ »

« نعم » .

« ومن كان معك ؟ »

« تقر تفرقوا فرقاً منك » .

« فمن هم ؟ »

« لا أخبرك بهم » .

« فلم اجترأت على من بينهم ؟ »

قال مروان وقد وجد الفرصة مواتية لإشباع ناحية في قلبه صديانة

للشر والإيذاء :

« يا أمير المؤمنين ... إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس ، وأنتك وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه . »

فما أسرع أن أقره عثمان على رأيه العجيب البغيض . وتناول عصاه فضرب بها الشاكي . وأعانه على الضرب أهل بيته ومن حضر مجلسه من بني أمية حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق — ذلك اليوم البارد المطير — وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة . . . كذلك فعل عثمان بعمار الذي جاءه بالنصح في ثوب شكاة لأنه رأى في شكواه اجتراء من العبد على السيد يكشف نواحي الضعف فيه ، ولم ير جوانب الحق التي تنطوي عليه المظالم والشكايات في أغلب الأحيان .

في هذه الوقائع تبدو لنا من عثمان ناحية أصيلة في طبيعته هي القسوة البالغة التي دعت به إلى الإيمان في النكال : بالتشريد وفتق البطون وكسر الأضلاع وقطع الأرزاق ! .. ولم يكن العنف ديدنه من قبل . ولم تكن الشدة بعض ما جبل عليه . ولكنها كلها صفات مكتسبة وزلات أوقعت فيها مشورات شيطانه مروان — هذا المغرور الذي حفزه مركب النقص على الكيد لكل من هم خير منه وأعلى درجة عند الله وفي عيون الناس .

أما الخليفة فمن حقه على كل باقد أن ينتصف له ، وأن يرد سهولة انقياده لشرو مروان إلى الشيخوخة التي زودته بفتور الهمة وضعف العزم وخور النفس أمام سطوة مشيره الشاب . . . وما أحسبه إلا كان يندم غاية الندم غيب كل خطأ قسره مروان على اقترافه ، ويود بجدة أنفه أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . ولعل موقفه — فيما بعد — من ابن مسعود يلقي ضوءاً على رغبته في التوبة والنزوع . .

. . . خف إلى الرجل يموده في مرضه ، وذابت نفسه عليه حسرات وهو يرى كيف الموت تكاد أن تلتقه ، فقال له يواسيه :
« يا أبا عبد الرحمن ... ما تشكي ؟ »

قال ابن مسعود هادئاً وعينه على السماء :

« ذنوبي » .

« فما تشتهي ؟ »

« رحمة ربي » .

« ألا أدعوك طبيباً ؟ »

فلاحت على وجهه بسمه ساخرة وأجاب :

« الطبيب أمرضني ! ... » .

فقص عثمان بريقه . وذكر في هذه الآونة التي تدنى غريمه من آخرته

كم كان متجنباً عاياه . متحاملاً غاية التحامل ، ظالماً له حين أتبع 'إيذاءه' إياه .
بقطع نصيبه من المطاء إيماناً في النكال ...

وراح من بعد يحاول أن يصلح خطأه ، فقال :

« أفلا آمر لك بمطائك ؟ »

فرماه ابن مسعود بنظرة ثابتة فيها ترفع وإباء وفيها استنكار وازدراء ، وقال :

« منعتني وأنا محتاج إليه وتمطنيه وأنا مستغن عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله » .

فلما أعيا الخليفة أن يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو

ويقول :

« فاستغفر لي يا أبا عبد الرحمن ... » .

ولكن المريض الموتور أباه أيضاً عليه ، وقال هوضاً عن المغفرة والرضا :

« أسأل الله أن يأخذ لي منك حق ! » .

ومع ذلك فقد حز موته في نفس عثمان . وآلمه أكثر الألم أن يشيموه

إلى قبره دون أن يؤذنه بوفاته ليصلي عليه ... ومشى في هذا إلى عمار بن

ياسر يعنفه لأنه أخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار :

« عهد إلى ألا أؤذنك » .

فبان في وجهه التأثر وغلبه الدمع ووقف هنيهة صامتاً بجوار القبر الذى خاف صاحبه الدنيا بقلب ملاً السخط جواربه على الخليفة حتى أبى له أن يقوم على جدته بالصلاة .

وتألاك أخيراً نفسه . فراح يترحم على الميت ، ويذكر مآثره بالحمد والثناء ، وقال للحضور :

« رفعتم والله أيديكم عن خير من بى » .

قال الزبير ساخراً وقد وارى الخليفة عنهم وجهه وغادر المكان :

« لا ألفينك بعد الموت تندبى وفى حياى ما زودتنى زادى !... »

٩

لعل مدافعة على مروان يوم تشيع أبى در كانت اليد التى أسدت حجاباً كثيفاً بين ابن أبى طالب وبين نفس عثمان لعلها الواقعة التى وترت الأزمة لعلها القشة التى رزح تحتم البعير لما أضيفت إلى وسق ضخم كان — لولاها — لا ينوء به على أى حال قد بدأ بها العهد الذى انقضت فيه بقايا عرى الثقة التى كانت تربط من قبل وفيق النبوة بسليل السادة الأمويين .

وكان مروان هو الشخص الذى قطع الخيط الموصل بين الرجلين . وكانت وقيته هى السكين ذات النصل المرفف الجديد . فلم يكدر يعود إلى أميره حتى مال على أذنه . وكدأبه فى أمثال هذه الحالات راح يحوى وينمق . ويعصب فيها من ترغ لسانه ما يرسم خصمه فى صورة باغ ويصوره هو فى هيئة شهيد . وكانت الوسوسة سلاحاً أعاره إياه الشيطان ، فاستطاع أن يثير به من نقمة الخليفة وسخطه ما رآه كفيلاً بأن يأخذ له من على كل ما أهداه الجبن عن أخذه منه ساعة الملاحاة .

وطارت في القوم غضبة عثمان التي أرشها مروان . وبلغهم السخط الذي فارت به نفسه على الغريم المرهوب وما عقد النية عليه من الثأر لصاحبه منه ، فاستقبلوا علياً يقولون :

« ... إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر » .
 فبرز لهم رأسه وقد بان له هوان السبب ، وأجاب بلا مبالاة :
 « غضب الخيل على الجرم ! »

غير أن الغضب لم يكن — فيما يبدو — وليد الحرص وحده من عثمان على أوامره أن بطيعها الناس ، بل كان أيضاً نتيجة حرصه على هيبة مروان أن يهدرها على . فما جاءت العشي حتى استقدمه إليه يحاوره فيما كان منه :

« ما حملك على ما صنعت بمروان . واجترأت على ، ورددت رسولي وأمرى ؟ »
 قال على يبين له :

« أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أرد »
 « أو لم يبلغك أنني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشيعه ؟ »
 فأجابه وهو لا يخفى عنه الاستنكار :

« أوكل ما أمرتاه به من شيء يرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعها فيه أمرك ؟ ... بالله لا تفعل .. »

وكانما رأى عثمان أن الطاعة التي فرضها لنفسه على الناس لا تسكاد أن تثبت أمام حجة هذا المجادل القوي البرهان ، فسادع يسد الناحية الخطرة ويقول :
 « فأقد مروان » .

« وما أقيده ؟ »

« ضربت بين أذني راحلته ... »

فقاطعه وهو يعلم إلى أين يريد الخليفة أن يسير بالحديث :

« أما راحلتي فهي تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته

فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتممك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ،
ولا أقول إلا حقاً » .

وأوضح بهذه الصراحة موقفه أجلى وضوح . وتخيرها رداً حاسماً على
ما ساف به لسان عثمان حين تحدث للناس بأنه سيعطى مروان حقه من على
وينصره عليه . وما نحسب أمراً يظن الخليفة كال من السذاجة بحيث غنى
أن يكون القود ضربة سوط يسدها ابن عمه إلى بعير خصمه وينتهي بها
الجزاء المطلوب .

هنا غلبت على عثمان حدته وضيق صدره فصاح كاشفاً عن مراميه :

« ولم لا يشتمك إذ شتمته ؟ فر الله ما أت عندي بأفضل منه ! »

فتار به على :

« ألى تقول هذا القول ، وبمروان تعدلى ؟ ... فأت والله أفضل منك ،
وأبى أفضل من أبيك ، وأبى أفضل من أمك . وهذه نبلى قد ثلثها فهل
فأقبل بنبلك ! »

وكاد الأمر أن يصل لعقبى غير مأموقة لولا أن جرى الناس بينهما بالاصلاح .
ولكنه كان إصلاحاً ظاهراً الرضا والقبول وباطنه من جانب الخليفة التحفز
للاستجابة أو إساءة التأويل ... عذير عثمان في هذا ما يكون عادة بين الرجل
وبين خصم له عزيز الجانب معدوم العثرات قد أحاطت به هالة من إكبار
الناس ... وعذيره أيضاً الحلقة المتصلة من ماضيها يوم تأرجح السلطان
بينهما وهمت كفة الغريم أن ترجع لولا عوامل شتى من الأهواء واليول .
وللضعيف الثالب حذر دائم يحسه تجاه القوى المغلوب .

ثم شاء القدر أن يمد للخليفة في حبال التوجس . كان كمن وكل نفسه
بإحصاء خطوات على بل خطرات أنفاسه . فلم يفته أن يجد فيها دائماً محوراً
يدور حوله شكه . وكانت آفته ضيق أفته عن أن يتسم لفهم مشاعر الناس
حق الفهم . وعجزه عن ردها إلى أصولها المنبعثة عنها بمد أن أحواله شيخوخته
سطحياً يتبس الأمور بظواهرها دون النفوذ إلى ما عساها قد تنبى عنه .

أحصى إذن على منافسه القديم خطواته وخطراته . وحكم عليها كما استطاع ضيق خلقه وما أثارته حولها وسوسة مثيرة من شكوك وشبهات ؛ فلم يعدم أن يسيء الظن ويسيء التأويل . وكان يحنج دائماً إلى التفرد برأيه أو الرأي الذي إياه لقن . ويمتقد فيه الصواب بخير تمييز ، ويرى الخطأ في كل ما هداه . لذلك نجده في كل خلاف نجم بينه وبين على عن تباين في وجهتي النظر لا يرى إلا حرباً موجهة نحوه . وفي كل نقد دار حول ما كان يفعله آله يحسب مرماه هدم أولئك الآل وقص جناحيه هو بهذا الهدم . وعسير على رجل هذه طريقته في تناول النقد وتقبل الآراء أن يحسن الحكم على الأمور أو هل الرجال .

ولقد زوده العصر بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير الجرم من أخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به ألسنة الناس ومكان على منهم مكان الإمام . فلم تكن الشادة على تشييع أنى ذر ودفعه مروان آخر المشادات ولم تكن أولاهما أيضاً . بل سبقها وتبعتها أنواع تداولت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على أسوأ انتهاء .

... قدم عليه من الكوفة وقد هم صورة لما انطوت عليه جوانح أهلها من السخط على واليهم : أخيه لأمه الوليد بن عقبة . ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما أصابهم من سوء معاملة الوايد بقدر ما كان باعثه غضبهم في حق الله فلقد فسق الوالى ، وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الإمارة . وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس أربع ركعات كاد أن يتمها بركعات ! . . .

هذا حدث خطر أنبأت عنه سيرة الأمير العربيذ منذ اليوم الأول الذى وطئت فيه قدماه أرض الكوفة . وأنبأت عنه قبها كلمات الله إذ نعتة بالفسق في آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم . وإن له لدلالته الواضحة أيما وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته بغير استكناه نفوسهم ،

وكان له في استكناه النفوس — لو شاء أن يفعل — ميزان سليم ،
ولكنه كان مفتوناً بأهله . معنياً برفعهم إلى النجوم وأن وجد في ماضيهم
ما كان يجب أن يمدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قلائين . وبحسبك
أن تعجب إذ ينسى لكل ذي فضل فضله في سبيل أن يرفع أهله ولعلك
من بعد مغرق في العجب إن علمت أن هذا « الوليد » جاء الكوفة بأمر
اعليمة ليأخذ إمرتها من يد رجل من خير الناس هو سعد بن أبي وقاص .
وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا قرباه .

ما لأمريء يريد أن يجيش العاذير لعثمان في توليته أخاه يستطيع جاهداً
أن يقع له على حذر مقبول . حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد
وب بينه وبين ابن مسعود من خلاف ، فإن ذريته تلك إن أوجبت العزل
فليست توجب التعيين وإنه ليسور عليه إذ ذاك أن يجحد من المسلمين
مائة أو ألفاً يصلحون لإمرة الكوفة فلا يقع في ذيل أسماهم اسم ذلك الماخن
الخليع وإنها لحقيقة قرت في أذهان الناس أجمعين إذ ذاك حتى قالوا وقد
رأوا أميرهم الجديد :

« بشما استقبلنا به ابن عفان . . . أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص
المين اللين القريب ويبيث بدله أخاه الوليد الأحمق الماخن القاجر ! »
ولم يسمهم إلا أن يقولوا ، وهم يبررون هذا الاختيار أسوأ تبرير :
« أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد » .
ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد أصاب من أهل الكوفة النعمة فإنه قد
أصاب أيضاً من نفس سعد غابة العجب والاستنكار .

قال يسأله إذ دخل عليه :

« يا أبا وهب أمير أم زائر ؟ »

فرد الوليد :

« بل أمير » .

فما أسرع أن عقب سعد بجواب عملاء الدهشة والاستغراب :

« ما أدري أحقت بمدك أم كيست بمدى » .

ولقد نهج الوليد بالكوفة منجى من الحياة الخاصة كله خلاعة . ولف حوله فئة من المفتونين بالمجون . يقضون الليالي على أشهى ما تستطيه النفوس الالهية . ولم يمن مطلقاً بأن يرعى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من توفير . ولم يمن أيضاً بأن يرعى حق أخيه عليه . فكان للأمرء أضل مثال ، ولأسرته كلها أسوأ عنوان . وراح يجمع من ضروب اللهو والتسوية بدار الإمارة ما جر عليه السخط والإنكار . وهو أبداً سادر في غيه ، لا يكبح نفسه ، ولا يحاول أن يستر مساوئه عن العيون . وانطلق يعب من الخلاعة حتى جراً الناس على مجاسه فاستباحوه . دخل عايه ذات ليلة جندب بن عبدالله الأزدي فوجده قد أنس إلى ساحر اصطفاه ، يلعب بين يديه . ويفر الناس بمكره وخداعه ، فغضب جندب لهذا المجنون الرذول ، ومضى بسيفه أمام الوليد فأطار رأس الساحر وقال :

« إن كنت صادقاً فأحى نفسك » .

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء أن يفيد منها ، ولكنه لم يرعو عما كان فيه ، ولم يتناول الأمر كله إلا من ناحيته الظاهرة ، فحبس الأزدي لاجترائه حتى فرغاً بعد فكان عليه أشد المؤلّين والمناهضين حتى اقتلع من مقعد الإمارة ومضى على الزمن مثلاً ناطقاً لحق الحكام .

غير أن الذي يدمغه الله لايهديه الإنسان ، بل يظل موسوماً أبداً بفسقه لا يتحرر منه ؛ وتبقى السبة عالقة به ما بقى القرآن الأبدى الخالد البقاء . وكفى بالوليد عاراً أن وسمه الله في تنزيله ، ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل وتناقله السمار ، ونظمه الخطيئة سيد الهجائين فجاء فيه بأقذع المهجاء .

قال عمر بيد الشعراء في عمر بيد الأمراء :

شهد الخطيئة يوم يلتق ربه أن الوليد أحق بالامذر
نادى وقد تمت صلاتهم : «أأزيدكم؟» عملاوما يدرى
ليزيدهم أخرى . . . ولوقبلوا منه لقادهم على عشر

فأبوا ، أباه وهب ، ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة أخيه ، ومن حكم الله عليه
ومن خوض الناس فيه ، فإنه عزه على نفسه أن يسمع من أهل الكوفة كلمة
واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذي يأتي إلا أن يمتد له الصواب دون جميع الآراء .
وبلغ من تعصبه أن سبقت رحمته لأخيه وثقت به الغضبة على الرجلين اللذين
حملا إليه شكوى الشاكين .

قال لها — ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ »

« هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية » .

وكأنما رأيا الريب في عيني الخليفة فأتياه من لدهما بالبرهان المبين الذي
لا يقبل النقص : خاتم الوليد سلباه إياه وهو في صرعة الخمر غارق لا يفيق .
ولكنه الدليل الذي يفقد قيمته إذا نظر إليه بعين المستريب في كل ناقد ؛
المسيء تأويل المشاعر والشكايات . لأنها — في ظنه — لا تزيد من كيد أريد به
أو أريد ذوره . وما دامت الشكوى تحس أهله ، وتعلق أدرانها بأذيالهم فإنها
إذن حسد حاسد أو تبليت موتور .

وهم الخليفة من مكانه ؛ وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات نفور ،
ثم دفع في صدريهما محققاً وصاح :

« تنفحيا عني » .

وكذلك آثر الشيخ ألا يقصد مقصد الحكم المدل ، وأن يكون سياجا
لأخيه دون القصاص المفروض .

وعجب الناس لموقفه ؛ ولغطت الألسن حتى سمع بالأمر على فأقبل يعاتب

الخليفة ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب .

قال له وهو يستنكر ما سمعه عنه :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود » .

فأغضى الرجل مهموماً محيراً ، ثم رفع بصره وهرب يسأل في استحياء :
« فما ترى ؟ »

« أرى أن تبعث إلى صاحبك ، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدل
بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير الخليفة بداً من الأخذ بهذا الرأي . واستحضر الوليد فلزمته شهادة
الشهود ، ولم يبق إلا أن يؤخذ منه حق الله .

في هذه الآونة غلبت هيبته الخليفة شجاعة الحضور فلم يتقدم واحد منهم إلى
السوط يجلد به السكير ويقيم عليه الحد . وغلبهم أيضاً حياؤهم أن يضربوا أمام
أمير المؤمنين أخاه المذنب ، وغلبهم ثلاثة مارأوا فيه الوليد من مذلة وهوان ...
حتى الحسين بن علي ، حين أمره أبوه أن يقيم على الرجل ما أوجب تلكاً وقال :
« يكفيه بعض ما ترى » .

ولكن ابن أبي طالب لم يكن بالذي يعرف الموادة في حق الله ، فأقبل
والسوط في يده على الجاني يهيم أن يحده . ورأى الوليد الجد في عين علي والتصميم
في محياه ، فسأه منه عزمه ومسارعته لما أحجم الآخرون عنه ، وركبت
نفسه ثورة عنيفة من السخط جعلته يسب جلاده ويروغ منه في أرجاء المكان ،
غير أن السقم لم يكن شفيماً له ولا حائلاً دون القصاص لأن ابن أبي طالب
مالبث أن تمكن منه ، وحاول جهده أن يتخلص من القبضة القوية فأعيتته
المحاولة . وراح يناضل عن نفسه ما وسعه الفضال ويضرب بيديه ورجليه كما
يفعل طائر أطبقت عليه الشراك ... ولكن ما هي إلا جذبة حتى وقع طريحاً
على الأرض وعلاه بالسوط .

وأخذت الشفقة هتمان بأخيه ، وأحنقه هوانه وخربه قبل أن يوجعه عناؤه
وآله ، فقال بلهجة غضب كأنها عتاب :

« ليس لك أن تفعل به هذا » .

قال علي والسوط في يده يتحرك على جسد الجاني في صمود وهبوط :

« بلى ... وشر من هذا . إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه » .

لولا ما انطوت عليه نفس عثمان من تحفز للغضب على منافسه القديم والنفور منه لأعيب المرء أن يقع في حياتهما على سبب واحد يوجب المخاصمة والنفور . ففي الواقع لم تكن مشيرات الخلاف بينهما سوى هذات يسع الحليم أن يفسح لها في صدره ، ويسع النصف أن يراها على هيئتها التي لا تنطوي إلا على الرعية في الإصلاح . ولكن عثمان لم يكن حليماً ، أو هو كانه في زمان مضى قبل استخلافه ثم انتهى أجله بوقعة الأمويين الذين أجادوا اللعب على أوتار شيخوخته الحادة المزاج . ولم يكن منصفاً أيضاً لأنه آثر أن يسيء الظن في كل ناقد لم تربطه به من قبل منافسة ، فوسعه أن يسيء الظن في على آلاف المرات . ولو استقصينا كل خلاف نشأ بين الرجلين لرأينا الخليفة متجنباً على خصمه في الاتهام ، جانحاً عن عقله إلى عاطفته ، ميالاً عن نهائه إلى هواه .

لم يكن على وحده ناقد عثمان ، ولا مخالفه في النظرة إلى الأمر الواحد ، ولا بالرأغب — منفرداً — في الميل به عن السياسة التي جرت عليه سخط الأمة . ولكننا — مع ذلك — نشهد الخليفة بقاءه بمحذر ويودعه بمحذر ، ثم لا نحسب إلا أنه اتخذ لنفسه شماراً ثم عن مدى الضيق الذي خالج نفسه حياله ووضع غاية الوضوح في كلماته القليلات :

« إنه يميني ، ويظهر من يميني » .

أجل هذا هو جماع الشعوب الذي كانت تنطوي عليه جوارح عثمان . وهو نتاج سوء ظنه الذي أفسد العلاقات بينه وبين على في وقت كانت أحوج فيه إلى النقاوة والصفاء . ولئن كان أمير المؤمنين قال قولته تلك حين سمى إليه مروان بالوقيمة يوم تسيير أبي ذر ، فإنها بقيت من بعد علماً على شعوره نحو على واسترايته فيه . ولكننا لا نجد علماً جاء الخليفة بغير ما يحجى به الناصح

الأمين ولا نقده إلا استهدافاً لصلاحه في حكم الناس . لم يجاوز نقده مطلقاً العيب فيه أو الطعن عليه كما جاوز كلام غيره عنه . وبحسبنا أن نراه أقصر عاباً فيه من الآخرين الذين كان عثمان يظن أنحيارهم له وعطفهم عليه . وليس أبلغ في هذا المقام من أن نورد هاهنا ما قاله فيه عبد الرحمن بن عوف وقد رأى منه ما أنكره وأنكره الناس .

قال نادما على ما ساف من إدلائه بالبيعة إلى عثمان :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما وليت عثمان شمع نعلى » .

وقال ثانية وهو على فراش الموت وقد شهده بوطد سلطانه بتولية دويه :

« عاجلوه . . . عاجلوه قبل أن يتبادى في ملكه » .

ولكن عثمان — فيما يبدو — كان حقيقاً به أن ينفرد لمخالفه أجمعين ما لم يسمعه أن ينفرد بمضه لمناقسه القديم وإن كانت محاور الخلاف بينهما لا تعدو — من جانب على — التزويد بالنصيحة أو إزجاء النقد الزيه . فقيم كان شك هذا الشيخ إذن ، واسترايته ، وجريه وراء نقوره لأقصى الحدود ؟ .

لغير سبب معلوم سوى التوجس الذى يملأ قلب الغالب الضعيف من خصمه المرهوب. المغلوب ، ولغير ذريعة إلا ما جبلت عليه طبيعة إنسان يخشى على ما فاز به أن يسلبه إياه عزيز مكين . وإن الشك للسياج الوحيد الذى تتحصن خلفه نفوس الضعفاء من قوة الأقوياء .

بهذا ينهم سلوك عثمان ، وعلى ضوءه نرى على أية صورة من الصور كان يتقبل نصيح على أو نقده الذى كانت غايته خير الأمة وخير أميرها المستريب فى آن . كان يأتية بالرأى القويم فى الأمر من الأمور فيرفضه الخليفة ويأباه . وكان يبصره ثانية بالنهج الواضح السليم فلا يقره إلا ريثما يستطيع بعد قليل أن يتذرع بتوافه الذرائع التى تحله من هذا الإقرار . وهو فى الأولى قد حفره على الرفض إباؤه أن يعترف لغريمه بالتفوق ، وفى الثانية يلين هنية لضغط الظروف ثم لا يلبث أن تستبد به طبيعة الأهواء والعناد ، وكلا السلوكين فى نهاية الأمر بالتعيان .

وكانت له أيضاً حال وسط بين الحالين ، تلزمه الحجة ، ويقهره المنطق القوي السليم فيصبح نهياً مقسماً بين الرغبة في الاستمساك بمناد غايته خطل ، والنزول على رأى ليس له في ابتكاره فضل ، فلا يلبث أن يؤثر الأولى ليجنب نفسه الظهور أمام خصمه على هيئتها المملومة من الافتقار إلى استنباط الرأى الراشد الحكيم عاب الناس عليه إتمامه الصلاة بمعنى أثناء الموسم فجاءه بعدها على — فيمن جاءه من صاحب رسول الله — فقال :

« . . . والله ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ، ولقد عهدت نبيك يوصل ركعتين ، ثم أبا بكر ، ثم عمر . . . وأنت صدراً من ولايتك ، فما أدرى ما يرجع إليه . »

فلم يحمله السؤال الذى جاءه في صورة استفسار على محاولة تبرير الخطأ إن لم يكن حافزاً له على الإقلاع عنه أو الوعد — على الأقل — بالعودة إلى الصواب ، بل رده محرّجا يرد بجواب هو لا جواب :

« رأى رأيت ! . »

شخصيته جمت عجباً من النقائص التى طبعت سلوك صاحبها بألوان شتى تنافرت وتجاورت بغير اتساق . بدا فيها اللين الأصيل البالغ إلى الرخاوة متصلاً بالعنف المكتسب الجانح إلى القسوة . والحلم الذى منشؤه الطبع بالحدة التى اغرى بها التطبيع . والخضوع الذى يلزم النفس الضعيفة بالصلابة التى يولدها الافتتان بالتزام قوة كانت من قبل عزيزة ممنوعة . وإنها جميعاً لصفات مجزئة بأغراضها لو أحسن وضمها فيما يصلح بها ، ولكنهما كفيلة أيضاً بأن تقصر دون الأهداف وتجر إلى العثرات إذا لم يستوح المرء — عند استمالتها — الكياسة والتبصر ودقة التقدير .

لقد كان عثمان — أمام مسائل عهده — طبيياً غير بارع . توافرت بلا ريب في جميعه الأدوية ولكن أشكل عليه التمييز بين الأدوية ، فوصف الدواء لغير دائه وعالج المريض بنسب دوائه وكان كلما أخطأ وتزايد حوله اللغط وكثر فيه العائب والناصح ، سارع إلى الإرهاب والقمع دون الانتصاح

وإلقاء السمع ، حتى أصبحت كل مسألة تقبها مشكلة ، وكل مشكلة تجر في أعقابها مشكلات أثارت عليه نقمة الغريب وسخط القريب .

أجل . . حتى بين أهله لم يدم أن يجد مناجزاً يؤلب الناس عليه ويدعوم إلى خلافه والاتقضاض عنه . . ولكن مرد التأليب في هذه الحالة لم يكن غيرة محمد بن أبي حذيفة على مصير الأمة الإسلامية بقدر ما كانت الغضبة لمصلحته الشخصية . فهذا الفتى المفتون بالسلطان افتتان بقية أقارب عثمان ، آذاه أن يؤثر الخليفة عليه سواء من أهله فيهمهم الولايات والمناصب ترفع من شأنهم بين الناس ، وتحيلهم — من دونه — أمراء ذوي سطوة على العباد والبلاد . ولم يكن هو — في عين نفسه — أقصر باعاً منهم أو أقل كفاية وقدرة ، فامتلاً قلبه سرارة على الخليفة . . كان يلقى الرجل عائداً من غزو الروم فيتغاث ويسأل .

« .: أمن الجهاد ؟ » .

« نعم » .

فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

« أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » .

« فأى جهاد ؟ » .

« عثمان ! » .

ثم لا يفي بيت سمومه في نفوس الناس واحداً بعد واحد حتى مضى ، وحققه رائده إلى مصر يلوذ بجماعات المخالفين ، ويضم صفوفهم ، ويرفع صوته بدعوتهم حتى أن له أوان الثأر من سيد بيته الذي منعه ما أباحه الفتية الآخرين .

هذه الصور المتواترة من المحاصمة والحلاف كانت جديرة بأن تملأ نفس الخليفة الشيخ بالريبة في أغلب الناس إن لم يكن في كل الناس ، وأن تدفعه ضيق الصدر على كل ناقد أو حاقد ثم ترمي به إلى أحضان فئة قليلة من أهله وجد عندهم الرضا عن أعماله بغير نقد ولا مراجعة ، يعمنون له في إظهار الرضا

فيمعن هو في الميل إليهم والثقة بهم إلى غير حدود . كانوا يمسخون بأ كف المراءة على رأسه فيهدأ لهم كالطفل بين ذراعى أمه حتى ينام وينمض عينيه عما حوله من أحداث .

ولقد نام الرجل بعد أن فترت أجفانه ألفاظ التدليل والتمويه التي حرص مشيروه أن يسمعه أياها . ومضت أمامه الحوادث ترى فأراها إلا بعيني غافل ، ولا تلقاها بجد أو احتفال . حتى إذا بلغ خطرها حدا أعي فيه إخفاؤها أولئك الذين كان ديدنهم الإخفاء عنه ، أصبح شأنه كمن سار وهو قائم ثم استيقظ وقدمه في النار ! .

نعم فتح عينيه أخيرا ، وانتبه في آونة تساوت فيها اليقظة وإنماض الجفون . فإذا المسألة ليست نقد ناقد أراد أن يتصيد الهنات والأخطاء ، ولا حقد حاقد أعياه أن يستر غل قلبه ، ولا بشنآن موقور غلب على أمره في مهدان المنافسة فاستطاع من بعد أن يتأهب للثأر . . كلا ، بل أحى كل هذا في لحظة واحدة ، وتوارى في ارفة عين كأنما بقوة ساحرة ليبدو بدله النتائج الحقيقي لثورة النفوس على الشيخ الغافل . . الحصاد السام الذي وضعت بذرتة عوامل شتى ، وأنبتته كل أرض وسعته الدولة المريضة التي قام عليها عثمان فأظلمها منه الحكم ولم ترعها الحكمة .

١١

لم يكن التذمر فردياً نشب بنفوس بضعة من الناس دون بقية الرعية ، ولا طائفيّاً نضج به قلوب طبقة دون غيرها من طبقات ، ولا قومياً ألم بأحد الأجناس الكثيرة التي انضمت عليها الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . ولكنه كان جامعاً ، شمل الأمة أفراداً ، وعمها جماعات ، ولقي صدها لديها شعوباً عديدة النحل والألوان .

غير أن الذي لم يكن في الحسبان أن تكون قريش نفسها من بين أولئك

التدميرين . وأن تتقدم الصفوف أمامها مناهضة رجلها ، داعية عليه مخذلة عنه ، كأنما فاتها أنه أحدها يسى . إلى هيبتها ما يأخذ منه . ويصممه بفشله مثالا ناطقاً على فشلها هي وعدم إحسانها القيام على أمر الناس .

قد كانت حقاً في الخليفة نواحي ضعف لا تدع لمنصف قادر على كبح لسانه الا يخوض فيه أو ينقد عمله . ولكن قريشاً في الأغلب لم تتوخى النقد الإصلاح لذاته ، بل اتخذته ذريعة إلى أغراضها أو التزمته ثأراً منها لهذه الأغراض التي فوّتها عليها عثمان . وكلما جرى ثمر وراء الأسباب التي أثارته تقمّتها وسمه أن يرى خلف أكثرها أسباباً شخصية هي الطمع في المال أو الجاه أو النفوذ . وما من رجل في العالمين كان يستطيع أن يرضى نزوات كل هذه النفوس الظمأى إلى أنواع متباينة من عروض الحياة مادام قد سار سيرة عثمان ولم يلتزم شرعة المساواة عند معاملته الناس .

أجل كان تفريقه في المعاملة هو أس البلاء . وهب فأنقم عليه من لم يساوم بغيرهم من المحظوظين والمحسرين عليه . ونصبه الحكام والولاة فباء بفضب الأثيرين عنده بالمال ، لأن للحكم متعة تفوق متعة الغنى والثراء . ولو أنه جهل العدل أساساً للبذل ، والكفاية مؤهلاً للولاية لجنب نفسه سخط كل طامع في مال أو منصب . ولكنه وكل لهواه وحده توزيع الهبات والولايات ، والهوى دائماً خداع .

وكذلك وسع قريشاً أن تضج من شيخها — هي أسرته الكبرى — لأنه آلى بمعظم خيره أسرته الصغرى آل أمية والحكم وأبي معيط . ولم يكن الشعب ، النافر حتى الآن بغير إظهار ، الطاوى في قلبه تدمره ، يهمله أن ينصر أحد الفريقين على الثاني ، أو يفضب لمن آل منهما بالصفة الخاسرة . ولكنه كان متفتح النفس للتبرم فأمدته قريش بمادة جديدة للسخط على الخليفة الشيخ . واستطاعت — وهي في عين الناس السادة والقادة — أن ترسم للرأى العام طريق النفور الذي أدى إلى الثورة ، وأن تحمل علم العصيان فتسير خلفها العامة . ولم يبق من بعد أحد كان يتجرز من البوح بسخطه على عثمان إلا قد أكسبه

موقف قريش جرأة على الرجل ، فسارع بإظهار سخطه بعد أن رأى قادة الرأي فيه لا يصطنعون ستر نفورهم من صاحبهم ولا يحاولون تخفيف الملام عنه . بهذه النظرة حكم الرجل فاستطاع أن يرفع من شأن دولته على حساب أمته . عقد الألوية وسسير الجنود ووسع الحدود ، ولكنه لم يكن حريصاً على الارتفاع بشعبه إلى مستوى من الحياة الاجتماعية أجدى عليه من تلك الفتوح ، وغلب دائماً صالح الوحدة السياسية التي ضمت شعوبه على صالح هذه الشعوب نفسها ، وأولى بالحكومة الرشيدة أن تستهدف أولاً خير رعاياها .

لكن عثمان لم يكن يعتقد هذا المبدأ ، أو — على القابل — أجبرته ظروف الأحوال التي أحاطت به على ألا يسير عليه . أما هدفه الحقيقي فكان الاستزادة من رقايع الأرض التي يرفرف فوقها علم حكمه . وكانت معتته الأولى أن يلقى بالنظرة على شعوبه فيراها كلها أداة دائمة على العمل من أجل دولته . ولئن كانت هذه الأداة هي القوة التي تحقق له أغراضه السياسية إلا أنه لم يوفر لها ما يحفظها بحلوة موفورة النشاط ، مقبلة بكل نفسها على الواجب الذي وقفها عليه . . . لقي عمرو بن العاص بعيد أن عزله عن ولاية مصر قتال له مزهوا معتزاً وهو يشير إلى أموال حجة بمت بها إليه عامله الجديد عبد الله بن أبي سرح : « إن تلك اللقاح درت بعدك » .

فما أسرع أن أناه الجواب الذي يزرى بزهو واعتزازه . . . قال له عمرو في كلمات قليلات تدل أبلغ دلالة على سياسة الاستنزاف التي جرت عليها الحكومة في تلك الفترة من الزمن حيال الشعوب المحكومة :

« ولكن فصالحها هلكت يا أمير المؤمنين ! . . »

في الحق لسنا نتهم الرجل بالعمل على ابتزاز الولايات مواردّها ، ولكن عماله على تلك الولايات جعلوا هباً ذا بعض ديدنهم وبدأت الأمصار المختلفة — في أعينهم — كقطيع الأبقار يدر الحبر على قلب الدولة الحجاز . . . هم

في هذا أحد نوعين : وال استغفره حب الترف فحرص على استجلاب الأموال لنفسه ولمن خلفه بالعاصمة من مدبري الحكم ، وآخر قهرته الأحوال على استجلابها ليشبع نهم غول الحرب التي شنتها الدولة في كل اتجاه تنفيذاً لسياسة الفتوحات ولكنهم في الحالين أمعنوا في استنزاف الشعب ، وجاروا على حقوق الناس في النية فمنعوا عنهم أو أنقصوها لأنها لم تعد — في نظرة الولاة — حقاً واجب الأداء وقف معاوية بن أبي سفيان على منبر دمشق وقد علم أن الناس سرى فيهم التذمر من حبس هذه الأموال . فقال :

« إنما المال مالنا ، والنيء فوئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه »

وقد كان من أثر هذا الإرهاق الاقتصادي الذي وقعت الشعوب تحت وطأته أن بدأت العيون تتفتح فيها على حقائق كانت قد غابت عنها إلى قليل . وكما وضع للناس التفاوت بينهم وبين آل الخليفة وقريش في استحقاقهم للمزايا من المهات والمناصب فقد بدا بينا تفاوت من نوع آخر بين الشعوب الدخيلة كلها وبين الشعب الأصيل الذي ضمها تحت رايته . ولم يكن التباين الاقتصادي هو الآفة التي أوشكت أن تنخر في عظام الدولة بل الشعور بالهوان هو الذي جرح نفوس أهل الأمصار وهم يرون العرب يعلونهم سيادة وثروة . . . فكل همال الخليفة على رقاع الدولة كانوا من أهله فقبيله . وكل علم بارز في شئون المال والتجارة كان يتصل بهذا القبيل بأكثر من سبب واحد إن لم يكن من رجاله الأعلى . وما كان لمصري أو كوفي أو بصرى أن يشق طريقه بين هذه الطبقة السائدة وقد حيل بينه وبين المزايا التي تؤهلها للاندماج فيها إلا إن كان لهم بطانة أو تابعا يسير في الركاب .

أى فارق إذن بين هذه الدولة الجديدة وبين الدول البائدة من الفرس والرومان ؟ . . . وأين دعوة المساواة التي نادى بها الإسلام واستجابت لها طواعية هذه الأجناس الشتي من شعوب الأرض ؟ . . . قد كانت المبادئ التي بثها النبي ووضعها أساساً لعالم جديد سعيده كفيلة بأن تؤلف من الشعوب المختلفة أمة

واحدة توثق بينها المحبة إذ تسودها المساواة . ولكن الطريق المستوية وجدت من ينحرف عنها ويستبدل بها أخرى ملتوية لا تقوده إلى العالم المأمول . . . وقد بدا الناس كأنهم الآمال التي بذر الدين في قلوبهم نواتها قد أوشكت أعوادها أن تميل وتتعصف . وراحت الثمرات المرجوة تتساقط فجأة تحت الأقدام قبل أن تينع . وكما ألقى امرؤ ببصره في الناحية التي أمل طويلاً أن تبرغ منها شمس المساواة لا يلبث حتى تطالع سحائب دكناء تلف الأفق كله وتحجب عنه الضوء . . . ولم يعد هناك إلا ظلام الماضي بما فيه من جهالة واستبداد يطارد هذه الشعوب التي لم تكد تتحرر من ربقة الدول البائدة حتى رأت نفسها تحبب في الطريق الجديد إلى مستقبل مجهول مغم . . .

هذه الشعوب التي خلفت وراءها الغابر مثلوجة الصدور أضحى اليوم تهيب موقفها وهي ترى غسدها في مرآة حاضرها المظلم . . . أهى ما زالت تعيش في الماضي ؟ . . . أكانت هذه الفترة من السنين القلائل السالفات التي أعقبت رسالة محمد حلياً هائلاً ما لبثوا أن ارتدوا منه إلى نقطة شقية ؟ . . . إن يومهم هذا موصول إذن بماضيهم الذي لفه استبداد فارس والروم . وحياتهم في ظل الدولة الفتية ليست إلا حلقة من حياتهم في ظل أختها الزاهيتين خلف ستار التاريخ . ولكن عيونهم التي أغمضها من قبل ظل الظلم ، وبصائرهم التي رانت عليها حلقة الاستعباد قد بدا لها في شريعة الإسلام قبس يوشك أن يضيء أمامها الحياة . وأخذ الشعور بحب الانطلاق والتحرر يراود النفوس الحبيسة . فلم يعد الناس من بعد يفرعهم سيف الإرهاب وقد علمتهم الدعوة المحمدية أن سلاح الظلم مفلول الحد وأن دولته دائماً إلى زوال .

أجل . ففي الكتاب الجديد جاءت شرعة تعلموا منها أن الناس جميعاً في هذه الدنيا سواء . وأن حق الحياة الحرة مكفول لكافة الأجناس . وأن أحداً لا يفضل آخر أمام الله إلا بتقواه وإن حلك لون الفاضل وأبيض لون المفضول .

فقد ذهب زمان العنصرية ، وبشر الدين الجديد بعالم تسوده العدالة .

ولكن الأمل الذى خالج القلوب الظمأى إلى هذه العدالة لم يلبث أن خبا ضوؤه . . . لم يتغير المبدأ السامى الذى قرره القرآن ، ولم يتبدل كتاب الله أو يصبه تحريف ، بل انحرفت وحدها نفوس القائلين على إنقاذ شريعة السماء ومالت إلى هواها القديم . وبدأت عوامل الوراثة والبيئة التى اختفت آونة قصيرة فى حياة محمد وحياة خلفه تعود ثانية إلى الظهور كهيئتها الأولى قبل الإسلام . عاودت العرب عزتهم بالجنس وتمصّبهم المقيت الذى نهى عنه الله . وارتد العربى ثانية إلى تقاليد جاهليته الرثة التى عصبت عينيه بمرآة عاكسة لا يرى فيها غير نفسه . . . طبيعى كان هذا الشعور أحرى به أن يلازم نفوس شعب فتى بهم أن يأخذ مكانه على هام بقية الشعوب ويحاول أن يفرض شخصيته على العالم . ولكن هذا الشعور القوى بالقومية بث فى نفوس البلاد التى دانت لطاعة الجزيرة قلقاً على كيانها هى أن تطفى عليه شخصية السيد الجديد . . . وكدفاع عن نفسها لم تبدأ من التمصب هى الأخرى لقوميتها أمام العرب . ثم نما فيما بعد هذا الشعور فى كل منها حتى راحت تتنافس فيما بينها لإظهاره ، وتشهد الواحدة منها فى التمصب لجنسها أمام أخواتها الأخريات كما وقع بين أهل الشام وأهل الكوفة حين اجتمعا على حرب بعض النواحي الثائرة بفارس فأبى كل فريق منهما — اعتزازاً بجنسه — إلا أن تكون له الإمرة على زميله .

لم يكن هجلاً إذن أن تتولد الروح الوطنية فى الأمصار التى ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة ، وأن تنمو مع الزمن نمواً يطرده وازدياد شعور العرب بمصيبتهم وحرصهم الماود على الاستمسك بها . وكلما جنح الشعب الحاكم إلى الاعتزاز بجنسيته مالت الشعوب المحكومة أيضاً مثل مثله . ووجدت من نفسها اندفاعاً إلى الخوف على جنسيتها أن تفنى فى شخصيته ، وإلى قوميتها تلتصق بها أمام ذلك التمصب ، وإلى وطنيتها الوليدة تغذيها يوماً بعد يوم لتكون لها هى

الأخرى كيان قائم تمتاز به . ووجد الناس ، بفارس ومصر والعراق وغيرها من أجزاء الدولة ، في تاريخ أفوامهم الأقدمين دواعي نخر تدعيم أقرب إلى النفور من السادة الجدد الذين قفزوا إلى أما كن الصدارة في العالم بغير ماض مجيد يهيئهم لهذه الصدارة . ولم تلبث أسباب المفاضلة أن برزت أمامهم واضحة فأسوا على مجدهم القديم الذي فقدوه وورثته دونهم هذه الحفنة القليلة من أبناء الصحراء .

هذا شعور مرده من جانب إلى تلك الغيرة النفسية التي تراود عادة نفس المفضل على فاضله المتفوق عليه . برز بروزاً واضحاً على عهد عثمان . واتخذ في البدأ مظهراً سائماً لا يباب ، هو رغبة هذه الشعوب في أن ينشر بينها وبين العرب ميزان العدل ويجمعهم معاً قانون التسوية في الحقوق والواجبات . ولكنه من بعد أصبح نقمة شديدة الخطر كأنها الشوكة المرهفة في جنب الدولة لا تنى تدميرها وتجرعائها من المآسى والويلات ما ظل ينخر في هيكلها على مدى الأحقاب المتعاقبة بعد ذلك التاريخ . . . وما كانت الحكومات التي قامت في حواضر البلاد المقهورة والدول المختلفة التي ركزت في الأمصار دون الحاضرة الإسلامية الأصلية إلا نوعاً من التعبير عن هذه النقمة . فاقد اندثرت بهارويد وأرويدا سلطنة قریش خاصة والعرب عامة . وانتقلت بها الرئاسة بمظهرها الديني والسياسي من يد المتبوع إلى أيدي أتباعه واحداً بعد الآخر . . . حتى معاوية الذي نصب من نفسه مدافعاً عن الخليفة وقومه لم يستطع أن يقيم ماسكه في أرض أولئك القوم واعتاض عن كليهما الشام وأهله بجارية منه لتيار القوميات . كذلك من قبله فعل على . وكذلك من بعده فعلت كل أسرة حرصت على الاستئثار بالسلطان على الدولة العريضة ، وكل حاكم أراد أن يدوم حكمه ، لأنهم عرفوا جميعاً مدى القوة التي أكتسبتها الوطنية هذه الشعوب التي كانت تابعة حتى حين . وعرفوا كيف يستغلون حماسها لأجناسها في إقامة حكومات في بلادها يشعر منها أهل تلك البلاد أنها تستند إلى أكرمهم وليس لها بدونهم حياة . وكل حركة أريد بها

أن تقوم دولة في الحجاز لم يكتب لها النجاح ، لأنها كانت على معنى ما
تخدياً لشعور تلك الشعوب .

١٢

أ كانت هذه القوميات وليداً جديداً لم ير النور إلا على عهد الخليفة
الثالث ؟ . . . أ كانت عواطف الشعوب المحكومة التي ازدخرت في قلوبها
بالنفور والسخط والنقمة على الأمة الحاكمة حدثاً لم يتخذ مظهر الحياة إلا في
زمان عثمان ؟ . . . بل هي ثمرة أنضجتها الأيام وكانت بذرتها مغروسة من قبل
في النفوس . فلم يكن الشعور بالذات جديداً على أقاليم الدولة . ولم تكن
الغضبنة للجنس وللوطن المغلوب إحساساً مفاجئاً راود أهل الأمصار ، وإنما
يستطاع رده إلى عهد غير وتولت أيامه ولا يكون ثمة خطأ في التقدير . . .
فما مقتل عمر إلا أولى المؤامرات السياسية التي شهدتها الحكم الإسلامي
وأريق فيها دم كريم حرام . وما خنجر أبي لؤلؤة سوى وسيلة للتنفيس
عن تلك الغمرة الوطنية التي جمحت عن حدها واستبدت بقلوب بضعة من
أولئك المغلوبين على أمرهم . تلفتوا فإذا بين عشية وضحاها بلادهم تدوسها
أقدام أبناء الجزيرة . وتسلبح حرمة كل عزيز على أصحابه من أراض وذكريات .
والثورات المشبوهة بيمض نواحي فارس أواخر عهد ابن الخطاب حديث مبين
يعلو به صوت هذه القوميات .

ولقد مضى عمر إلى ربه ضحية بريئة للوطنية الجامحة التي يعصب عينها
التمصب ويدفعها عمياء . وتخلت بمضيه القبضنة القوية عن الزمام الذي كان
يمسك الدولة الكبيرة لتخلفها قبضة ضعيفة مسترخية ، هي أو من من أن
تقبض على ناصية الأمور التي أخذت خيوطها تتعقد وتنشأبك . وكان من
أثر السواسة التي استنهما عثمان في تنصيب ولادة غير ذوى حنكة ودراية على
تلك البلاد التي بدأت تنهياً للفتنة ما مكن للقوميات الناشئة في الظهور ثم

الطغيان . يحفزها من ناحية حبها أمها وحرصها على أن تستمتع بمحبتها الكامل في حياة كريهة حرة ، ولا تساق أمام العرب سوق الأنعام . ومن ناحية أخرى يدفعها إلى التحرر من استعلاء الأمة الحاكمة عليها خيبة أملها في العدالة المنشودة التي حلت أعواماً أن تسود قاب الدولة وأطرافها على سواء . وخرج التذمر رويداً رويداً من دائرة الرغبة المكبوتة إلى حيز الدعوة الصريحة المناجزة بحمل ألويتها أناس انتادت لهم البلاد المقهورة طواعية وقد استكبرت أن تدن للعرب الذين لا يبلغون مثل مجدها في صحائف التاريخ . ثم ما لبثت هذه الدعوات حتى تعبد طريقها فاستحالت من بعد إلى مناجزات عنيفة مسلحة أنحفت الدولة في كل ناحية بأفدح الجراح .

على أنه يجمل بنا ألا نحمل عثمان بمفرده مغبة السياسة الخاطئة التي جرى عليها تفصيص ولواء الأقاليم والأحصار . . . هو حقاً لم يتوخ في اختيارهم أن يجتمع لهم الحنكة وحسن الإدارة . ولكن سوء الاختيار لم يكن وحده الذي أثار في تلك الشعوب قوة « الشعور بالذات » . . . وإن أراد أن يبحث عن السبب الأصيل الذي نمت به القوميات فليبحث إذن وراء هذا الشعور . وليعلم أن غارسه في نفوس تلك الأقاليم كان عمر قبل أن يكون عثمان .

سياسة عمر في تفصيص الولاية — وفي عزلهم على سواء — كانت سبباً لا ينكر أثره في تكوين الشخصيات القومية . وفي نهوضها . وفي طغيانها على مرور الأيام . ولكنه في الواقع كان خطأ من جانب الخليفة الثاني أريد به الصواب . وانحرافاً بدا في حينه . كالإصلاح ولم يرد به غير الإصلاح . فلقد كان الرجل لفرط حساسيته ، وشدة شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه كأمير للدولة المريضة ، يأخذ نفسه بالعمل على إرضاء الشعوب الإسلامية المختلفة غاية الإرضاء لا يكاد تأتيه الشكوى — مهما كان هوانها — يسوقها إليه بضعة نفر في حق عامله عليهم ، حتى يسارع إلى عزل العامل ، وتفصيص سواء . . . فلکم أخذ ولاته بالهنات وحاسبهم أعسر الحساب إقتناء مرضاة ضميرهم ومرضاة فئات قليلة من رعاياه . ولکم تناولهم بجزاء أهونه الخلع

فأقالهم من مناصبهم وأقام عليها من لدنه من حسبهم أدنى إلى قلوب أصحاب الشكايات هذه السياسة التي اتبهجها عمر نتيجة لشدة شعوره بواجبه ومسئوليته تجاه أقاليم دولته ، ورغبة منه في الفوز برضاء شعوبه عنه ، وجرياً وراء توفير السند القانوني الذي يغيره لا تكون للحكم شرعيته الواجبة . . . هذه السياسة التي غايتها رضاء المحكوم عن حاكمه والتي تعتبر في نظرة القوانين والشرائع أمثل السياسات لم تكن في نظرة الواقع الملموس كذلك . بل انحرفت عن وجهتها التي رسمت لها وقادت إلى عقبي غير محمود ، لأنها أشعرت تلك الشعوب الحديثة العهد بالشعور بالذات أنها تملك أن تفسر ولائها كما تشاء وأنها — نعماً لهذا — لا تملك التغيير إلا لأنها أصبحت من القوة بحيث تستطيع الإملاء .

وهكذا أسىء تأويل البواعث الطيبة التي دعت عمر إلى الحرص على إنقاذ رغبات أهل الأمصار . فلما خلفه في مقعد الإمارة عثمان ، كان ضعفه مغرباً للشعوب بالمغالاة في الشعور بالذات ، وبالإمعان في الطغیان نتيجة لهذه المغالاة . . . وأوسع لها في ميدان التطرف في الإملاء وفرض رغباتها أن ولاية الخليفة الثالث كانوا — في الأغلب فضلاً عن نواحي النقص فيهم وعن سقطاتهم الشخصية — شباناً غير ذوي دراية لا تجربة لهم ولا يحسنون تدبير الحكم .

بهؤلاء الولاة واجه عثمان الفتن التي تجمعت في الشطر الثاني من عهده المنكوب وهم الذين وكل إليهم علاج الآفات التي راحت تنخر في عظام سلطانه . . . كانوا عينه وأذنه وكفه المدودة إلى الأقاليم ، فلم يستقبلوا الحوادث بأبصارهم إلا بمثل ما استقبلها به على البعد — بالنظرة الكلية والأذن الوقراء والكف الشلاء . . . لكأنما كانوا هم صدى له حتى قل أن أحسنوا له النصح أو مملوا له في مناطقهم ما كان يحمل بالحكام ذوي الفيرة أن يفعلوه . . . دخل سعيد بن العاص الكوفة ، وقد خلف الوليد بن عقبة

على إمرتها غب قصة الحجر ، فأمر بمنبر المسجد أن يغسل عسى أن يتطهر من أدران سلفه . ثم اعتلاه فقال للناس :

«... والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره . ولكنني لم أجد بداً إذ أمرت أن آتمر ... إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها ... والله لأضربن وجهها حتى أقصها أو تعينى . »

فعلى أية وجهة كان يريد حمل سامعيه ... على تصديق فعله أم تصديق قوله ؟ ... إنه مذ وضع الماء على درج المنبر قد أقر على سلفه بالخزى الذى استحق عليه العزل وأقر للناس - تبعاً لهذا - بأنهم أحسنوا إذ ثاروا عليه حتى خلعوه . فما معنى أنه يرميهم فى حديثه بالشغب والتزام الفتنة إلا أن يكون قد رأى فى استنكارهم عمل سلفه نوعاً من الثورة يحاسبون عليه بالقمع أو بالتهديد .

ومع ذلك فإن الأثر السئ الذى تركته هذه الكلمات المضطربة فى تقوس سامعيه كان أولى به أن يزول لو نزع سميد عن السياسة التقليدية التى أثارت الشعوب التابعة على الشعب المتبوع . ولو أنه كان حاكماً فيه كياسة وحكمة لأشعر منذ اللحظة الأولى أهل البلاد أنه جاء يستوحى خيرهم ويعمل جاهداً له ولكنه كان هو الآخر صورة من العرب فى إجمالهم ومن قريش على التخصيص . يرى بمثل عينهم ويسير على نهجهم المعروف من التعصب للجنس فما كاد يستقر به المقام فى الكوفة حتى تقم على أهلها أن شعروا بكيانهم وحاولوا أن يعيشوا والأمة الحاكمة حياة كريمة تسودها المساواة . وأبت عليه نزعتة إلا أن يرى الخطأ كل الخطأ فى نظرة الكوفيين إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة إذ ذاك . وأن يفكر عليهم حقهم فى العدالة التى نشدوها وقاموا يسمعون إليها ، فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم . وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابقتها .

فأثبت بهذا أنه يرى وجوب التفرقة في المعاملة بين التابع والتبوع ، وهي نظرة عجيبة تضع الدخيل موضع الأصيل وصاحب البيت مكان النازح الغريب . وكان الرأي الذي أشير به على عثمان كمعالج للحالة التي رسمها سعيد هو في ظاهره وباطنه تأييداً للعصبية العربية وقمعاً للشعور القومي الذي أخذ يفور في قلوب أهل البلاد ذلك أن الكوفة — كسواها من أقاليم الدولة الإسلامية — لم تكن في نظر الخليفة وولاته كمكة أو المدينة أو أي من المدن التي ضمتها رقعة الحجاز . ولم يكن أهلها كالمرء ذوى الجنس النقي الممتاز ، وإنما هم روادف وأنباع ولتبقى إذن الحال كالحال بدون تبديل أو تغيير . ولتظل المسافات الاجتماعية قائمة على هيئتها بين السيد وبين المسود . ولتكن الفوارق العنصرية هي أساس السياسية العليا للدولة كما كانت وكما يجب أن تكون .

بهذا أشير على الخليفة وبه أمر سعيد . والتفت الناس بالكوفة فإذا التعصب العنصري الذي أنكروه قد أضحى اليوم على يد الحاكم الجديد أشد طغياناً وأعتى منه في أيام سلفه وإذا النظرة إليهم تحمل التحدى سافراً ولا تحتاج إلى اصطناع الدائرة لإخفاء الازدواء ومواراة الاستعلاء وإذا عاملهم لا يستطيع أن يقرهم على الرغبة في معاملتهم كشعبه الممتاز سواء بسواء ، بعد أن استقر الرأي في حاضرة الدولة على ألا يعاملهم فيما ليسوا به بأهل ، لأنه — على حد قول الخليفة وقول مشيريه — إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأشاع فيها الفساد .

وكان لا بد وقد أعلنت الحرب هكذا على الشعور القومي بالكوفة أن يمكن لسعيد في سلطانه ويزود بالقوة التي تشد أزره ليستطيع تنفيذ هذه السياسة ولم تكن تلك القوة إلا أرجالا من قريش . هبطت كالجراد على البلدة . وهياً لها عثمان كل ما يكفل لها بالكوفة عيشاً رغداً ومنزلة كريمة لتكون بطانة للوالى مرهوبة يستخدمها في مرافق الإقليم كما يشاء ويستشيرها في تسير أموره التي

يضمن على أهل البلاد نفسها أن يكون لهم فيها يد عاملة أو رأى مسموع .

١٣

البصرة خامدة كالرمادة تفضت يدها من الأشعري وقنعت بالفتى الجديد الذى ولاه عليها عثمان . إن أهلها قد أصابوا إذن وطرحهم . وانزاح عن صدورهم أبو موسى ، ذلك الشيخ الذى لم ينسوا له أنه أبى — حين أمره عمر عليهم أول مرة — إلا أن يدخل بلدتهم وفى ركابه نسعة وعشرون سيداً قرشياً لتستعين بهم حكومته دون أهل البلاد أنفسهم . ومضت بمضيه الأعوام الطويلة التى قضاه فى الإمرة مترسماً فيها خطوط السياسة العنصرية التى رسمتها المدينة لزملائه الآخرين فى بقية الأقاليم . قد كان حقاً رجلاً رضى الخلق فيه طيبة تميل نحوها النفوس ، ولكن هذا وحده وإن اجتمع له رضا حاضرة الدولة عنه ، لم يكن معفيه من تدمير أهل إقليمه الذين تفتحت أعينهم لحقهم فى الحياة السياسية التى حبسها على بنى جلدته . وكانت طبيئته التى ولدها فيه ورعه تحمل الناس على أن يظنوا فيه زهادة فى المظهر الذى يمكن أن يوفره له منصبه الضخم . غير أن هذا أيضاً ما لبث أن انفرج عن ثغرة استطاع السخط أن ينفذ منها . فقد راح الرجل على الأيام يتبدى فى ثوب لا يلائم النسك . واجتمعت له أموال من ماشية ومتاع أمارت عليه رعاياه هو فى الحق لم يبلغ من الترف مبلغ سواء من الولاة . ولكن النفس المتحفزة للانقلاب تتوسل دائماً بأوهى الأسباب . وإذا كان أهل البصرة لم ييلفوا بمدد حد القوة الذى يجاهرون معه بانتقاضهم على سياسة العنصرية التى جعلتهم فى بلادهم ذيلاً لقريش ، فلا أقل إذن من التماس سبب آخر يتخلصون به من الرجل الذى صيرهم ذيلاً . ولا بأس عليهم فى شرعة التوصل للأغايات بأى الوساطات أن يتحينوا الفرصة التى تنيلهم غرضهم المنشود .

وكذلك اعتسفوا السبب الذي يكسب تدميرهم لول الحق يوم دعاهم أبو موسى
لحرب الأكراد . فلقد قام في الناس يحضهم على الجهاد ويهيب بهم أن يسيروا
إلى الميدان رجالاً حتى يكون لهم فضل الرحلة . لعله في هذا كان يريد أن
يستغفرهم على دوابهم دون دواب الحكومة . لعله كان يعلم أن دواب الجيش من القلة
بحيث لا تكفي لجل كل نافر إلى الحرب ولكنهم أمام دعوته كانوا قهراً
سمع وأطاع فسار كأمر الأمير . وآخر حانقاً رأى أن يترث فتربص . فلما أن
خرج أبو موسى من قصره . ووجدوه قد أخرج ثقله (متاعه) على أربعين
بغلاً ، لاحت لهم الفرصة سانحة ليضربوا ضربتهم بعد أن أصبح في بدم السبب
الذي يستطيعون اعلسافه .

هو هكذا بدا لهم في صورة الداعي الذي لا يؤمن بالدعوة فلا يحمل من
نفسه لغيره قدوة وبدأ أيضاً في صورة الترف الشديد الإسراف في التزام
المظهر حتى ليحمل متاع حربه على أربعين راحلة وقديماً عليهم هم الشدة
على عماله الترفين حتى كان يعزلهم أو يقاسمهم ما أصابوه من أموال ومتاع . وهم
الآن إذن يصدد رجل حق عليه العزل في الشرعة التي سنّها أمير المؤمنين الراحل .
في عين الحق هذه حجة كانت لا تساوى أن تنال عند الخليفة أكثر من
اختلاج جارحة . ولكن عثمان أو هن من أن يثبت أمام حجة مهما وهنت
ما دامت البصرة تستطيع أن تحسن عرضها تحت عييه .

أرسلت إليه من قالوا له :

« . . . ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به » .

قال الخليفة اللين الذي ينفر طبعه من البحث والاستقصاء :

« فمن تحبون ؟ »

قال غيلان بن خرشة رأس الوفد :

« يا أمير المؤمنين . . . في كل أحد عوض من هذا العبد الذي أكل
أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . فلا تنفك من أشعري كان معظم ملكه

على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . . . إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه . أو مهتداً كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خبر منه . « فمن يا ترى ذلك المهتد الذي عناه غيلان ؟ . . إنا لنعلم من الكلمة أنها تعنى الولوع بتأحية من نواحى الفساد دون مبالاة ما يقال . ولعلها فى حديث غيلان عنت الغرام بالشراب . فهل أراد رسول البصرة الحضيف الأريب أن يقترح على عثمان اسم أخيه الوليد ؟ إن غيلان إذن لدهاية . وسمه أن يلعب على الوتر الحساس فى نفس الخليفة باستغلال كافه بأهله . وإن دهاءه لأداة فمالة عرف كيف يشق بها الطريق إلى هدف قومه . بعزل الوالى الذى أبغضوه ، وبالفوز بآخر يملكون زمامه فى ان ، لأنهم يعلمون أن سقطته القديمة ستكون سلاحاً فى أيديهم يسألونه على رقبتهم متى يشاءون . ومع ذلك فإن فى حديث رئيس وفد البصرة الحكيم بقية تكشف عن شدة تحوطه وفرط حرصه على الفوز ببقيته إذا عرفنا أيضاً من ذلك الصغير الذى جمع الاقتراح بينه وبين المهتد السكير .

قال الرجل ثانية يفرى الخليفة :

« . . . حتى متى يأكل الشيخ الأشعري هذه البلاد ؟ . . يا معشر قريش . أما منكم صغير فتستشبهوه . . . أما منكم خسيس فترفعوه . . . أما منكم فقير فتجبروه ؟ »

فوضح بهذه الكلمات مرماه . وبأن من خلالها أنه يريد أميراً من فتيان قريش . وإذا ذكرت قريش أمام عثمان فى أهله بقية تليق للسلطان . وكذلك ولى ابن خاله عهد الله بن عامر وهو إذ ذاك فتى فى الخامسة والعشرين .

وتخلصت البصرة من أميرها الشيخ وفازت بصغير ، لعلها طمعت أن تجعله حداة سنه ألين فى يدها فتستطيع أن تجعله كما تشاء . وبقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر أن تسعفها الأيام بالإصلاح المنشود على يد واليها

الجديد . . . لقد أثبت خلال الشطر الأول من حكمه أنه جندي مجيد .
ولكن الجندية ليست دائماً عنوان الحزم ، ولو أنه استطاع أن يخضع للدولة
بقية من فارس كانت لا تفي تجر عليها المتاعب ، وتمكن بهذا أن يؤمن حدوده ،
إلا أن إقليمه في داخله كان بحاجة إلى أمن لم يوفره له . وامتدت يد عابثه إلى
الرماد تطلبه وتنش عن الجمر المتقد فيه . وإن هو إلا قليل زمن لم يكد يستقر
فيه ابن عامر على أريكته حتى وضعت في أرضه بذور الثورة .

أجل . ففي هذه الناحية من الدولة الإسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة
في تاريخ الإسلام . جاءت من الجنوب كالسموم . على يد أسود من إحدى
الدويلات التي أتت حتى في أيام النبي أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت
أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن أبي طالب على الطاعة . . . من اليمن
جاءت . وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كاسم . وانطلق بها
الرجل إلى الحجاز بهم أن يبشروا ، لولا أن وجهه ذكأؤه إلى بلد أكثر تقبلاً
للدعوة من مهد الدولة ، وأبعد عن أيدي الخليفة وأعوانه بالمدينة أن تمتد إليه .
لقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحي الضعف التي يستطيع أن
ينفذ منها إليهم ، ملماً بأحوال البلاد التي انتظمها الإسلام تمام الإلمام ، فعرف
أي تربة من بينها يمكن أن تنمو فيها بذوره .

من صنعاء حيث غرسته أمة اليهود السوداء خرج إلى الحجاز ، وفي المدينة
حاضرة الدولة الكبيرة — التي ينطوى قلبه لها على مثل ما يتلأ قلوب أهل ملته
من المقت والضغينة — خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول في الإسلام .
ولكن الدعوة التي جيش لها ذكأؤه لم تكن لتثمر ثمرتها المرجوة في الأرض
المقدسة . . . إنه لا يخشى أن تبط شربه يد الحكومة بقدر ما يخشى أن يخله
الرجل الوحيد الذي جعله علم دعوته . هو يقرأ جيداً نفوس الرجال ويرى
ضماؤهم مكشوفة أمام عينيهِ بنير نقاب . وهو يعلم جيداً أن دعوته فرية إن جازت

على بعض النفوس في الحجاز قلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبي طالب فتح شفتيه . وما كان له أن يأمن علياً على السكوت فضلاً عن موافقته ورضاه؛ لأن خلقه الكريم حرى بأن يثيره على الدعوة ويدفعه لحربها باللسان وبكل سلاح ، وإن كانت في ظاهرها قد جاءت لتضع في يديه السلطان .

ولكن البصرة بعيدة عن كف على وعن لسانه . بعيدة أيضاً عن بطش الدولة الذي فتك بدعوات الإصلاح وحارب الدعاة فليدخلها إذن ابن سبأ . ويرفع بها عقيرته كما يشاء . وليطمئن على بذرتة الخبيثة إذ يضعها في تربتها الكفيلة بإنبات دعوات التذمر والانتقاض ، فإن الأذهان هناك مهياة . وإن بالناس فيها — كما في بقية الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية — لشغفا إلى اعتناق أية دعوة تصل بهم إلى الخلاص من رجال هذه الدولة التي لم تحسن سياستهم وعاملتهم بغير المساواة التي فرضها الإسلام بين الشعوب تابعة أو متبوعة ، وبين الأفراد سادة أو مسودين .

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »

هذه كلمة السر التي جاز بها اليهودي الأسود تقوس الكثرة الغالبة من المسلمين وهم إذ ذاك قليلو إلام يمكنون آيات القرآن . ولقد اقتفاها آية تتفق في ظاهرها وتأويله ثم مضى بين الناس يعقب عليها ويقول :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع . ويكذب بأن محمداً يرجع . »

فلما وضع له أن كثيراً من القوم تلقوا قوله بقبول حسن ، وأعجبهم أن يبشر بعودة نبينهم ثانية إلى الحياة الدنيا ، راح يلون دعوته الدينية بالأصباغ السياسية التي أيقن أنها كفيلة بأن تفعل فعلها ، وتديل وشيكا دولة الإسلام .

إنه خير بالفس الإنسانية شديد الشعور بالأحاسيس التي تناوبت قلوب أبناء زمانه ، على علم كامل بالمواطن التي احتضنتها شعوب الدولة في أركانها المختلفة . وهو بمد هذا رجل قد أتيح له ذكاء لماح وقدرة خارقة على التقدير بمد التقدير .

وفيا أحسب ، كان الخاطر الأول الذي راود ذهنه هو العبث بالعقيدة الإسلامية وبث اللغويين مبادئها الراسخة . وكان في هذا مدفوعاً بنفسه المرورة التي أكلها الحقد على الإسلام . وكان الخاطر الثاني ذيلاً للأول ؛ فقد أنبأ إدراكه أنه لا دين بلا دولة كما لم تكن دولة قبل الدين . فلما رسخ هذا في عقله راح يصوغ الماويل التي تهدم البنيان الأشم الذي قام على أنقاض بلاده وغيرها من البلاد الخاضعة للحكم الجديد .

أما وقد بذر بذرتة الأولى فتلقفت ثمارها أبدى سواد الناس من الجهال وقليل المعرفة بأمور عمتدتهم ، فقد حقله أن يمضي قدماً نحو هدفه ، وأن يسمى سميهِ ليقع على الأداة الكفيلة بإنجاز الهدم على الوجه المطلوب .

تنسم الجو . وامتد به أنفه يشم الريح . لو أنه بدا للناس في ثوب الهدام لا نكشف من أمره ما أراد ستره . ولو ضحت نواياه أمام العيون مهتوكة . ولكنه أحكم من أن يدع الشكوك تدنو منه ، وأحرص على حياة غرضه من حرصه على حياته . وما دام ذكاؤه يسعفه فلا عليه أن ارتدى ثوب الباني وخطر في الناس يحضهم على معونته ليقم الصرح المنشود على الأنقاض القديمة .

إنه عول إذن على أن يهدم . وعزم أمره على تقويض بديان الدولة الإسلامية يدك الهيئة الحاكمة التي قامت على رأسها . ولكنه في هذا كان

مؤملاً أن يقنع الناس أنه سيقم لهم نظاماً خيراً من ذلك الذي أبغضوه .
ويستبدل بالرأى المكروه سواء أقرب إلى قلوبهم وأحرى أن يلتفتوا حوله
وينهضوا إلى نصرته دون تردد ولا فتور . إن الأيام التي فاتت على الإسلام منذ
ظهوره قد أبقت في وقاضها أشخاصاً مازالت لهم قداسة في نفوس أكثر
الناس . تتطلع إليهم الأبصار خاشعة . وتهفو القلوب ولهي بحبهم إذ يبذلون
كالمثل التي تتجسم فيها روح الدين . كل منهم قائم وحده كالعلم بين العامة
بتاريخه وسابقته وشخصيته . . . فلينظر ذلك اليهودي الأسود من بين أولئك
يصح أن يكون علم الأعلام .

منذا ياترى كان المنار الأرفع ؟ . . أي الحفنة القليلة الباقية من صحب رسول
الله أولى بأن تلتف عليه العواطف الكثيرة المحبوك بالجسد المشوق ؟ من
الأثير عند الأرواح ، الجدير بالتسويد إذا استبدلت سيادة بسيادة ، والحقيق
بملء المكانة التي راحت الدعوة السبئية تجهد جهدها لإخلاصها من شاغلها
الملول ؟

هو إذن فرد واحد تكاد أن تنقص الرقاب الشريرة الطامعة دون بلوغ
شأوه . له بكل قلب حظوة . وفي كل عين تقدير . ولدى كل نفس ولاء ،
إن غشيته أحياناً أحداث السياسة فقد مكنت له ووثقته القدمة . . . هو ابن
الرسول . وابن عمه . وأخوه في الدنيا والدين . في الحاضرة وفي الآخرة . وخننه
على الزهراء . وأبو سلالته الطاهرة وعدته الخلفاء . . . هو علي بن أبي طالب .
ومن سواء كان ياترى المنار الذي ينشد السراة ضوءه ، والعلم الأرفع المولى بأن
تنضوى الجموع تحت ظله !

وكذلك راح ابن سبأ يحسب ويقدر . ثم راح يرتب وينظم . فلما
اطمأن إلى النتائج التي استخلصها أخذ ينتقل بخطوات وثيدة ثابتة من
دعوته الدينية إلى الدعوة السياسية الكفيلة بتقويض نظام الحكم الذي ملته
وعابته الجماهير . وتقدم صفوف أنصاره المقتونين بقصة الرجعة يسير بهم
وم كمصوني الأعين إلى عوالم من الآمال وسبعة الآفاق فتحتها أمامهم

ألفاظه المعسولة التي استغلت العواطف المنطوية عليها قلوبهم من أجيال .
وهو كلما نطق حرفاً أو صار شوطاً انسافت الجموع خلفه تتدفق ، مستبشرة
راضية النفس إذ آنت قرب حلول يومها الموعود !

كان جماع المبدأ الذي أحكم لهم رسمه وتلوينه :

« . . . إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي . وكان هلى وصى محمد ، ومحمد
خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . . . فمن أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله
ووثب على وصي رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

وهذه كلمات لمست بإحدى ناحيتيها أو بالأخرى قلوب العامة ، فانتشرت
فيهم كما تنتشر النار في هشم جاف : ما من رجل سمعها إلا لقيت صدى في
نفسه ، من استهوته الرجعة تلقفوها جد مشوقين لأنها الفصل المتمم للقصة ،
ومن خشى على عقيدته الساذجة السليمة أن يصيبها رشاش من خيال العقيدة
السبائية الجديدة يفسدها ، استراح منها إلى الشق الذي تضمن الدعوة إلى تحقيق
هدفه وهدف إخوانه المتذمرين ببقية الأمصار . . . ومن بين أولئك وهؤلاء
أناس استطاعوا أن يرتدوا بأخيلتهم إلى الماضي ، وأن يركبوا جناح ذاكراتهم
إلى مشهد خالد عسير نسيانه على الذاكرات . وأن تقرب أبصارهم وأذانهم
خفافاً بين ألاف الأعوام تطويها وهي تسير فيها القهقري حتى تلم من كشب
على الزمان والمكان . . . ها هو السرف قد انحجب وتبدى الموقف سافراً أمام
الأعين المتطلعة ، ناطقاً بأحداثه ، يهمس للأذان التهيئة ثانية للسمع بعد أن أوفت
الرحلة الزمنية بكل مسترجع مستعيد على المشهد القديم الجديد . وها هو اليوم
الذاهب في الغابر يعود حياً كهيئته الأولى ، شديد الهجير تلفح شمس الوجوه
وترميها من لونها بمثل السنة الفار . . . وها هي الجموع العائدة من حجة الوداع
تحت خطاها على طريق المدينة يود آخرها أن يسبق أولها فراراً من وهج الحر .
ولكن نداء رافماً يجذبهم في أما كنهم ويدعوهم إلى الوقوف دون السير . وينطلق
القوم صوب الداعي ، وتلتف به آلاهم المؤلفة هند غدٍ خم . ويلقون

السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى فيهم وقد وقف يستظل من الشمس المستعرة
بشوب علقوه على شجرة سمرة . . . ذلك يوم لم يغب عن الأذهان أثره
ولا خطره ، جذيرة صورته بالتدبر قبل التذكر ، وبالأدراك قبل التصور .

وعلى الملائح الحاشد ، وبين الجموع الزاخرة التي وقفت تنصت ، سرى صوت
رسول الله عالياً ، ثابت الفبرات يقول :

« . . . أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »

فارتفعت من كل ناحية أصواتهم نجيب :

« الله ورسوله أعلم » .

قال :

« . . . إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم » .

ثم أخذ بيد علي وهو إلى جانبه فرفعها حتى رأى بياض آباطهما وعرقه
القوم أجمعون . وأردف يتمم الحديث :

« . . . فمن كنت مولاه فعلي مولاه . . . اللهم وال من والاه ، وعاد من

عاداه » .

كذلك استعاد الناس في أذهانهم هذه الصورة الباقية من صور الماضي
ووعتها خواطرهم إذ بشر فيهم ابن السوداء بتعاليمه الجديدة . وكان الرجل
ماهرآ في عرض فكرته وماهرا في الربط بينها وبين أثر مقدس لا يستطيع
امرؤ نسيانه أو نكرانه ، فآمن بالفكرة من آمن بالرجعه ومن أنكرها
على سواء . وراح الكثيرون يستنبطون من الحديث النبوي تلك الدلالة السهاسبة
التي أرادهم على استنباطها ابن السوداء .

ولكن إدراك الباحث جدير بأن يبرز إدراك الجماهير ويصل دونها إلى
قمة الحقيقة . . . ذلك أنها في الأغلب أسيرة العاطفة ، لا تصدر في حكمها
إلا عما تنضوي عليه رغبات الجوانح . ولا تعمل إلا بوحى النفس المنساقة
مع الهوى والميول . ولقد آنتست العامة إذ ذاك في دعوة اليهودى الصابى
الأداة التي يها يهدم عهد عثمان وتنتهى المتاعب التي عانتها منه ورأت من

ورائها شمس الخلاص وشيكة البروغ فلم تكن باستقصاء ما هية الدعوة قدر
أندفاعها إلى تقبلها ، مفتوحة الأبدى ، مرهفة السمع ، راضية النفس إذ جاءتها
تهبها التحرر والانطلاق .

أما الباحث فله معها شأن سوى رضا الجماهير ، يميل به إلى نكران الدلالة
التي استخلصها العامة وينحرف به عن التصديق . لا ريب هذا حديث
لا يعتوره باطل ، ند عن شفتي رسول الله بإجماع الرواة . . . ولكن المرمى
السياسي من ورائه توشك أن تخفيه ظلال كثيفة . وإذا كان ابن سبأ قد نصب
نفسه داعية إلى حق على وقام يؤيد قوله بإثارة النص النبوي في أذهان سامعيه ،
فإننا لا نحسبه كان أكثرغيرة على الحق من صاحب الحق عليه . ولا أسرع إلى
التماس الأسانيد المؤيدة لعل من على نفسه . ولا أعرف بالوصية السياسية في
قول رسول الله من الرجل للذي أوصى بها له . . . ولنا في كلام ابن أبي طالب
بعد غدير خم ما ينبىء عن استعجازه هذا الداعية اليهودي لما لا يجوز . وعن
ركونه — في سبيل أغراضه — إلى تدليل هو عين التضليل ، وكفانا أن نسوق
الدليل من الحديث الذي دار — قبيل وفاة النبي — بين العباس وبين على .

قال له الشيخ إذ ذاك يستحبه :

« . . . انطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه .

وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . »

فجاء الجواب :

« والله لا أفعل . . . فوالله لو منعناه لا يؤتينا أحد بعده »

فهل من رجل كان يعرف لنفسه حقاً ثابتاً في الخلافة بعد رسول الله
يستحقه بالتعيين وعلى سبيل الإلزام لكافة المسلمين ثم يقول كما قال ابن أبي
طالب ذلك الجواب الذي يحمل معنى احتمال استخلافه كما يحمل احتمال تركه
على السواء ؟ . . . كلا ! بل هرجواب حاسم يسد الطريق على القول ويخرس
لسان المتأول ولا يدع من بعد مجالاً لفرية أفاك أو لتعصب نصير .

لسنا ننتقص بهذا من حق على في الولاية السياسية ، ولكننا نربأ أن نلتمس له أدلة معتسفة إن فضله بين صحاب رسول الله كان ثابتاً لا مرية فيه ، وإن علمه كان مأثوراً استقفاً به كل أولئك الأعلام ، فكان لأموال دينهم ودنياهم الظل الأورف . وإن حب رسول الله إياه رفعه على رؤوس كافة المسلمين وبوأه مكانة عزت على سواء بهذا وبغيره من مزاياه الحقيقية ونواحي شخصيته الرحبية كان جديراً أن يصبح على رأس الدولة منذ اليوم الذي خلت فيه الدنيا من صورة ابن عمه الكريم . ولكننا — مع ذلك — نأبى أن نحمل النص النبوي أكثر من مبناء أو يكون ابن سبأ قد أدرك المعنى الخفي فيه وأغفله على — وحاشاه .

ثم انظر من بعد كيف كان موقفه من أصحاب الشورى ، وعلى أى الدلالات دل خطابه فيهم حين قال :

« . . . لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا هذه ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت . »

فلم يعهد إذن رسول الله عهداً سياسياً ، وإنما عندها ولاية قد تعنى التعميم دون التخصيص . ووصية آل بها قومه إن أرادوا أن يتجهوا إلى الخير أينما كان . وهي بوضعها لا تلزم الناس بأمر بعينه ولا تحمل في طيتها معنى الإيجاب ، بل هي إرشاد وتوجيه ولهم بعدها حرية الاختيار .

١٥

عبد الله بن عامر جعدى مجيد إلا أنه حاكم غير رشيد . . . لم يكن بعد قد تم نصجه . ولم تكسبه سنوات عمره القليلات الحنكة التي يجدر أن يتصف بها كل موكل بقيادة شعب من الشعوب . حين بدأ حياته العامة بالبصرة همت آمال أهلها أن تنمق عليه ، أو ليس نتاج اختصارهم وحده ؟ أو هو — على الأقل — الرجل الذي أوصوا باختياره إلى الخليفة من طرف واضح أو طرف خفي . . . أو لبست حداثة سنه قد أطمعتهم في أن يكون رخوا

القوام بين أصابعهم يصوغونه على الشاكلة التي يريدون ؟ . . . ولكن الآمال راحت تذوى مع الأيام ، لأن الفتى القرصى كان أيضاً قرشى النزعة كسلفه . ما كاد يستقر به مقعد الإمارة حتى ولى وجهه شطر قومه بتخير منهم ويحشد هم في مفاصل دويلته كأنه لم يكسب هبة من مصير الأشعرى الشيخ .

على أن البصرة كانت خامدة كالرماد ، قد اختفى فيها الجمر تحت السطح البارد لعن الفتى أمن أن تمتد إليه يد القوم بما امتدت به إلى سابقه مادام ينهج في سياسة الولاية نهجاً سليماً لا مغمز فيه لأى حاقد . اعله استراح لصلته الوثقى بأمر المؤمنين وعدّها سياجاً يحول بينه وبين تدمير الجماهير . . . على أى حال قد كان صورة ناطقة لغيره من ولاية ذلك العصر الذين أثبت طبائعهم أن تتغلغل بهم في نفسية رعاياهم ، ففاتهم بهذا أن يكشفوا عن الداء الكامن ويبادروه بالعلاج . وكان إلى هذا مفلول العزم غير حازم . جرده طبعه من ملكة الحسم وقوة لبت في المشكلات التي نبتت تحت قدمية كالعواسج . . . ذلك أنه لم يكن يحسن إدراك الأمور أو يستطيع أن ينفذ مريعاً من خلال مقدماتها إلى النتائج التي لن تلبث حتى تترتب عليها . بل لقيها دائماً بلا مبالاة أو بعلاج كان في حقيقته كلا مبالاة . . .

بهذا تناول الدعوة السبائية ، فجلس في بادىء الأمر يرقبها بعين وستان . ومضى بها اليهودى الأسود تحت بصره وأذنه يثبها في أرجاء الولاية ويفرس بذرتها في القلوب والصدور . ولو قد أتيح لابن عامر من التبصر ما هو قمين بأن يتوفر في عامل على إقليم لكان وسعه أن يفهم الخطر قبل أن يكشف عن أخطابه ، ولقتل الفتنة في مهدها قبل أن تستفحل ويستعصى أمرها على كل من أراد أن يخضع شوكتها أو يجتثها من أصلها الحيث .

أجل كان بوسعه أن يقضى على تلك الدعوة الهدامة منذ اليوم الذي تبدت فيه للأذهان دعوة دينية خالصة لا تتصل بكيان الدولة من بعيد أو من قريب . وكان له — لو فعل — سند من الدين نفسه الذى لا يجوز الرجعة لأنه لم ينص عليها في دستور الساموى الذى وعته قلوب الكثيرين ، وفيهم بقية من صعب

رسول الله ، كان أخرى بهم أن يعلموا من صاحب الرسالة المقدسة إن كان
سيمود ثانية في هذه الدنيا إلى الحياة . . . ولكن الفتى الحاكم جلس يهوم
كالوسنان كأنما الأمر لا يعنيه ، أو كأنما أيقن أن دعوة ابن سبأ ضلال محض
إن تلبث حتى تضل طريقها إلى نفوس الناس . . .

وهكذا تنقلت البذرة الخبيثة في أطوارها المختلفة حتى نضجت ثمرتها ،
وراح صاحبها يسير بها في طريقه المرسوم وياف حوله الجموع التي لم تموزها
الرغبة في الثورة وإن أعوزها حسن الإدراك . فلما رأى سبيله ممهدا لا تقطعه
عليه قوة حازمة ، فرق أنصاراً له في الأمصار يبشرون بوعايمه ثم راح من بعد
يرسم لهم خطة العمل بعد الكلام . . .

قال لأولئك الأنصار :

« . . . إن عثمان قد أخذه بغير حق . . . »

فأمنت على قوله الجماهير التي طمعت في الخلاص من حكم عثمان ، ثم أرففت
لتعاليمه الآذان والأفهام . . .

ثم قال :

« ... هذا وصي رسول الله ، فانهضوا في الأمر فحركوه ، وابدأوا بالظمن
على أمرائكم . . . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس » .
ومضى صحبه ياتعمرون بأمره في كل مكان ، وتقبلت العامة بالأقاليم الإسلامية
دعوته بخير قبول لأن نفوسهم المرورة من الحكم العثماني كانت تربة صالحة
لكل دعوة تحمل معنى الثورة ومعنى الانتفاض . ولم يكن يعنيه إذا ذاك أن
يجيئهم الخلاص على يد عبد زنديق بقدر ما كان يعنيه أن يجيئهم ذلك
الخلاص . . . بل عساهم نسوا الشطر الديني من السبابة أمام حماسهم للشطر
السياسي الذي مس من قلوبهم وتر السخط والنفور .

وانتبه أخيراً ابن عامر من غفلته كمن لدغته ناز . . . ولكن زمام الموقف
كان قد أفلت من يده ، فلم يكن بالهين الآن قمع الداعية الداهية . لأنه لو حاول
هذا لقاومته الجماهير ، ولو جال بخاطره أن يرد شكاساتها لأعياء الأمر ولو كان

متمجلاً للفتنة ، نائخاً في الرماد ، حتى يورثه سعيراً مشبوب الأوار .
 لكن خاطره أسعفه بالوسيلة التي اتسم بها العصر كله كأداة معروفة
 لكبح الدعوات وقع الدعاة . . . فليخرج الرجل إذن من البصرة وليرسله
 بعيداً عنها إلى إقليم سواها ليأمن خطره على أهل إقليمه ولیم هو بعد
 ذلك قرير العين مرتاح البال .

هذا والله أسلوب فذ في معالجة الأدواء ولكنه الأسلوب المعمول
 به طوال حكم عثمان كذلك فعلوا بأبي ذر حين أعضلت بهم دعوته .
 وكذلك يفعلون بابن سبأ وبمثله سيتناولون كل داعية قام ينادى بفكرة أو يحض
 الناس على اعتناق مبدأ أو تأييد ثورة .

أهو التفكك بين أقاليم الدولة بعضها وبعض ، حتى إن الإقليم منها كانت
 لا تمنيه السلامة العامة للدولة بقدر ما تمنيه سلامته الخاصة ؟ . . أم هو ياترى
 قلة شعور الحكم بواجبهم تجاه الأمة جمعاً وحسبانهم أن مسئوليتهم تنهى
 عند حدود ولاياتهم وحدها ؟ . . من عجب أن يتناول ولاية ذلك العصر كل
 دعوة خطيرة تدهم أقاليمهم بمثل هذا العلاج . وأعجب منه ان يقرهم عليه
 عثمان لكأنهم جميعاً كانوا ضالعين مع أولئك الدعاة فكذبوا لهم من نشر
 مبادئهم في كل مدينة لم تعرفها ولم تأخذ منها بنصيب قد كانوا كمن نصب
 نفسه لكفاح وباء فلم يحصره في أضيق نطاق بل خي بينه وبين كل الآفاق
 يستشرى فيها وينشر عدواه .

بمثل هذا السلاح حاربوا ابن سبأ ، ولو هلموا لأدركوا أنه ليس فحسب
 سلاحاً مفلولاً لا يصيب مقتلاً من فريسته بقدر ما هو سلاح مردود إلى نحور
 الضائقين به . وهو حينئذ قاطع شديد الصلابة عديد الذوايات .

وخرج الرجل من البصرة منفياً لكأنى به قد استغرقت وجهه كل
 بسملة لائخفى سخره وفرحته حين تأهب لدخول الكوفة لكأنى به —
 في خاطره — قد راح يردد آيات الشكر لمناوييه الذين أخرجوه

ألم يعملوا من لدنهم على انتشار الوباء ؟ . . ألم يتيحوا له رحلة هي أجدى على دعوته من قعوده بها حيث كان ؟ . . ألم يهيئوا له أرضاً أخرى يفرس فيها مبدأه ويتعهد بيديه بذوره ليثمر ؟ . . إن أنصاره بالأرض الجديدة لأحرى بهم أن يضاعفوا الجهود حين يرون بينهم قائدهم حتى يصيبوا المرجو من غايته وغايتهم . . وأنه إذن لأدنى إلى انجاز ما يريد .

وكما أخرج من البصرة طرده الكوفة . طرده منها سعيد واليها المزموه يحنسه وقومه . إن هذه البلدة كانت أخصب من أختها ، تربتها أدنى إلى استنبات التمرد ، وأهلها أسرع إلى تقبل الدعوة الهدامة والسير بها نحو غاياتها المشوبة ، ولكن ابن سبأ رضى بنصيبه من سياسة التشريد ثانية ، ومضى بوفاضه المليء بالخباثت إلى الشام — الأرض التي احتواها معاوية في قبضته .

في ذلك العصر كانت لمدينة — حاضرة الدولة — تكاد أن تغض طرفها إكبارا لدمشق . وكان ساستها يوشكون أن يترسموا الأساليب التي ابتكرها واليها . . . قد كان حقاً رجلاً خبر زمانه فوسمه أن يخضع شعبه لسلطانه . ولكنه مع هذا لم يأت من لدنه بجديد ، بل عرف نوازع الشر في النفوس البشرية فاستعبد النفوس بنوع الشر الذي تستجيب له . وكان جاراً للروم على حدوده مازالت صروح ملكها قائمة . ونظامها الذي دان له العالم عصوراً طويلة ما فتى يستمد حياته من شرعة الدنيا ونفس الإنسان . فلم يكن الحكم بها للأخلاق . لا ولا لدواميس المثل السامية التي يجدر أن تستلهمها البشرية وتسير على ضوئها لتبلغ الخير والكمال ، ولم يكن أيضاً هناك دين مرفوع الصوت يكبح جماح الناس ، بل الطبائع البشرية هي الحاكم المسيطر ، والسلامة إذ ذاك لمن سار في غمارها كما يسير عود جاف في تيار ماء .

هذا درس في الحكم كتبه الروم ، ووعيه معاوية من جيرانه ، ووعيه معه شعب قريب عهد بقانون الأخلاق الذي أرشد إليه القرآن . هو . من قبل ومن بعده مظهر جذاب يستهوى الآدمي الذي لم يتحرر من قيود

آدميته أو قيود حيوانيته على أبسط تعبير . وهو جدير بأن ينساق إليه كل من يؤثر السلامة من أهون سبيل ، فما من شك أن طريق الأخلاق هو الطريق الوعر ، وقع الرغبات أشق على نفس المرء من إطلاقها بغير حدود ، أو بقيود هيئة لا تصد العاطفة ولا تحبسها في نطاق المثل العليا أو نواميس الدين . ولم يكن معاوية — في الواقع — حاكماً إنسانياً يتوخى غاية الإنسانية في أخص معانيها وأسمائها بقدر ما كان آدمياً تخضع سياسته لعواطف الآدميين . ولم يلتزم نهجه هذا عن معرفة بطبائع النفوس بقدر ما كان يستجيب فيه لوحى نفسه هو وميول طبيعته المجهول عليها ، فليست حنكته الإدارية مكتسبة كلها . بل هي ناحية من نواحي نفسه الطليقة المنساقه مع الدنيا كذلك العود الذي يجرفه التيار . ولقد آثر السلامة فحرص على أن يثا لها من أهون سبيل وأخضع سياسته كلها لنزعات النفوس حتى يأمن أن يستقيم له الأمر . وكانت الحدود التي رسمها الإسلام للأخلاق تنق لديه — بوصفه حاكماً إسلامياً — كل تبجيل وإكبار . ولكنها لم تلق منه المترسم لها ، السائر على نهجها في كل الأحيان . إنما كان الربح المرجو والغرض المنشود غيته المثلى ، وما كانت المعايير الخلقية لديه إلا نوعاً من المعايير يزن به الأمور إن أعوزه أن يجد لها كفاء فيما تعرفه طبيعته الآدمية من معايير .

هذا هو الرجل الذي كانت تتطلع إليه المدينة ، ويتطلع إليه ساستها كلها حزبههم أمر وأعيانهم أن يقفوا له في وفاضهم على دواء . لقد بهرهم جميعاً بنجاحه وأكبره في نظرهم أن ظلت ولايقه ساكنة لا تعتمل فيها فورات ولا ثورات . وكان هو هادئ الطبع لا يكاد أن تحركه الخواطر الجامحة التي انتشرت بغير الشام فضلاً عن أن تفرعه أو تشير قلقه . ذلك أنه كان يؤمن بالنفس فأمن بالمادة أشد إيمان . ووسع من وراء إيمانه هذا أن يوطد ملكه ويضمن سلامته ، لأن قيادة النفوس لا تتطلب الجهد اللازم لقيادة الأرواح ، وبحسبه أن يستعين بالرشوة وبالكذب وبالحداغ ليستعبد كل من تستجيب نفسه لأمثال هذه الشرور .

أرسلوا إذن إليه ابن سبأ ، وفي ظنهم أن الوسائل الأموية بالشام كفيلة بقمعه وتأديبه . ولكنهم نسوا أنهم وذلك الحاكم الأريب الرشيد أمام رجل يسيره مبدأ ولا يستعبده عرض . وأصحاب المبادئ دائماً هم أصحاب عزائم تعجز دون ثقيها أو ترويضها كافة العروض . ولقد عرف معاوية القلق إذ ذاك ، وثار في نفسه عوامل شتى من الخوف والإشفاق على ولايته أن يلفها الداعية في جرده . ثم زاد به قلقه حتى أوفى على حد الجزع حين بلغه أن ابن سبأ قد ألب عليه صحابياً جليلاً لا تملك الأسماع النافرة من صاحب قصة الرجمة إلا أن تميل له . وإذا كان هناك الحاكم قد اطمأن نوعاً إلى إدراك الناس وما يحتمل من انحرافهم عن تصديق اليهودي الأسود ، فإنه أيقن أنهم أمام دعوة أبي ذر ليسوا كذلك ، فلم يكن هناك من يرمى راعي الفقراء بأدنى شبهة ، أو يستطيع أن يحول بين الطبقات المحرومة وبين تصديقه . وما دام معاوية اليوم في ميدان تصطرح فيه سلامته الشخصية كأمير وسلامة الدولة كلها كوحدة ، فإنه إذن لا يعوزه التفكير لاختيار الطريق الميسور . وأحسبه قد سارع فاختار لأن كفاح المبادئ قد يصل به إلى النجاح ، وقد يصل به إلى خسارة .

أجل شق عليه أن يجمع المبدأ الهدام وإن كانت سلامة الإسلام كله في قمة . وآثر أن تبقى له إمارته قائمة تدين له فجنح إلى الحل الذي مال إليه كل أمراء الدولة إذ ذاك لا فرق فيهم بين ضعيف وقدير . وكما فعل ابن عامر من قبله ، نرى أمير الشام قد سارع إلى نفس الأداة التي توسل بها أصحابه فأخرج ابن سبأ إلى ما وراء حدوده ليؤمن هو ملكه ، وليسطيع من بعد أن يعيش قرير العين مرتاح البال .

وكذلك انتهى المطاف بالسبائية فخط شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته بها تنمو مع الزمن ، وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الإسلامية ، ثم تنتشر انتشاراً تاماً على يد الرسل والرسائل ، وتمد سلطانها في البلاد كما تمتد أذرع الأخطبوط !

حصار من الأحداث والاضطرابات الفكرية ضرب نطاقه على الدولة الإسلامية ولها من أقطارها كأنها في ثوب ، تبدت منه حاضرة ملك عثمان كما يبدو من بين الموج الثائر وجه غريق. الرجل أمامها حائر. مضت الآن فترة الطمانينة المفتعلة التي بثها في نفسه مشيروه أعواماً ، وغلب على قلبه الطيب قلق أكال على مصير أمته . حتى في عقر داره لم يعد يامن أن تناوشه اضطرابات آخر . بل إنها ناوشته فعلاً . وراحت تحز جنبيه . فما كانت المدينة بالمكان الهادئ ، وما أصبحت الإمارة بالمقعد المستقر الذي يرتاح إليه . . . حقاً إن الدعوة السبائية لم تجد لها مرتعاً في حاضرة الدولة ، ولكن أبا ذر كان قد حرك في نفوس الفقراء جرثومة الحسرة التي تورث الففور ، وأخذ العبيد والموالي بها تفور بخواطيرهم انفعالات الغضب من أجل حقوق لهم مرجوة ولكنها ضائعة، وانبرت عيونهم وآذانهم تتربص بكل كبيرة وصغيرة يأتي بها الحكم عسى أن تجد فيها مادة للتذمر . والسادة أيضاً ملأتهم المرارة لأسبابهم الخاصة ، وأصحاب الدين العازفون عن عروض الدنيا وسمعهم أن يشعروا بالأسف على ما آلت إليه الأمور في هذا العهد . وأن يعزوا التدهور الخلق الذي غزا النفوس إذ ذاك إلى ضعف الخليفة ووهن قبضته . . . كان مما لا يعابون عليه أن تروح نفوسهم فريسة لهذا الإحساس لأنهم يؤمنون أن حالة الشعب ليست إلا مرآة تنعكس على صقالها قدرة الحاكم ، وقد عانى الشعب أنواعاً شتى من الآلام انبعثت عنها شكواؤه ، ولكن الذي أصبح جديراً بأن يثير قلق كل مسلم غيور على دينه أن يتبدل الناس إلى حضيض الأخلاق الذي كافح الدين طويلاً حتى انتشلهم منه . . . ألم يفشو القمار بين الشبان ؟ ألم يجهد المترفون ليتكروا صنوفاً من المراهقات استهوت النفوس الضعيفة ؟ ألم يتنافسوا في الرمي عن الجلاهاقات وفي طيران الحمام في مباريات كانت تقود إلى

رج وخسارة تأبأها روح الإسلام ؟ . . . هذه ألون من العبث كانت بلا شك للشام اليد الطولى فى بثها بأرض الجزيرة . فن بلاد الروم أقبلت ومثيلاتها تخرق التخوم والحدود ، ومن مستنفر معاوية انطلق خطرهما يغزو النفوس التى سرها أن تتحرر ثانية من عقال الأخلاق لتساير سجيئتها الآدمية النزاعة إلى الهوى ورى الغرائز . . . لم يكن كفاحها الضعف البشرى فى معتنقها كفاحاً مورياً بل كان هيناً أشدهوان . فقد انقضى عهد سيادة الروح إلا قليلاً وبدأ العصر الذى أصبح فيه المستمسك بدينه كمن تقبض كفه على جمر . وكان الجيل العف قد أخذ يودع الحياة ويخلى مكانه لجيل من نوع آخر ، بهرته الدنيا الخارجية ، واستهواه زخرفها البراق وفتنة المظهر التى قربت أن تسود كل شىء . . . وكان الشباب الموشكون أن يرثوا الدولة بعد بناتها الأول خليطاً من دماء شعوب وثنية أو أخرى لم يبق لها من دينها السماوى المنسوخ إلا بقايا نافهة لا تستطيع أن تمسك الحياة الروحية وتحفظها قائمة . وكانوا أيضاً ودائع فى أيدي أمهات من السرارى جىء بهن من البلاد المغلوبة ولحن على أسس من الحق قوية كتلك التى دعا إليها الإسلام ولا تنطوى جوارحهن على احترام حق له . . . وهل الشعب بعد هذا سوى الأمهات ؟ .

على أن عثمان — فى الحق — لم يفعل دينه ، ولم يدع هذه الشراذم المفتونة تعبت فيه كما تشاء حرة طليقة ، بل أدى رسالته لربه ، وراح يقمع العصاة جاهداً ليردهم للجمادة ، فما كان بالمتهم فى غيرته وحرصه على أصول الإسلام ، ولا بالذى بنام على أمثال هذه الفتنة وإن قام على فتنة السياسة ، ولقد لقي عنتاً فى كفاحه هذا لأنه كان يحارب نفوساً جرى فى دماها التهاون والاستهتار بكل تقليد نبيل ووضع قويم ثم من بعد بكل محرم مقدس . ولكنه لقي أيضاً عداوة له مدفونة فى قلوب هذه الفئة التى شن عليها غارته وحرمتها حقها المزعوم فى الحياة الملوثة التى ارتفعتها ، وأوشك أن

يصبح لها هي الأخرى موقف منه ، لا يبعدها عن صفوف خاذليه .
ولكن هذا الكفاح — على صدقه — لم يلق جزاءه ، ولم يتقبله الناس
القبول الحسن الجدير به ... وهل كان بمقدورهم أن يفعلوا ؟.. هل كان بوسعهم
أن يتلقوا جهاد الشيخ بالثناء وهذه شخصية إسلامية كبيرة ، لها في نفوسهم
منزلة لا يكاد أن يرتفع إلى شأوها سوى قليلين ، ما برحت ترميه بكل ما يثير
نفوسهم عليه ... إهم ليعلمون لها في الدين سابقة ، وفي حفظ تراث محمد
الروحي يد ومأثرة ، وفي بلوغها من العلم مدى يجعل رأيها في عثمان قوة الحكم
الدامغ غير المنقوض ... أولبت هي من أوصاهم رسول الله بأن يتمسوا بالديها
الهدى في شئون دينهم إن أرادوا الهداية ؟ .. ألم يقل لهم حديثه خذوها
نصف دينكم ؟ .. بلى . هي كل هذا وأكثر منه ... إنها زوج محمد ، الزوج
الأثيرة عنده من بين نساؤه ... إنها ابنة صاحبه الصديق التي تربت في أحضان
الدعوة ، وما كان لفلها أن تهتم بغير علم ، وما كان لها أن تقول في عثمان إلاحقاً
صافياً غير مشوب .

ها هي قد فأت بجانبها عن الشيخ نفوراً وموجدة ، وراح لسانها ينال منه ،
لم يعد الرجل في خاطرها الآن أميراً للمؤمنين ، ولم يعد الفيور على حرمة الدين ،
بل هو لم يعد مطلقاً ذات عثمان المبجل القديم ... في سخريتها مجال لنعته إذن
باللفظة التي تجنبها ذكر اسمه لأنها أصبحت تعاف أن تنطق به ... وفي علمها
المأثور عن زوجها الكريم ما يزدى بكفاية هذا الخليفة — هذا النمئل — إن أريد
أن يقاس مدى علمه بدينه الذي أوثمن عليه ... نعئل ... نعم فما أشد انطباق
هذا الاسم الجديد عليه ! .. وما أقوى دلالة اليوم على صاحب الأمس الذي
لم يبق منه إلا مظهر خارجي تم عنه هذه اللحية الضخمة ذات الشعر
الملتف الكثيف !

فقد الرجل إذن — في نظر عائشة — خبره القديم وإن استبقى الهيئة
الظاهرة السطحية ، كمثل الأبرص لا يزينه حسن برده ... ومضت هي في
غضبها عليه تبث في النفوس دعوتها المناهضة . ولقد هداها فكرها إلى نوع من

التأليب أشد أثراً وأبلغ نفوذاً إلى النفوس والأذهان ، فسارعت إلى قيص
لرسول الله فنشرته بينتها كلما مر به امرؤ قالت له .

« هذا قيص رسول الله لم يبيل وقد أبلى عثمان سنقه . ! »

فهل من سامع لهذا الكلام يستطيع من بعد أن يحسن الظن بكفاية الخليفة
في رعاية الدين وحفظ فروضه وسننه إن وجد إلى اليوم من كان يحسن الظن به
في رعاية شئون الناس وحسن قيامه بأمور دنياهم ؟ ...

ومع هذا فلم يقف نشاط عائشة في دعوتها للتخذيّل عن عثمان عند المدى
الذي ساقها إليه حرصها على كيان الدين ، بل احتضنت مع الزمن الدعوة
السياسية التي أخذت تعمل لهدم الرجل وهدم سلطانه . هي في هذا كانت
لا ريب مدفوعة بحرصها على أن عملاً مقعد الإمارة الإسلامية بمن تظنه جديراً
به ، وأشد غيرة على الواجب الديني والدنيوي من ذلك الأمير المفضوب عليه .
ولكنها في اندفاعها نسيت واجبها هي كأم للمؤمنين عليها أن تدعو إلى السبيل
الأقوم بين الحب والحكمة دون العداة والتفرقة بين أبنائها المسلمين . ونسيت
أيضاً مكانتها في الناس كزوج لرسول الله تتطلع إليها عيونهم في توفير لا يمكن
أن يتوفر لها إن آثرت السير في غمار الأحزاب . غير أن الشعور بالتفوق حفزها
إلى الاستزادة منه . وطاقة النشاط التي انبعثت عن شبابها ، وما كانت فيه
من فراغ لا يشغله ما يشغل المرأة عادة من ولد أو زوج ، قد اجتمعت كلها
عليها لتبدل بدلوها في الشئون العامة وقد حرّمها الزمن أن يكون لها شأن خاص
تقف حياتها عليه . . .

نقضت عائشة عنها خمول البيت ، ووحشة الوحدة ، ومضت لطبيعتها إلى
ميدان أولى به نشاطها وحيويتها عسى أن تكون لها يد في رسم مصير الشعب
الذي أحبته باللون الذي ترتضيه . ولقد دفعها الأحداث أمامها كما يدفع
السيل النحدر صخرة ، فلم تستطع التمهّل ولا التريث . ومضت في الغمار
حتى آخر الشوط ، ولكنها كانت تهدف بلا ريب إلى الخير لدينها ولأمتها
جسماً دلتها نظرتها إلى الأمور ، وإن أخضعت هذه النظرة لطبيعتها الأثوية .

فلم تغفر قط لعثمان أن تناول سنة زوجها بالتبديل والتغيير . وقامت لهذا تشبها عليه حربا شعواء لا ترضى من نتائجها بأقل من خفضه عن مقعد الحكم الذى خلف عليه رسول الله ، بل إنها سارت بحنقها إلى مداد حتى جاهرت بالرغبة فى أن ترفع بصرها فلا تراه فى هذه الحياة الدنيا ، ولو كان لها فى ذهابه عنها نصيب ... قالت تكشف عن حقدتها عليه وقد علمت أن وفود الثوار أقبلت فحصرته فى داره حتى لا يعلم إن بقى له أمل باهت فى الخلاص .

« ... والذى تقسى بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر . . . »

ولكن طبيعتها الأنثوية التى جنحت بها هذا الجنوح الموجل فى الإسراف للاحتقاد على الرجل الذى وتر زوجها فى سنته ، كانت هى نفس الطبيعة التى أقمت من بمد قلبها بالرحمة له حين وجدت الناس قد تكالبوا عليه فقتلوه . لا عجب فى رحمتها تلك ولا فى الخطة المعادية التى اتخذتها حيال شرادم الثوار وإن كانت هى نفسها قد أمدت الثورة المنداعة بكثير من الوقود . بل العجب فى أن تظل فى مكانها حيث كانت فى صفوف المناجزين العتاة .. إن قلبها أكبر من أن ينقاد أبدا لغضبيتها الجامحة بغير عنان ، وإن نفسها الطاهرة لم تمن مطلقا ما كان لسانها ينطق به فى ساعات انسياقها للغضب الفوار ، وإن عاطفة الأنوثة الفياضة لأولى بها أن تهدو فى صورة الأمومة الحانية التى يتسع حنانها لكل إنسان ، وهى أم المؤمنين ، وعثمان أحد أولئك الأبناء الذين شملتهم أمومتها الجامعة . ثم هو أجدر بأن يتقطع له قلبها أسى لأنه من أولئك الأبناء الضعيف الواهن المهيض الجناح .. وهل هناك أولى برئاء الأم ودمعها من ولدها المصاب ؟ .. وهلا تمحو نكبتها فيه كل ما أحسته نحوه من شخصها القديم ؟ ..

أجل كان قلبها الكبير أجدر بأن يوسع للرحمة حتى تطرد الحقد من فواحيه ، ولقد فعلت عائشة كما تفعل فى موقفها كل أمينة على غواطف الأنوثة لم تجردها الأهواء من خصائص طبيعتها الرقيقة . ولم تكن فى هذا

تصطنع الحنان بل الحنان غمر فؤادها كالسيل . ولعل الندم هو الذى اقتحم على قلبها باب الرحمة المخزنة ولعل المحفة الواقعة هى التى تناولت بكفها القوية نفسها فجلتها وخلصتها من صدا الضغينة .. ولكنها فى كلا حقدتها ورحمتها لعثمان كانت لا تعمل إلا بوحى عواطف نبيلة ، من بينها الولاء لسيرة زوجها الحبيب الفقيد ، والحزن الفاجع لمصرع الخليفة الشهيد .

على هذا النحو يفهم ما كان من عائشة حق الفهم فلا يبدو فيه تناقض كثير . وبه يستطيع أن يبعد عنها بعض اللوم فتجنب عسرة الحساب عند الزارين ، فأحق منها بالزراية من عمل عن غير عاطفة شريفة كريمة وإن سار وإياها فى طريقها يلتبس مثلها نفس الغايات .. أحق منها بهذه الزراية ابن النابتة عمرو بن العاص الرجل الذى كان فى ذلك الزمان هبدا للفوازع الشر التى ملأت نفسه . فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلب عليه ، وانغير عاطفه كريمة قام يناضل عن دمه أو يبدو كن يعمل جاهدا ليثأر له . بل انطلق فى البدء جامعا تستعبده المادة حتى أسرف فى تحريض الناس وبذر الحقد فى قلوبهم على الخليفة ، ثم ارتد فى النهاية - وقد أبنع عمره الحبيث - تستعبده المادة أيضا ؛ ففضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كن دفعه الولاء والوفاء .

هذا رجل أخضع النبيل الإنسانى للغرض الشخصى حتى لم يعد هناك نبيل معلوم يجيش بصدوره ، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه .. بل هو كافح لتدعيم النفعية لأنها أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة . كان صورة أخرى لسيدته معاوية كأنهما أصل وخيال . لم يرع كلاهما إلا الغرض الذى يدر عليه الريح المنشود ، ولم يلتزما فى حياتهما العامة القاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران .

كذلك كان عمرو ، وهذه نفسه التى جبهت ضرورها فى البدء للأخذ من عثمان ثأرا للنفع الذى حرمها الخليفة إياه .. وهل كان بوسع عبد الأهرام والثروات أن يفر لأمر المؤمنين أن قد سلبه مقعد إمارته بمصر

فمطله من مناط نحره ومصدر مجده وعزه .

قدم المدينة بعد عزله عن ولاية مصر ، ومضى يخوض في سيرة الخليفة ويطعن فيه ما شاء له حقه وشاء هواه . فدعاه عثمان إليه يؤنبه على ما كان منه ويعنف له في المقال . . قال له :

« يا ابن النابغة . ما أسرع ما قل جربان جبتك . . إنما عهدك بالعمل عاماً أول . . أتطمع على وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟ »

فأجابه الرجل وقد أخزاه أن يقف عثمان على مرأته :
« إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولائهم باطل . فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين . »

قلم يكن لدهنته أثر في نفس الخليفة يححو الشعور بالغضب عليه . فقال له مقذعاً في الخطاب :

« والله لقد استعماتك على ظلمك وكثرة القالة فيك » .

« قد كنت عاملاً لابن الخطاب ففارقني وهو عني راض » .

« وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت . ولكني لنت عليك

فاجترأت على . . أما والله لأننا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن إلى هذا السلطان » .

« دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به . . قد رأيت

الماص بن وائل وروأيت أباك عفان ، فوالله للماص كان أشرف من أيك » .

ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار . وإيمانه ثانية في الانتصار

لنفسه من اتهم التي كالمها له الخليفة ، فإن الرجل لم يرهو عن غيه ، بل اندفع

يحدوه حقه الذي أبي عليه أن يغفر لعثمان عزله من منصبه . وراح يملأ

النفوس بالتذمر ويبذر فيها — انتقاماً لنفسه — بذور السخط على

أمير المؤمنين . لم يسلم من به أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب أيضاً والزبير

وطليحة . . ثم أخذ ينطلق في موسم الحج فيختلط بالناس الآتين من كل

فج وقطر فيفت فيهم سمومه ، ويمترض مبيهم يفتهم بأخطاء عثمان . . .

ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المعادية ما قاله هو عن نفسه غيب مقتل عثمان :
 « . . إن كنت لأعرض عليه حتى إني لأعرض عليه الراعى فى غنمه
 برأس الجبل » .

بهذه النفسية عمل عمرو . وبها حارب الخليفة ، ثاراً لمنصب الإمارة
 بالفسطاط . ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصرع يبدو أمام الناس داعية يريد
 أن يفتصف لعثمان .

ماذا بقى بعد هذا لا يوجب النار حول عثمان . . ولأى دعامة من الدعائم
 استند منصبه ، أو ملكه ، أو الخلافة التى كانت فى البدء ذات أساس روحى
 يعنوله وجه الدنيا فأصبحت اليوم مظاهره دنيوية تخضع لكل نزوات الإنسان . .
 الأحداث تلاحقت واصطفت كما اجتمعت سحائب دكناء فى جوانب الأفق
 مفردة بما صفة . . والشعب فى أقطاره التى باعدت بينها المسافات ، قد ألف بين
 قلوبهم نفورهم من العهد الملول . . والقدر أيضاً مد أصابعه لينسج خيطه .
 يتهياً الناس دائماً للثورة بضغط عوامل مادية شتى تدفعهم إلى تغيير ما هم فيه .
 ولكن قوة الأثر المعنوى الذى ترسبه فى قلوبهم هذه الامادات هو وحده الذى
 جعل من الثورة حقيقة واقعة تدمر ما أمامها ولا تأبه لما يعترض سبيلها من
 حواجز وسدود . وقد توفرت الدوافع النفسية المدمرة فى عهد عثمان . وبدأت
 جلجلة فى سخط الفقير المحروم . وفى غضبة المظلوم المهضوم . وفى مطامع أصحاب
 الأهواء الذين أذلهم عرض الحياة . ولكن القدر أبى إلا أن يشتد فى حبك
 خيوطه ليزيد الأنشطة متانة . وكانت المادة التى اتخذها قوام نسجه هى النفس .
 وكانت النفس طيبة يسير صوغها فى ذلك الزمان . لا تكاد أن تثبت أمام نزوة
 أو عاطفة . . لقد شاء القدر أن يبدأ عثمان حكمه بإثارة استنكار الناس حين
 خطا إلى المنبر فاقتعد نفس الدرجة التى كان يقعد بها رسول الله . هو بهذا لم
 يعن الاستملاء على سلفيه العظمين . ولا التطاول إلى مقام محمد الذى لا يبلغه
 أحد قبله أو بعده . إلا أنه كان عملاً لم يعلق به عواطف الجماهير .

بل أصابها بجرح أحفظها عليه لأنه مس — في نظرتها — معنى القداسة التي كانت تؤثر أن يظل مفرداً به شخص رسول الله . ولئن كانت الأحداث من بعد قد نواترت سراعاً حتى أوشكت يدها الآسية أن تخفى الجرح القديم وتلفه في رباط النسيان ، فإن القدر مد أصابعه ثانية ليكشف عنه ، وليعبث به وليرند به دامياً يخز النفوس ويعيدها للذكرى مرة .

وكان الرجل سيء الحظ — فيما يبدو — تألبت عليه القوى جميعاً وفيها المصادفات . . وكما عثر به نجمه ساحة استخلافه وفاده شؤم الطالع إلى تلك الدرجة من منبر الرسول . فكذلك شئت له تعاسته ذلك اليوم حين جلس ساهياً بجوار بئر أريس . ينبش التراب لغير غاية إلا العبث بلحظات فراغ . ولم يكن ملقياً بالا إلى شيء فقاب عنه أن يلتبه إلى خاتم الرسول ينزلق من أصابعه . فلما تاب ووسعه أن يتبين الأمر انقبض صدره وبدأ الجزع والأسى في عينيه . . ولكن جهده في البحث لم يرد إليه الأثر المفقود . وضاعت معه أيضاً جهود من أمرهم بنش التراب حول المكان وبالغوص في مياه أريس .

وتطير . والعرب كلها أمة تتطير وتكاد أن تستنبط الشؤم من كل مظهر ، والعامه منها أولى بأن تتحكم فيها القوة الغامضة التي تنشأ عن أمثال هذه المظاهر الصغيرة وتكون لها في نفوسهم قوة العقيدة . وقد ذهب الناس بهذا الحادث مع التشاؤم إلى غايته . وانقبضت صدورهم له . وصورت أوهامهم نتائجهم في صورة حملت إليهم الجزع والانزعاج . . على أي حال عادت ثانية إلى أذهانهم قصة المنبر وما استخلصوه منها من معاني العبث بالقداسة التي أضفتها شخصية الرسول على كل آثاره . ثم وسمعهم بعد هذا أن يسترجعوا صوراً شتى من الماضي . بارزة الجمال والدلالة . لها في نفوسهم آثار بعيدة الأصول . . . وأن تتجمع فيهما ذكريات حبيبة ذكروا بها محمداً وذكروا عهده ، والأيام السعيدة التي أهنأهم . والحوادث التي كان لها في بناء الدولة كيان . وفي كل صورة من هذه بدا لهم الخاتم قطعة منها رائمة . له قداسة ساحبه . وله السحر الذي التف به كالمهالة كلما ذيل به محمد

موثقاً من موثيقه أو كتاباً من الكتب التي كان لها يد ماهرة في رسم رفعة الإسلام . وبقيت له قداسته بعد محمد ببقاء الذكرى . وبقى له أيضاً سحره الذي أورث اليمن والبركة كل صحوفة طبعها بطابعه . وكل عهد مكتوب ختمه به الشيخان أبو بكر وعمر في عهديهما الرخين على الأمة .. أفآن اليوم أن تختتم هذه الصفائف المجيدات .. . وهل انقضى زمن الخير .. وهل آذن ضياع الخاتم بحلول عصر ليس له من عصر النبي وصاحبيه نصيب ؟

كان حرياً بالنفوس أن تأسى عليه وتحزن لضياعه وأن تتهبب مما عسى أن تأتى به الأيام بعد ذهاب يمنه . وأن تشفق من المستقبل وتحشاء ثم تتردد بالحنق على الرجل الذي أفقدهم عبئه هذا التراث اليمون . وكان أولى بها أن توغل بمحنها إلى السخط البالغ . وبجزئها إلى الجزع المشفى على التطير . وقد يما غالى العرب في استنباط الشؤم من أوهن الظاهرات . وهم اليوم أقرب إلى طبعهم وأشد خضوعاً له وهم يستحضرون في خواطرهم صور عهدين فلا يسلم آخرهما من سمات مادية منكرة مهدت لكرهم إياه وتطيرهم منه ..

ومن عجب أن يكون هذا الشعور الذي انقبضت به صدور القوم صادقا تمام الصدق . وأن يلجأ عن الحقيقة الواقعة التي أسفرت فيما بعد عنها الأيام . فلقد وقع ضياع الخاتم في عام انقسم به عهد عثمان شطرين أحدهما صالح مرضى عنه ولّى مع ماسبقه من عهد رسول الله وعهدى خليفته وكلها كان على الأمة ذا جدوى معلومة . والثاني ثقل مكروه استفتح زمان الخلافات وانطلقت من بعده الفتن تنوش القلوب والشعوب . وتصيب الإسلام من التاعب والويلات بما هاض جناحه . وانتهى بحكمه إلى الوهن الذي هو عليه الآن

أينع الفرس . وتدل ثماره المرة فاضجة تنتظر القطاف . وكانت الكوفة أول الأقطار التي بادرت للاجتماع ..

كانت تلك ليلة مشهودة ، لها ما بعدها من ليال كثيرة الحادثات . امتدت فيها اليد القاطفة إلى الفرع الداني .. وكانت يدا متمرسه قوية لم ترهبها الأشواك . أقبلت فجردت الفصن وجنت الثمرة بلا تردد لأنها رأت لها في الجنى حقا .. إنها يد التحرر المقتحمة التي لا تلين للصعاب . يد القومية التي تدين بكرامة الحياة وإن كانت في ظل عذاب . يد البلدة التي أحست بذاتها وعلمها نضج شخصيتها كيف تأبى الخضوع للذل وإن عاشت في أكذافه على الذهب والحرير .

هبت الكوفة . ونقضت عنها سبائنها القديم . فقد نضج فيها الوعي القومي وتهيات روح التحرر للانطلاق . وآن أخيراً لأهلها أن ينضبوا لكرامتهم أن يمشى عليها عزيز ، ولحقهم المعلوم أن تلقفه دونهم يد سائدة . لو أنهم ارتضوا لأنفسهم مكان الذبول لوسع الفتنة أن تطأطأ رأسها للتخاذل . ولكنهم كانوا قويت ذاتهم حتى رفعتهم عن مدارك الذلة ، وأصبح شعورهم بكيانهم مرهفاً كالسيف . ولم يعودا بعد متاعاً في كف سيد . ولم يصبحوا عباد مال أو منصب أو جاه يمن بها عليهم أمير . ولم يكونوا صوراً متائلة من مواطنهم الدليل . ذلك الفتى المتخاذل عبد الرحمن بن خنيس .. كلا . بل هم اليوم رجال ذوو أئمة ، نمت فيهم هزة الوطنية حتى أحالتهم أقراناً لحاكمهم المقتون بجنسه ، المستعلى بقومه عليهم وعلى غيرهم من أقوام .

أجل . لم يخفضوا الرأس للهوان فتموت الفتنة لأنهم أبوا أن يدعوا للحظة الفاصلة تمر . ولم يتركوا الثمرة الناضجة تسقط دون أن يلقفوها .

بل بادروها بالقطف لا يأبهون لما حولها من أشواك . ومضوا لطيتهم بغير تردد في طريق الصمصام والدماء ، لأنه يصل إلى النصر . ولأن لهم في الدنيا رسالة لا ينجزونها إلا إذا ساروا فيه . ولأن عليهم لشعبهم حفا أن يناضلوا من أجله وفي سبيل حماة له كريمة وإن جدوا له بالحياة ..

وحانت أخيراً اللحظة المرجوة .. ساعة المد الذي طالما انتظروه الشراع .. الليلة المشهودة التي لن تلبث أن تبحر في أعقابها مثيلات حمة تخرج بالحادثات .. . كان إذ ذاك سعيد بن العاص في مجلس سمره بدار الإمارة يحيط به وجوه الناس . وقد بدا القصر والبسطة كلها كالسكة المشرفة على سهول العراق ، وأخذ الهواء الرطب يهب من ناحية النهر النساب غير بعيد وقد اكتنفته الخضرة من جانبيه حتى لا تخطئها عين . وكان جو الجلسة هادئاً . لا يكاد ينبىء عن الثورة القريبة تماماً كهدوء الليلة البادية في صفاء السماء . وكان الحديث يسير بالقوم ليناً إلى غير غاية وقد اجتمع فهم ذو الجاه وذو المنصب وذو الكلمة العاقدة إلى قلوب قومه . وامت أطراف الكلام بسيرة طلحة بن عبيد الله ، وبجوده ، وبالثراء البالغ الذي أصبح الرجل عليه ، فقال سعيد :

« إن من له مثل النشاط لجقيق أن يكون جواداً .. والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً وغداً .. »

فأستهوت الأمنية نفس الفتى ابن خنيس فدأصبعا تشير إلى جانب الهرات حيث قامت ضياع كسرى . وقال يتعلق الأمير :

« لوددت أن هذا المطاط لك » .

فندت من بعض الجالوس هممة غضب واستنكار . وصاح أحدهم في الفتى الداهن :

« اسكت . فض الله فاك ! »

ولكنها كانت ضيعة لم تعجب الأمير . ولم تسمح على عصب الغرور فيه . فإذا به ينظر للقوم مستعلهاً ويقول بلا مبالاة :

« إنما هذا السواد بستان لقريش ! »

السواد ؟ .. العراق كله ؟ .. كأننا لم يكفه ما جاءت به أمنيته فتساء ولم يرض بالنصيب الذي أعماه .. هذه إذن بلاد قريش . أرضها ، ضيعتها التي تملكها وتلعب بها كما تشاء .. أما أولئك كلهم فمن حوتهم الضيعة من موال وأتباع .. عبيد يكدحون للسلادة ، وليس لهم في الحياة إلا حق المملوك عند ربه إن كان هناك حق لمملوك .. أما الشعب فألة والحاكم فآله .. أما الذين بدمائهم رووا الأرض وبأسيافهم شقوا باطن الدولة الفاصلة الداهية لتخلص لهم بلادهم حرة فهم اليوم عند الأمير القرشي المسلم كالحكم بالأمس عند فارس تحت نير الأكسرة عباد النار ..

ولكن الصبر قد انقطع حبله ، والصمت على الهوان ذهب زمانه ، والهمرة ناضجة والعصن دان يمد نفسه للقطاف ! ..

في هذا اللحظة تجمعت كل مرارة الماضي ، وعصفت بالنفوس الثورة المكتومة ، فانطلقت على لسان مالك الأشتر كأنها حمة بركان .
انتفض الرجل من مكانه بزأر بالأمر :

« أتزعم أن السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوقاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا يا سعيد . »

وعبس سعيد . وبهت لهذه الغضبة المفاجئة التي لم يتهياً لها أو يعد عدته . وخذل لسانه الكلام . ولكن صاحب شرطته أسعفه خاطره بما زاد من إذكاء النار .. انبرى يظهر الولاء لسيدته ويدفع عنه فراح يرد على الأشتر ومن معه ويعنف لهم في المقال . حتى قال :

« أتردون على الأمير مقالته ؟ »

فأسرع أن وثبوا عليه محنقين يتناولونه بالضرب والسباب ، لا يرعون للمجلس حرمة ، ولا يحسبون حساباً إلا لرى حفيظتهم عليه وعلى أميره سواء بسواء ..

وانتهت الجلسة أسوأ انتهاء . وخرجوا من لدن سعيد وقد تركوا

فريستهم في غشية . وذهب الزهومي من نفس الحاكم ليفسح مكاناً للجزع وخشية كل يوم لم تطلع شمس . هذه الجرأة تنبئ عن قوة مستترة وشدة خبيثة لعلها تدخر إلى ساعة مناهضة وجلاد . وهذه الفئة لا ريب لها ما وراءها . إنها تعني البدو الذين تكلم رجالهم أولئك برأيهم الآن . وتعني المقاتلة غير قريش من القبائل والأعراب . وتعني أيضاً عامة الناس في البلاد من أصحابها الذين أمضهم استعلاء الحكم . إنها الدعوة القديمة للمساواة .. الدعوة التي بدأت هادئة مسالمة في صورة إرشاد قد انطلقت اليوم صرخة مدوية لن تلبث حتى يستجيب لها كل مشوق إلى المساواة ..

وكذلك كانت : واندلعت ألسنتها في كل مكان . وأقبل الناس عليها وقد أعدتهم جرأتها فأصبحوا كدعاتها الأول جرأة وإقداماً دون خشية للأخطار . واختلط الأمر على الوالي . وحارت فيه تجربته الفجة فراح يستلهم العلاج من أمير المؤمنين ..

كتب له يقول :

« .. إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ، ويجمعون على عيبك وعيبي والظمن في ديفنا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثرُوا .. »
فإذا كان جواب عثمان ؟ .. كأنني به قد بدت له إذ ذاك دمشق . وبدا في عينيه أميرها الأموي معاوية كالعملاق الذي تمنو له المشكلات ..
« سيرهم إلى معاوية » .

وكان هذا فصل الخطاب ، والدواء الذي حسبته الخليفة حاسماً للداء .. ولكنه في - الحق - ظلم ابن أبي سفيان ..

نعم ظلمه لأنه حمل من الأمر فوق ما يطيق . وهل كانت سياسة معاوية إلا التماس السلامة لنفسه من أي سبيل ؟

بلى .. فالرجل الداهية خذله دهاؤه . وقدم به الذكاء الذي زعمه له الآخرون . فلم يتلق الشكاة إلا باليد التي يتلقاها بها أي أمير آخر من أمراء عثمان . ولم يبد حياها الخندق الخارق الذي حسبوه له . وهل كان من الذكاء والخدق

والدهاء أن يعالج أولئك الثائرين على الكبر والترفع والاستعلاء بالكبر
وبالترفع والاستعلاء ؟

ذلك ما انكشف عنه وفاض معاوية وانحسرت جمعبته • ونحت عنه
سياقه التي كانت في نظرة ولادة ذلك العهد أرشد السياسات
قال لهم ذات يوم مباهياً بقومه :

« .. لقد بلغنى أنكم نقيم قريشاً • وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة
كما كنتم .. إن أعتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم • وإن أعتكم
اليوم يصيرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .. فوالله لتنتهن
أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصير .. » .
فلم يصبروا على زهوه وإن جاءهم في ثوب إرشاد • بل انبرى أحدهم
بجبهه :

« أما قريش فلم تكن أكثر العرب ولا أممها في الجاهلية .. وأما
الجنة التي ذكرت فإنها إذا اخترقت خاص إلينا » .

وبهذا رسموا له المبدأ الذي ناضلوا عليه وأوضحوه بأقصر بيان • إن القوة
الزهوة التي بوأها القدر مكان الصدارة في الدولة قد نسيت رسالتها التي نصبها
الدين لبثها في الحياة .. نسيت دعوة المساواة التي أراد الإسلام أن تجمع بين
كل الشعوب والأفراد وتؤلف بينهم جميعاً أمة واحدة تسودها المحبة .. بل
إنها بكبرها ضنت على غيرها من الشعوب والقبائل أن تبلغ مثل شأوها •
ووقفت لهم حائلادون التحرر الذي نشدوه • والمساواة التي أباحم إيلاها الدين
الحق • أفكان عجباً إذن أن تتألب هذه القوى المهضومة على ذلك السياج
فتكسره حتى تنطلق منه إلى حياة النور والعدالة ؟

ولكن الرد الواضح الصريح أخرج الداهية عن طوقه • وزرع عنه الحلم
الذي وسم به ، ثم رده في نهاية المطاف مفتوناً أشد افتتان بجهسه • وبقوته
وبأهله الذين يرتفعون في نظرتهم فوق الهام •

قال لهم وهو محنق مغيط :

« أخزى الله أقواما أعظموا أمركم .. إن الله بنى هذا الملك على قريش وجعل هذه الخلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم .. لقد كان يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم — وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم — أفلا يحوطهم وهم على دينه ؟ »

ثم التفت إلى محدثه يشور به ويكيل الباب والقدر لهم :

« يا صمصمة بن صوحان .. إن قريقتك شر قري عربية . أنتها نبثا وأعحقها واديا وأعرفها بالشر .. كتمت جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي .. يا شر قومك .. أفبعد أن أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التي كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجا .. لا يضع ذلك قريشا ولا يضرهم . ولن يعلمهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس .. وإنه لصارعكم . »

بمثل هذا وبغيره من ألوان الشتم والسباب تناول القوم . حتى إذا أفرغ ما في صدره من الغيظ وانفثا عنه غضبه أو كاد ، عادل ثانية يحاول إرشادهم على الطريقة التي يوشك ألا يعرف لها قريناً .. أجل فإنما بتجسيم هيئته أمام عيونهم حسب أنهم يرهبونه ويخفون له جناح الطاعة والرضوخ .

عاود الكلام ثانية عن شأو قريش ومجدها ورفعتها . وراح يرسم بحديثه صوراً عنها تغري الرؤوس من غيرها بالإذعان . فلما أن بلغ وطره من الإسهاب . انثنى إلى الناحية التي تشبع فيه حب المباهاة .

قال وهو يكسب كلماته ليلاً وطراوة :

« .. إني والله ما أمركم بهي . إلا قد بدأت فيه بنفسى وأهل بيتى وخاصتى . وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه . وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً . »

فلم يطق صمصمة هذا البهتان . بل بادره يقطع عليه حديث الصلف
والمباهاة الذي اوشك أن يفرق فيه :

« كذبت . . »

فارتج الرجل لأن الكلمة أصابت خيلاءه بأرھف سوف ولكن صراحة
اللعنم وصرامته أثبت النكوص . .

« كذبت . . قد ولدهم من هو خير من أبي سهيان . من خلقه الله بيده
ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائكة فسجدوا له . . فكان فيهم البر والقاجر
والأحق والكيس . . »

وخرج معاوية من لدنهم مدحوراً .

على أنه في الليلة التالية شحذ سلاحه الماضي الذي حسب أنه لا يخونه . .
ذلك السلاح الذي تركزت فيه سياسة الدهاء كلها التي ظنت له . . المادة
التي تثير الغرائز الدنيا في النفوس وتتملق عواطفها المنطلقة بغير عنان حاكم
من دين أو أخلاق . .

قال لهم وهو يلوح بالعروض والأمنيات :

« أيها القوم . . ردوا على خيراً أو اسكتوا . وتفكروا . . وانظروا
فيما ينفعكم . وينفع أهلכם . وينفع عشائركم . وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه
تعيشوا ونعش بكم » .

هذا بلا ريب عرض سخى . حري بأن يعقل الأسنة وبكم الأفواء .
ولكن الداهية — فيما يبدو — قد غاب عنه إذ ذاك أن سلاحه أولى به أن
يصبح مقلولاً عند مناجزة ذوى المثل والمبادئ وأن النفوس ليست في ميدان
الأهواء سواء . .

لم يفت صمصمة أن يكشف عما انطوى عليه هذا الإغراء الذي يحاول معاوية
أن يشتري ضمائرهم ويستعبد به . فبادره بجواب فيه تقريب وتأييد وفيه تهكم
وسخرية :

« لست بأهل ذلك . . ولا كرامة لك أن تطامع في معصية الله . . »

وهل الرشوة التي أحب لو توصل بها لإخضاعهم وطاعتهم إلا معصية ؟
غير أن الحاكم الداهية بدا كن لم يفهم • وراح يتشم بهدوء ويقول :
— أو ليس ما ابتدأنكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه •
وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا •

— بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي •
وإنها حق للسياسة التي انتهجها هو وغيره من الولاة • • سياسة معاملة
الناس بغير مساواة وبغير العدالة التي جاء بها رسول الله • •
وأن له أن يداورهم ويصطنع لهم النزوع عما كان منه والاعتذار عما فرط
في حقهم فقال :

« فإني آمركم الآن إن كنتم فعلت فأتوب إلى الله • وأمركم بتقواه
وطاعته وطاعة نبيه • ولزوم الجماعة وكرهية الفرقة • وأن توقروا أنفسكم
وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم • وتمظموهم في لين ولطف في شيء • إن
كان منهم » •

أما وقد طلب منهم العظة والنصيحة فليقلها له صمصة دون مواربة :
— فإننا نأمرك أن تعزل عمك • فإن في المسلمين من هو أحق به منك •
فكأنما انقضت عليه ساعة • • أهذا هو النصيح الذي يختصونه به • •
أهذه هي العظة التي يزجونها إليه لخير دينه وخير دنياه ؟ • •
قال له وهو يكتنم غيظه :

— فمن هو ؟

— من كان أبوه أحسن قوماً من أبيك • وهو بنفسه أحسن قوماً منك
في الإسلام •

كذلك حتى لا تكون الإمرة خاضعة للحدود التي رسمها لها عثمان من
القرى واتصال أنساب أمرائه به • •
وثار الأمير • • بدا الخطر الذي يهدد منصبه بعد أن تطرق الحديث بهم
إلى هذا الحد • ولم يعد في طوقه إلا أن يدل ثانية بمكانته وقدرته فقال :

— ... ليس في زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى ... لعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم ما استقامت لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ... ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوا ...
— لست أهلاً لذلك .

— أما والله إن لله لسطوات ونقات . وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم دار الهوان من نعم الله في العاجل والخزى الدائم في الآجل .

وثار بهم ثورته فقاموا له . وأمسك بعضهم بلبعته وبعضهم برأسه . فصاح غاضباً :

— مه . هذه ليست بأرض الكوفة ... والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهارم عنكم حتى يقتلوكم ...
وقام عنهم وهو لا يكاد أن يملك نفسه . ولم يأت الغد إلا وقد تبين له الأمر كله ... إن هذه الشرذمة لن يحملها منى على الطاعة إلا اعتزاله واعتزال بقية ولادة عثمان من أقاربه وبني بينه الذين فتنهم أنسابهم وجنسهم فمضوا يمشون على رؤوس الناس في البلاد ، ويحتجزون لأنفسهم الأموال والمناصب لأنهم يرونها لهم حقاً لا ينزعهم فيه غيرهم ولا يقوى عليه ...
أفينفسون عليه إمرة الشام — هو معاوية ابن أكرم قريش وابن أكرمها وأكرم الناس ... ابن أبي سفيان الذى لو أنجب لم ينبج سوى حازم حزم هذا الأمير الراشد الأريب ذى الدهاء ... ألا فليسلن دهاء وحزمه .
وليرينهم حسن السياسة كيف يكون ...

ولكنها اللعبة الوحيدة التى يجيدها . والدهاء الذى يستوى عنده كل أمير ضعيف وقدير ... والحل الذى يبعد عن إمارته الخطر ويضمن له السلامة ولو إلى حين ...

ومن ثم كتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بالسنة الشياطين .. وإنما يريدون

فرقة . ويقربون فتنة . قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم . وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يفروهم بسحرم وفجورهم . فارددهم إلى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ... والسلام .

١٨

أرعد عبد الرحمن بن عوف ... وفارت نفسه غضباً وهو يصيح بابن أخته :
« يا مسور ... اذهب أنت فأطلقها . ثم ادعنى أنظر ... »

ففضى الرجل صدوعاً بأمر خاله . ومعه صاحب من بنى عبد يغوث إلى مرابض الإبل فأخرجها . لم يستأذنا أحداً : لا الخليفة . ولا مالكيها . ولا أصغر قائم على حراسة الدواب .

وأقبل عبد الرحمن من بدم . ولم تزل في جبينه غضبته . فنظر ملياً إلى الإبل . ثم أشار بها ففرقت بين العقراء .

وأتهم بهذا تحديه لعثمان . . . ذلك التحدى السافر لذلك الشيخ الذى كان هو صاحب اليد في استخلافه . . . ولم تكن هذه أول مرة أبدى فيها استنكار أعمال الخليفة . ولكنه الآن أبداه على ملأ من الناس حتى تحدثوا به . وأنكروا كمثل . . . ووسع كل منهم أن يلفظ باسم أمير المؤمنين الذى احتجز إبل الصدقة لبضعة من بنى الحكم أقربائه دون ذوى الحق فيها من المسلمين .

هذه صورة لما بلغ إليه هوان عثمان وهوان أوامره بين الناس . في أبدء كانت المهينة كالصفحة الهادئة . الماء منبسط عليها . ساكن لا يكاد يتكشف مما يستعمل في أغواره . ولكن الأزمات تلاحت من بعد في أطراف الدولة وراحت تفعل فعلها . آونة سراعاً . وآونة مستأنية في تريث واسترخاء . . .
فإلى أي مدى تقبلتها حاضرة الإسلام ؟

ماذا فعلت المدينة . . ؟ وكيف كان موقفها من تلك الحوادث والأزمات
الفكرية والمادية التي راحت تمهد بالدولة ؟ صامته تنظر . متربصة ترقب حتى
تحين سائحة . . جائحة إلى هذه أو تلك من الطوائف التي أخذت أكفها
تتناول نظام الحكم بالخدش أو بالتمزيق .

بل سبق إليها التذمر ولما يمر قبلها ببلدة . وتناول فيها صاحب رسول الله
أنفسهم فقير قلوبهم على الخليفة الشيخ . وانطلقت ألسنتهم نخوض في سيرته
بما أطلق فيها السنة العامة . . أما عثمان فكان غير آبه . ولم ياق السمع لهذه
الأحاديث المخافتة التي راحت تفتقل بين الشفاء والآذان . ولا الاستجابة لتلك
النقدات العابرة التي كان يطالعها بها صحبه في صيغة النصيح بين حين وحين ،
ولكن الزمن الجارى لم يلبث أن خلع القفاز الأملس . . الصفحة الرائقة
أبدلتها التيارات الخفية هياجاً بهدوء . . النفوس الهواجم ارتدت يقظى . .
لم تبق الآن بقية لمخافة أو إسرار ، لأنه لم تبق فيها بقية لاصطبار .
غلب على الناس ضيقهم ففاض . آدهم الكتمان وأعياهم فأسفروا عن سخطهم
وأظهروه . حلت في نفوسهم الجرأة على الخليفة مكان خشيتهم منه . فما عادوا
يلقونه بمثل ما كان له عندهم من توقير . ونسوا التبجيل الذي هو أولى بتقديم
صمره فضلاً عن علو قدره . وفرغت نفوس الكثيرين من هيبته حتى لأصبح
الواحد منهم لا يكاد أن يرمى إليه إلا بال نظرة الزارية كلما ضمه وإياه طريق .
بل بلغ من هذا أنهم كانوا لا يزجون إليه التحية ولا يردونها إن بدأ بها
ثم يكون من يردّها عليه محور العتاب ولوم اللوام . .

قال جبلة بن صمرو وقد سمع بمضيقه يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا ؟ » .

ثم انقلت من المجلس وفي يده جامعة . فقطع على الخليفة طريقه وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه » .

فأثر عثمان — وإن آلت له الجرأة — اصطناع الأناة . فقال :

« أى بطانة ؟ فوالله إنى لا أتحير الناس » .

« مروان تخيرته .. ومعاوية تخيرته .. وابن عاصم تخيرته .. وابن سعد تخيرته .. منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله دمه .. »
 فنظر الشيخ إليه مبهوراً برهته ، ثم مضى عنه صامتاً لا يعقب . ولكن جبلة أبا أن يعمن في زرايته ، فسالبت أن راح يلوح بقبضته في الهواء متورعداً وهصح :

« والله لأقتلنك يا نعثل ... ولأهملنك على قلوب جرباء ... ولأخرجنك إلى حرة النار ... »

ثم خرج السخط رويداً رويداً من أسوار المدينة ، واستطاع أن يجد له قدمين يحملانه إلى بقية الأمصار .. من حاضرة الدولة كتب أصحاب رسول الله إلى زملائهم المتفرقين في الآفاق بالشغور بغية الجهاد ، ينبشونهم بأحداث عثمان ، ويحضونهم على تبديل ما عمل ، وكان مدار استهجانهم ومعاتبتهم . ويهيبون بهم أن ينهروا إلى جهاده فما من جهاد أول بالمسارعة إليه وتلييته من كفاح هذا القائم على أمر الدين بغير إحسان . وعلى أمر الدنيا بغير كياسة وتدبر ... قالوا لهم فيما قالوه :

« إنكم إنما فرحتم أن تجاهدوا في سبيل الله . تطلبون دين محمد . ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك .. فاهلوا فأقبلوا فأقيموا .. » .

ووضح للناس في الآفاق أنهم وأهل المدينة في الهم سواء . وأن الآفة ليست من الولاة بل من صنائع أولئك الولاة . وأن أخطاء حكاه جميعاً يمكن ردها إليه ثم لا يكون ثمة تجن عليه ولا إفحام له في الأوزار بغير سند ملموس .

وأصبحت الحاضرة الإسلامية ذات يوم فإذا بها تموج بألوان من الزأين الزارين .. لعل الكثرة كانت من صاحب رسول الله الذين خلفوا بلادته من أعوام يصطلون نار الحروب رغبة في إعلاء دينه وكلمة ربه . ولكنهم اليوم عادوا وعاد في ركابهم بضعة من أهل الأمصار الذين ذاقوا من مرارة سياسة الخليفة في أقطارهم البعيدة . وكانوا جميعاً قد أقبلوا

استجابة لدعوة أهل المدينة . وأملأ في أن ينزع أمير المؤمنين — إن رفعوا إليه طلباتهم — عما هو فيه . وأن يبدل طرائق الحكم التي سار عليها وكان لها شأن في تدمير بلادهم منه وتدمير بقية الناس الذين أظلمهم علمه . وراحوا في دروب البلدة يتحددون جماعات وينضم الكثير من أهلها إليهم . ويبحثون بينهم شكائاتهم حتى وسع من لم يسمع أن يعرف أن الشكوى عامة . وأن التدمير شامل بتنظيم كافة الأمصار .

من بين أولئك تخير نفر منهم رجلاً موسوماً بورعه وإن أودت به ذات يوم وشاية حتى نفى من بلدته البصرة إلى الشام .. دائماً الشام كانت المنفى ودار القمع التي تخيرها أولئك الحكام الطغاة . ولكن العنبري لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة . بل هو ناسك عازف عن الدنيا . انطوى على نفسه في داره يعبد ربه ولا يلقى الأحداث السارية إلا بنظرة حكيم . غير أن سوء طالعها أبي أن يدعه في مستقره . فإذا ابن عامر يمر يوماً في جماعة بجوار بيته فيذكرونه لديه . فينفلت منهم واحد مفسود — كان عثمان قد غضب عليه فأخرجه من المدينة — يقول للامير :

— ألا أسبغكم فأخبره ؟

ومضى فدخل على الرجل داره وهو جالس فيها قد استغرقتة القراءة في

مصحف بحجره .. فأهاب به :

— الأمير أراد أن يمر بك . فأحببت أن أخبرك .

فلم يرفع العنبري بصره عما هو فيه . ولم يقطع قراءته إكباراً لكلام الله أن يقطعه كلام إنسان عظم أو هان .. في ذلك الوقت كانت الشكوك لا تنى تراود نفس ابن عامر على بعض سكان البصرة . ويكاد الرجل أن يستريب في كل سكون — كما كان يستريب في كل حركة — خشية أن يكون له ماوراءه من تأليب على النظام . والخفية دائماً يصحبها الظن . وهذا العنبري يستخفي وينقبض عن الناس . وهو من عبد القيس وعهد الحاكم

بحركة ابن سبأ التي دبرت في الخفاء ونشأت في حي هذا الرجل ليس ببعيد .
غير أن ذلك الرسول المفسود آثر أن يضيف إلى شك الوالي موجدة توغر
صدره على الزاهد النائي عن الجمهور . فسارع إليه يقول :

— جئتك من عند امرئ لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلا .

فأسرع ابن عامر فاستأذن على الرجل وحدثه فيما بلغه عنه .. قال له :

— . . إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا .

فلم يجبه . بل صفح كتاب الله وقرأ أول ما وقع بصره عليه :

« . إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . »

ومع ما بدا من استهجان الحاكم من براءة الرجل . وتركه إياه حراً يعبد
ربه مستخفياً كما يريد . فإن ذلك المدنى الغضوب عليه أبى إلا أن ينهز الفرصة
ليسترد رضا عثمان عنه . فسار إليه بوغر صدره على العنبري وعلاه بالشك
والريبة . ولم يعدم أن يجد قفراً مثله مبطلين يؤيدون وشايتة لدى أمير المؤمنين .
وكذلك دفع إلى معاوية بالبريء المظلوم . ولكنه لم يكن مذنباً . ولا داعية
إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة نائرة ، فليس له من سبيل إلى خشية الطغاة ،
ولعل معاوية نفسه قد علم براءته وأيقن بها حتى رق له قلبه وود لو أثناه بما
يريد . كان يقول له :

« قل حاجتك » .

فكان العنبري يجيب ببسمة هادئة فيها إشراقة الإيمان :

« رد على من حر البصرة لعل الصوم أن يشق على شيئاً فأني أراه يخف
على في بلادكم » .

هذا هو الرجل الذي تخيره بعض الزاهبين إلى المدينة ليكون لسانهم عند
عثمان . بنطق بشكواهم . ويذكر حوائجهم . ويزجي للخليفة وسائل الإصلاح
التي يرغبون .

وأدخل القصر . ومثل بين يدي عثمان . ثم راح يشرح رسالته

بالصراحة التي يوسم بها أمثاله من رجال الله :
 « .. يا أمير المؤمنين . إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك
 فوجدوك قد ركبت أموراً عظيماً . فاتق الله عز وجل . وتب إليه .
 واتزع عنها » .

فما أسرع أن تلت عثمان إلى من حوله . وقال ساخراً وهو يقطع على
 الرسول حديثه :
 — أنظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم هو يجيء فيكلمني في
 المحقرات .. فوالله ما يدري أين الله .
 قال المنبري بهدوء :

— أنا لا أدري أين الله ؟
 — نعم . والله ما تدري أين الله .
 — بلى والله . وإني لأدري أن الله بالمرصاد لك يا عثمان .
 وخرج الرجل مغضباً من لدنه ليترك للناس اختيار الوسيلة التي يرونها
 صالحة للبلاغ .

١٩

أما من وسيلة .. هذا شيخ عزم على أن يصم أذنيه دون صوت الناس :
 ولا يسمع النصح . ولا يسوغ النقد . ولا يستطيع مطلقاً أن يرى أعماله على
 محك الفحص والناقشة . كم من مرة كله أصحابه . وكم شكوى سرت
 إليه من شعبه الذي ضاقت صدوره وهو صامت ساكن كأن لا شكوى
 ولا تذمر . أم هي الحيرة يا ترى أوقفته حيث هو حتى لا يعرف كيف يتناول
 الأمور بالعلاج المنشود ..

ولكن الزمن لم يقف له . ولم يترث به . وسبقه بأحداثه إلى الحدود
 التي دون بلوغه إياها انبهار أنفاسه . وقد تخلف الشيخ عن موكب الزمن .

وعاش يفكر جامد لا يستجيب للتطور الذى قطعت الأفكار الأخرى أشواطه .
فبقى بهذا وحيداً فى واد والناس كلهم فى واد ..

ومع ذلك فقد وجب على الشعب أن يفعل شيئاً إزاء هذا الجمود . وأن
يقسر الشيخ على سماع صوته . وأن يحمله كرها فى موكب . وما كانت المدينة
إذ ذاك إلا كلقافلة المقبلة على رحلة شاقة . بعيدة المسافات . دون هدفها
أشواط وأشواط . ولكن الدليل نائم لا تكاد أن توظفه جلبة التأهب ..
أفمتخلف الركب كاه يا ترى أم الخير أن يتخاف الدليل الوسنان ؟ ..
وكرة أخرى بعد الكرات السوائف آثر الناس أن يوظفوا الدليل . وأن
يهزوه فى مرلده ليفتح عينيه ويرى مدى ما أصبحوا عليه . وأن يسلموه الزمام
وهو منتبه غير غافل ليقودهم على الدرب المأمون ..

فمن الرجل الكفيل إذن بإيقاف الغافل .. إن العيون كلها تتطلع فى
مناح شتى ثم لا تلبث نظراتها أن تلتقى على فرد واحد فى الرجال . له جراءة
لا يفسدها اندفاع . ورزاة تنبث عن الحكمة دون الجمود . وشجاعة قلب
تعرف العراحة ولا تعرف البذاءة والإفداع . وهو أيضاً مهيب كليث . إذا
خطر خشعت له الأبصار فلا تقتحمه . فياض البلاغة كغير شبيه . إذا تحدث
ملك القلوب قبل الأسماع . عادل كاليزان . صارم كالسيف ..

تطلعت النظرات إذن إلى كل ناحية فما وسمها إلا أن تلتقى كلها على
واحد ... على على وحده استقر رأى الناس أن يكون لسانهم إلى عثمان .
يحمل رسالتهم عنهم لتؤدى لدى الخليفة خير أداء . فلقد كان ابن أبى طالب
— فضلا عن علو منزلته بين أصحاب رسول الله . والتفاف قلوب العامة كلهم
حوله — هو الرجل الذى له قلب كقلوبهم يشعر بمثل ما يشعرون ويؤمن
كإيمانهم بحقهم فى الحياة الكريمة التى لا تطوؤها أقدام الحاكم طاغ أو وال
مزهو بجنسه أو بقرباه . ويألم إذ يرى حقوق الناس — وكانت حرما — قد
أصبحت كأنها التى المستباح ..

وهكذا أخرجته من بيته الجاهير . وسارت به حتى رحبة القصر . ولم

يكن ثمة من تكلم عن الخليفة بخير طوال الطريق . لا ولا في المدينة كلها إلا عائب عليه ضائق به . وكانت الألسنة تذكر له كل كبيرة وكل هنة . وتعدد من أخطائه ما لم يبق بعده بقية لم يشملها الإحصاء .. حتى أهلها أيضاً كانوا يحملون عليه . بل لعلمهم كانوا يسبقون غيرهم في استنكار أعماله وفي اللهفة لي توبته ورجوعه إلى الصواب . ولم يكن هناك إلا تغير منهم يؤيدونه عن رحمة لا عن عدل . عددهم لا يتجاوز أصابع الكف ..

وتم أخيراً بين الرجلين اللقاء الذي انمقد عليه الرجاء ..

وقال على وهو يحرص أن يكون في حديثه لين الكلام :

« .. إن الناس ورأى . وقد استفسروني بينك وبينهم . والله ما أدرى ما أقول لك .. ما أعرف شيئاً تجهله . ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعليم ما نعلم . ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه . ولا خلونا بشيء فنبلغك ، وقم رأيت ما رأينا . وسمعت كما سمعنا . وصحبت رسول الله كما صحبنا . وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك . ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . وأنت أقرب إلى رسول الله وشيعة رحم منهما . وقد نلت من صهره ما لم ينال .. »

ووسمه بعد هذا القول الناعم الرخي أن يزجى إليه النصيح . ويبين له هساء أن يعطى الناس الحق من نفسه . وينزع بها عما أنكروه . قال ينهم الحديث : « .. الله الله في نفسك . فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل . وإن الطرق لواضحة . وإن أعلام الدين لقائمة . فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى . فأقام سنة معسومة . وأمات بدعة مجهولة .. وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به . فأمات سنة مأخوذة . وأحيى بدعة متروكة . وإني سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر . فيلقى في جهنم . فيدور فيها كما تدور الرحى . ثم يرتبط بها في قعرها .. »

ثم راح يلق اليه بالذير المستنيط من شعور شعوبه نحوه . وبالحدث الفاجع الذى توشك أن تسفر عنه الأحوال فى أنحاء الدولة إن لم تعالج الأمور بالحكمة . وهو فى هذا لا يتحدث عن الشر الذى سوف يحقق بعثان ، بل يراه قد انتشر من بعده فشمس كل قوى الإسلام القائمة وكل رعاياه . وهو أيضاً لم يتردد فى أن يصف له بصراحته الآفة التى توشك أن تسبب كل هذه النكبات عساه أن يبادرها بالدواء الناجع .. قال :

« .. إني أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : « يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة » . ويلبس أمورها عليها . ويث الفتن عليها . فلا يبصرون الحق من الباطل . يمجون فيها موجاً . ويمرجون فيها مرجاً .. فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر . »

مروان ! . إذن فهذه هى المسألة .. أيما ولى الشيخ وجهه وأرهف أذنيه للهمسات جاءه هذا الاسم تلوكه الألسن . مامدى تضر الناس منه ؟ .. ما غايتهم من وراء لومهم فيه ؟ .. وأى العواطف انضمت عليها قلوبهم إن لم تكن عاطفة الحسد لمشيره الأمين ؟ .. أم هم ياترى يفرضون عليه أن يضع ثقته فيمن لا يدين بالولاء له . ؟

ثم تبقى من بعد النتيجة الكبرى التى تنبئ عنها هذه المقدمة الصغيرة .. تبقى قصة القرابة بفصولها الشتى قائمة أمام الخليفة . وعزل الناس إياه من أجلها .. فما مروان إلا رأس أولئك الأهل الذين قدمهم هثماني . وما سعى الناس لخامه إلا الخطوة الأولى نحو إقصاء بقية بنى الحكم وأمية ومن لاذ بهما من مناصب الدولة . وإلى أين يجر هذا الإقصاء إن لم يدع الخليفة الشيخ من بعد كالطائر القابع فى عشه بغير ريش .

أحسبه قد جالت بفكرة هذه الخواطر وهو يتحدث علماً فيقول :
« قد والله علمت ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ما عنقتك ولا اسلتك . ولاعبت عليك .. أجئت مفكراً أن وصلت رحماً

وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر بولى ؟ » .
 وترث قليلاً وهو يستعيد إلى ذهنه الأمثلة التي تؤيد منطقته فلما وسعه
 أن يرتبها عاد يستأنف الحديث .

— .. أنشدك الله يا على . هل تعلم أن المغيرة بن شعبه ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاء .

— نعم .

— فلم تلومنى أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟

قال له على :

— سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطاء على صمائه

إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل
 ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— إن رحمهم منى لقريبة . ولكن الفضل في غيرهم .

— ولكن عمر ولى معاوية خلافته كلها . . . وقد وليته .

— فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

مر ثانية . . . عمر دائماً . . . واهال ابن الخطاب فقد أفسد الأمر
 على من بعده . . . لكأنه في مرقعته ، يمينه الدرة قد وقف شامخاً كجبل
 يجبس عن العيون من وراءه . أو هو منار في ظلمة كست الآفاق لا يستبين
 امرؤ طريقه فيها إلا إذا سار على هديه . . . هكذا كان وهكذا أصبح بعد أن
 طوته الدنيا ولم تطوه الحياة . فما كان مثله بالذى يموت في الخواطر . بل يبقى
 أبداً ماثلاً في الأذهان . حياً في فؤاد كل إنسان . هو اليوم النموذج الأمثل
 للأمر الكامل . ما من عمل يكتب له الإتيان إلا إن رجح في ميزانه .
 وما من حاكم يتوفر له رضا محكوميه إلا إن سار على سننه . فالناس جميعاً
 وإن ضاقت بهم شدته في حياته فقد وسعتهم عدالته . وأصبحوا من بعده

يحنون حنين الصادى إلى عوفة عهده .
 خشوته قعتهم ولكنها جذبتهم . وجمعهم كلهم بين يديه . أما هذا . .
 أما خليفته الشيخ . . أما عثمان الطيب الخافض الجناح فلينه أطمع فيه شعوبه
 وأغراهم به . . ألا فن له اليوم بشدة ابن الخطاب ؟

نقض الرجل يديه من جدل على . ومن حججه وبراهينه . وكفى نفسه
 مؤونة الاقتناع والافتناع . وانطلق بمد مجلسه ذاك إلى المسجد بقلب سوى
 قلبه . وطبيعة سوى طبيعته . ولو وسع من وقفوا تلك اللحظة يرنون إلى
 جهامة وجهه وعبسة جبينه وهو واقف على المنبر لو وسع أولئك أن تلمح
 عيونهم تلك الصورة النفسية التي تقمصها عثمان فلربما أوشكوا أن يروه في
 مرقعة ، يمينه درة ، قد استعار لهم من الماضى سميت سلفه ، وهو
 يخاطبهم فيقول :

« ألا قد والله عبت على بما أقرتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم
 برجله . وضربكم بيده . وقمعكم بلسانه . فدتم له على ما أحببتم أو كرهتم .
 ولنت لكم . وأوطأت لكم كنفى . وكففت يدي ولسانى عنكم فاجترأتم
 على . . . أما والله لأنا أعز نقرأ . وأقرب ناصراً . وأكثر عدداً . وأقن
 إن قلت هلم آتى إلى . . . ولقد أعددت لكم أفرانكم . وأفضلت عليكم
 فضولا . وكشرت لكم عن نابى . وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه .
 ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيكم على ولاتكم .
 فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطق
 هذا . . . »

فن الرجل الذى عناه الخليفة وكفه عن الناس ولوح به تلميحا أمامهم
 حتى يرهبهم ويلزمهم الطاعة له ؟ . وأيهم من بين ولاته أو أهله أو مناصريه ؟ .
 أم هو ياترى بهذا القول قد أراد نفسه فى سميتها الجديد الحشن ذى الشدة
 والبطش ؟ . .

ثم جاءهم من بعد بجماع سياسته كلها فى كلمات . . . ليس هو صاحب

الأمس الآن ؟ . . أليس الحاكم المطلق الذى له أن يعمل وفق مشيئته ويسوس الناس كاشتهائه ما داموا قد عقدوا له البيعة واختاروه خليفة عليهم ؟ ولأى من الأسباب إذن كان هذا الاختيار إن لم يكن لتفردده بينهم بالرأى الراجح والنظرة الصائبة والقدرة الفذة على اكتناء حقائق المشكلات ؟ . . هذه صورة صادقة لناحية الضعف فى نفس الرجل . وللعناد الذى أكسبه إياه هذا الضعف ليدوق قوة . وهو فى أطواره جميعاً كذلك . لا ينى يستمسك برأيه ويتعصب له لأنه يأتى أن يقر لأحد بالتفوق عليه .

وهكذا قال يتم لهم حديثه وهو يكاد أن يحمل كلماته من الاستنكار ما لم يخف على سامع :

« . . . أما والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . أتفقدون من حقوقكم شيئاً . . . فالى إذن لا أفعل فى الفضل ما أريد . . . ولم كنت إماماً . ؟ . »

ولم يسمعهم أن يردوا عليه . بل كان ردهم قيناً بأن يصبح جدلاً لا خير فيه بعد أن بصروه بما عابوه عليه فجاء يحدتهم وكأنهم لم يبصروه . . . بل انطلق بهم الزمن قبل أن يتبينوا آخر كلماته ففاجأهم بمروان إلى جواره بيده سيفه . قد التفت نحوهم يرميهم بلهب من بصره . ويتوعدهم فيقول :

« إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . . . إنما نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مفارسكم تبشون فى دمن الثرى

ولكن عثمان ، الذى أحس أن قد بلغ فى هذه الآونة أوج البطش أبى أن يشرك أحداً فى هذا الثوب الجديد الذى لبسه — ولو كان مروان — حتى لا يبدو ثانية أمام شعبه ضعيفاً به حاجة إلى قوة يمدده بها سواء . لذلك صاح بصاحبه وهو ينهره :

« أسكت لا سكت . . . دعنى وأصحابى . ما منطقت فى هذا . . . ألم أقدم

إليك ألا منطق ؟ . . »

تمت الغلبة لابن سها وحزبه في ذات اللحظة التي غادر فيها عثمان منبر المسجد بعد أن حلاه أن يبدو في ثوب الباطش المهيب ذي القوة والحول . فقد كانت خطبته وقوداً جديداً ، خطباً جافاً زاد تسمر النار . لم يأت فيها بجديد يؤلف قومه ويرد هم عنه سوى هذا الوعيد الذي أثار النفوس وحفزها إلى الثورة عليه . ولم يحاول أن يحسم الأمر برأى يصعد تيار النفور المتدفق ، ولا يوعد يزجيه فيطمئن معارضيه ، ولكنه شنها حرباً سافرة على شعوبه في وقت لم يكن يملك فيه العدة ولا السلاح . . .

وترقبت الأمصار . وزلزلت حين جاءت الأخبار تترى بموقف الشيخ . إن القبا أورثها قلقاً لا يعرف حداً ، والخطبة بكلماتها النطوية على العنف البالغ لم تدع لها فرجة لأمل . وكل حرف حين انتقاله من فم إلى سواه انضمت إليه حاشية من هنا وإضافة من هناك . فلما أن قطع الرواة المراحل بين المدينة وأقطار الدولة كانوا كأنما ينطلقون بفوهة بركان ! . . .

وكان السبائية متربطين بأوكارهم المنبثه في كل مكان ، ينتظرون الفرصة السانحة ليضربوا ضربتهم . فما علموا الأنباء تلقفوها ، ووسعهم أن يتخذوها مطية لغايتهم وأن يقهروا الناس على الإصغاء لهم بعد أن تحققت نظرتهم في الشيخ ، وعلى السير خلفهم ، وعلى الناداة بمثل ما نادوا به من وجوب نفذ الألف منه . . . أليسوا الآن بصدده أمير أعيان الناصحين إرشاده ، يأنف أن يستمع لنقد ، ويأبى عليه عناده أن يتحرر من قيود الأخطاء التي كبته ، فمن أين تكون له الرونة التي تصرفه عن إصراره ؟ . . ومتى ينزع عما هو فيه إلى ما يضمن صلاح أمته وقد رآته لا يكفيه أن يقف من شكاياتها موقفاً سلبياً يدعها قائمة بغير علاج ، بل يتوعددها بمزة نقره ووفرة عدهه ، ثم ينشئ مشيره مروان فهددها بالسيف ؟ . .

وكذلك أصبحت الخطبة مادة جديدة للنقمة على عثمان وزيادة الحقد عليه من حيث أرادها وسيلة للقمع . وراحت الأيام تنجاب عن فورات النفس في أنحاء الدولة . ونشط ابن سبأ وأصحابه فتكاتبوا فيما بينهم وراء الحدود والتخوم . وحضوا على الفتنة . ودعوا إلى تجهيش القوى المناهضة لهذا الحكم ، وبشوا بذور دعوتهم الهدامة فيمن تبعهم وهن لم يتبعهم على السواء . فقد أصبحوا في العيون كلها دعاة إلى بلوغ هدف عام . واستغلوا بأس الناس من إصلاح خليفتهم حتى جعلوهم يؤمنون بأن لا معدي لهم عن الخلاص منه .

ثم ارتدت الأنبياء إلى المدينة بعد حين تحمل ما أوشك أن ينمقد عليه رأى أهل الأمصار . وشعر جيران رسول الله بشبح الخطر بهم أن يجثم على قلب الدولة ثم لا ينهض عنها إلا هن شر . ووسمهم أن يعلموا أن التردد هو الآفة ، وأن البلية في تراخي خليفتهم دون مجابهة الأمور بالحزم الواجب . فأقبلت عليه طائفة منهم كانت لا تزال ترى أن في الوقت بقية للإصلاح فقالت له :

— يا أمير المؤمنين . . أياتيك عن الناس الذي يأتينا .. ؟

فأجابهم بلسان الغافل عن الشر الحاصل :

— لا والله .. ما جاءني إلا السلامة .

فلما أخبروه ، وتبين ما عسى أن يتمخض عنه الأمر ، التفت إليهم قلقاً ،

وقال :

— أنتم شركائي ، وشهود المؤمنين فأشيروا على ..

ثم حمل بالمشورة . فأنفذ إلى البلاد رسلاً يستطلعون له الأخبار ويستكثرون حقائق الأحوال عن كثر ، بعث إلى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة أسامة بن زيد ، وإلى الشام عبد الله بن عمر ، وإلى مصر عمار بن ياسر . وبعث غيرهم أيضاً إلى غيرها من البلدان يقابلون الحكام ويحادثون الخاصة ويخالطون العامة ، لعلهم يستطيعون الوقوف على أسباب هذه الثورة الوشيكة الوقوع .

فمن عجب أن يعود الثلاثة الأول وتعود أيضاً بقية الرسل فيبدو أن ليس في وقاضهم شيء مع ما سبق من ظهور تدمير الناس وغيبتهم على الخليفة في كل مكان ، وأن يلتقوا بعثمان بعد عودتهم ثم يفتشوا إلى المسجد يبلغون من حضرهم من أهل المدينة كأنما كانوا يتكلمون بأسان واحد . قالوا :

« أيها الناس : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم ، فالأمر أمر المسلمين . وأمرائهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .. »

أفكان هذا حقاً رأى الشعوب التي أسخطها حكم عثمان ، أم كان رأى الولاة ؟ أم هي يا ترى سياسة مقررة ؟ أم هي خطة حملهم عليها الخليفة أرادهم بها على حفظ ما استخلصوه في طي السكتان حتى لا يطمع فيه أهل المدينة ولا يكون تدمير الناس بتلك الأمصار إغراء لهؤلاء بالتدمير . . . ؟ هل أراد أمير المؤمنين من سكوتهم أن يوسع لنفسه في التفكير عساه يستطيع تدبير الأمر في جو هادئ قبل أن ينقض عليه مقر الخلافة . . . ؟ قد يؤيد هذا أن رسله أولئك ليسوا بذوى غفلة أو يعوزهم التبصر وفيهم مثل ابن مسلمة الذي كان ثقة لعمر ورقباً على ولاته ، يبعثه إلى القطر الشاكي فيستقصي ثم يأتيه من بعد بنتيجة البحث التي تهيب للخليفة وضع كل أمر في نصايه الصحيح .

من عجب أن يعود ذلك الرقيب فيعلن كرفاقه على الملأ أنه لا إنكار على عثمان ، ولا شكوى من أمير ، ولا مظلمة يود الشعب لو تلمس لها هدالة . وأن تنهى رحلته بتير ما بدأها به . . . فلقد خرج من المدينة وهو عليم بما اصطخب في نفوس أهل الأمصار من السخط على خليفاتهم وطعنهم فيه . وغادرها وكانت إلى قليل مسرحاً من مسارح ذلك التدمير الذي شمل أقطار الدولة . أفئن خالط الناس غابت عنه شكاياتهم التي كانت فاعمة أمام بصره كالأعلام وهو عنهم بعيد .. ؟

لا ريب أن الإخفاء كان سياسة مقررة وضعها عثمان أو أشار بها مروان وإن جاءتها بغير هذا صفحات التاريخ . فلم تكن السحب المتجمعة في الأفق

لتخفى على عين غرير فضلا عن عليم خبير . ولم تكن النذر الخطرة بحاجة إلى استكناه أو غوص في أغوار النفوس الساخطة على عثمان وعهده في آن
ولكنها وسيلة — فيما يبدو — أريد بها بث السكينة في حاضرة الدولة عسى أن يستطيع الخليفة أن يحزم أمره . ولعلها خطة حميدة . ولعل القائلين على الأمر أحسنوا إداعائوا في المدينة رضاء الرعية ، سواء أكلن إعلانهم هذا تقريراً لحقيقة حادثة أم وسيلة لحال مرجوة . ولكن رجلاً واحداً أفسد عليهم هذا التدبير أو هم في الواقع الذين أفسدوه . فقد تخلف عمار عن أصحابه ، وطال غيابه بموطن بحثه حتى ظن أنه اغتيل ومكث طويلاً بمصر لا يرفون مصيره ولا يسمعون عنه . ثم جاءهم من ابن أبي سرح واليها خطاب يقول فيه :

« . . . إن عماراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء . . . »

ولم يخف الساسة النبأ بل أشاعوه . وكان إلقاءه على هيئته هذه مغرباً للناس بالانقسام تجاه ابن ياسر إلى فرقتين . واحدة سارت وظنون رجال الحكم بالمدينة في درب واحد فرمت الرجل بالكيد لعثمان ، وأخرى كانت تعلم للصحابي الجليل قدره ، وتقر بفضلته ، وتباعد به عن مواطن الظنة والشبهات ، فأمنت أنه مال إلى حق ولم ينجح لباطل . .

وفي الحق لقد بدا من بعد أن أخرى الطائفتين هي راجحة الرأي . فالرجل وضيء الإسلام ، حري به ألا تسفهويه ضلالة . وهو أيضاً دائم الإخلاص لدينه ، قوى الشعور بواجبه نحو أمته ، شديد الحشية لله . . إنه نفس عمار الذي ألبس أذراع الحديد وطوح به على رمضاء مكة عسى أن يفتنوه عن العقيدة التي دان بها أو يبيهم مبداء بسلامة حياته فأثر الموت على أن يفتنوه . . ولو أن عثمان لم يعرف له تغليب ضميره على كل شهوة لما أرسله أو وثق به ، ولكنه آمن بإخلاصه للهدف العام الذي يرومونه جميعاً وهو صلاح الأمة فلم يتوان عن بعثه . بل غلب في نفسه ما يعرفه من

أمانة الرجل على ما كان بينهما من عداوة قديمة . .

فإذا كان عمار قد اجتمع بابن سبأ أو بهمض أصحابه فلغير تأييدهم كان اجتماعه . ولغير الاتفاق وإيائهم على النهج الذى ينبعونه إزاء الخليفة ، لأن الحياة ليست من خلق الرجل . ولكنه بنير شك اجتمع بهم ليتعرف آراءهم فى الشيخ ، وليعلم أسباب انتقاضهم عليه ، وليتبين عن كذب مدى النشاط الذى تبذله طائفة من الشعب فى الواقع أشد القوى المعادية لعثمان ، وهو بهذا يبدو مخلصاً لرسائله تمام الإخلاص عاملاً جهده على تأديتها خير أداء ، باذلاً ما فى وسعه لاستكمال أوجه بحثه . وهو إلى هذا رجل كانت له نظرة مخالقة فى أعمال الخليفة ، لا تعرف مطلقاً التعصب له أو مداهنته ، فوسعه أن يسير فى الطريق الصحيح الذى لا بد أن يودى إلى إنجاز الواجب الذى وكله إليه الأمير . . ثم هو بميزته هذه كميل — وقد علم الداء — بأن يعرف مكانه . . ولو أنه كان صنيعاً لابن سبأ لظل مستخفياً بمصر حتى يقدم مع الوفود التى أودت بالشيخ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة يسفر عن رأيه ويدعو للإصلاح علانية كغيره من ذوى الغيرة على الدولة والإسلام .

أجل بدا بلا شك رجحان رأى الذين لم يأخذوا بخطاب ابن أبى سرح على وجهه . ووضح للناس بالمدينة أن شكوى إخوانهم بالبلدان الأخرى جدية بالنصف . بل وضح هذا أيضاً لعثمان وأعوانه بعد أن طالت مداورتهم للأمر وإهمال أخذها بالحزم الواجب ، فكان أن بعث إلى الأمصار كتاباً يقول فيه :

« . . ألا لا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . . لقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وأقواما يضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى . . »

وأردف عثمان كتابه بدهوة إلى أمراء الأمصار يحثهم على المسارعة للاجتماع بحسام أن يقولوا ويقول فيعلم أين يكون الخير .

وقال لهم بعد أن عرفوا فيم الاجتماع :

« . . . أنتم وزرائي ونصائحي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطببوا إلى أن أعزل همالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجهدوا رأيكم وأشيروا علي . . »

فأى حال يا ترى من الحرج كان فيه أولئك العمال إذ سمعوا أن عزلهم من ولايتهم كان أول مطلب لرعاياهم ؟ . . . وبأى أنواع المشورة كان الواحد منهم حقيقةً بأن ينصح الخديفة ؟ . . . في لحظة ذكروا رسل هتمان إليهم فوسعهم أن يسارها بالجواب الذي ينطوي على معنى واحد وإن اختلف بيانه :

« يا أمير المؤمنين . . . ألم تبعث ؟ . . . ألم ترجع إليك الخير عن القوم ؟ . . . ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟ . . . لا والله ما صدقوا ! . . . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها . »

واستطاعوا أن ينفضوا بهذا عن رقابهم سيف الإرهاب .

— فأشيروا علي . . .

قال له عبد الله بن عامر :

— رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه .

فأصدق بها مشورة من محارب ! .

وقال سعيد بن العاص :

— احسم عنك الداء ، واقطع الذي تخاف ، واعمل برأيي نصيب .

— وما هو ؟

— إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

كأن قد ذكر تلك الضجة التي أثارها عليه الأشتر وصحبه من غلاة

الوطنيين ! . . .

وقال معاوية :

— أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك عن الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك ما قبل .
 وإنه لرأى الرجل يرى نفسه في عافية فلا يعنيه أن يبحث فيما يكفل العافية لسواه ! . .

وقال ابن أبي سرح :

— إن الناس أهل طمع ، فأعطيهم من هذا المال تعطف قلوبهم عليك .
 ومن أولى بالاعتراف بسيادة المال على النفوس من هذا المشير الذى منحه عثمان ذات يوم خمس أفريقية ؟ . .

كذلك تكلم كل أمير يشجوه . . . ولكن الخليفة لم يجزم برأى ، ولم يقطع بأمر ، بل ألقى عينه إلى ناحية في الجمع . . ها هنا رجل صامت ، لم ينطق إلى الآن بكلمة ، قد ثبت بصره في العشرين واحداً بعد واحد ، ولكن أذنه كانت غائبة عنه . . طوال الوقت كان لا يكاد أن يفرغ رجل منهم من رأيه حتى يسارع هذا الصامت فيهدف سمعه لما يعج خارج المكان . . . إن الجدل لا يبنى يأتيه مشوشاً مضطرباً لا تكاد حروفه أن تبين ، ولكنه واضح الدلالة . . هذه الجموع الزدخرة من الشعب كانت هي الأخرى في شبه جلسة — تماماً كما لى أمرها من هؤلاء الولاة ! ولكن همها يضيئها ، والقلق على مصيرها يملأ قلوبها خشية لأنها شكت ، وجمت أسباب شكواها ، ثم تقدمت بقضيتها إلى حكام هم الخصوم . .

طوال الوقت كان ذلك الرجل معنياً بالجماهير الزدخرة في الخارج ، يكاد أن يسمع مناقشاتهما وإن لم يوصله كلام ، وأن يعرف آراءها الجافية في أولئك الحكام . وكان ذهنه صافياً وإن ازدحمت به الخواطر ، وقلبه هادئاً ثابتاً في قراره لا يكاد أن يلعب به الخوف . بل لعل فيه قد راح يتلون بأطراف بسمة بين فينة وفينة ، صفراء فيها شماتة . . إنه ليس أميراً كهؤلاء . لم يعد أميراً بعد أن نحاء عثمان . ولكن لحظته حانت أخيراً . وجاء الوقت الذى سعى فيه الخليفة إليه ليستهدى به بعد أن أطبقت عليه شركاء

الأحداث . أفأنا له أن يقسو على وآثره لم يصفح عنه ؟ . . .

بل هو رجل لا يستجيب للعواطف إلا بمقدار ما تشبع اثره نفسه . الحقد عنده بحساب ، والحب بحساب والنصح أيضاً بحساب . وهو في كل زمان ومكان لا يبذل منها إلا القدر الذي يضمن له الربح ويجنبه الخسران
وأثاه صوت الخليفة الواهن كأنه من قرار سحيق :
— وأنت يا ابن العاص . . . ما رأيك ؟ .

فالتفت إليه وما زالت تستهوى سممه ضجة الجماهير ، وقال بلمجة فيها الحقد ، وفيها الخبث ، وفيها الشماتة :

— أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون ، فاعترم أن تعتدل . فإن أبيت فاعترم أن تعتزل . . . فإن أبيت فاعترم عرماً وامض قدماً . . .
فكانما لم تخف الرنة السكريهة في حديثه عن مسمع عثمان : فصاح به :
— مالك قل فروك ! . . أهذا الجد منك ؟ . .

فلم يجب . بل ترك أذنه ثانية تنعم بالأصداء المنبمثة عن أصوات الصاخبين في الخارج . وهو الآن قد أشبع حقه وثأر لنفسه من الشيخ الذي نحاه عن مصر وأذهب عنه جاه المنصب . في ظنه أنها دولة أوشكت أن تدول وعهد قاربت شمس الأفول ، ثم يأتي على أثره آخر يستند إلى أعضاء هذا الشعب الثائر . ولقد قال كلمته في صاحب العهد واستطاع أن يسوقها في الثوب الذي لا بد سيروق الجمهور . ولن يلبث إلا قليلاً حتى يتسامع الناس فيكون هو عندهم الرجل الذي لوح بقبضة يده في وجوه الطغاة ! . . .

ولكنه ابن الفابغة ! . وليس هو بابن أمه إن لم يملك في يمينه الأمر ثم يملك في يساره نقيضه ! . . ليس هو إذن يعمر وذى الوجهين إن لم يراهن في آن واحد على جوادين ، لا يعلم على التحقيق أيهما الخاسر في السباق ولكنه يعلم أن واحداً منهما مكتوب له التفوق في نهاية الشوط بكل تأكيد

لذلك لم يزايل مجلسه . وظل ثابتاً لا يريم . فلما أن انقضى جمع الأمراء

وبقى هو وحده من دونهم ، تقدم بخطى ثابتة لا تمرف الاستحياء فأظهر الولاة
لعثمان وقال في انكسار :

« يا أمير المؤمنين . والله لأنت أعر من ذلك . ولكنى علمت أن بالباب
قوماً قد علموا أنك جمعنا لنشير عليك . وسيبلغ الناس قول كل رجل منا ،
فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فألود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .
فإن هى إلا مرأاة جبلت عليها طبيعته ولن يلبث أن يهتكها لسانه إذا
تواترت الأيام ..

٢١

فشل مؤتمر المال . فلم يسفر عن تحقيق رغبات الناس . لا ولا أولاهها
وبقى الولاة على أقاليمهم وقد أعاد تثبيتهم فيها عثمان .
ونظر الناس فيما بعد بالأمصار إلى نتائج الاجتماع فهاهم ما انطوت عليه .
إنهم ثانية قد ارتدوا لما قبله . ووقفوا شاخصين إلى موكب الزمن السيار ،
وجنحت حياتهم العامة إلى زاوية من الجود . لكأنه عبثاً كان جهادهم طوال
تلك الأعوام وسع بهم الدائب إلى نوع آخر من العيش الإنسانى الذى تظله
الكرامة . لكأن عثمان وقد تفقت مشكلاتهم أمامه آثر أن بلقاها بهزكتفيه ..
أفهم عند أمير المؤمنين بهذا الحد من الهوان ؟ .

بل أهون شأنًا على نفسه منهم بالأمس ، وأتفه من أن يوسع لهم فى
الإصلاح المنشود ، فقد كذبتهم آمالهم هذه المرة أيضاً وخانتهم بقايا الثقة
التي أودعوها الخليفة . . عند ما جاءهم دعوته للقيام بموسم الحج — قبل
دعوته الأمراء — ظنوا أن شمس الإنصاف آذنت بزوغ ، أو هكذا
حسب الكثرون ، ولكنهم بعد قليل أصبحوا فرأوا أعمالهم يتهاون للرحيل ،
فلم تعد هناك حاجة إلى إسراعهم بشكاواهم إلى الخليفة . . كانوا أمام كتابه
لهم فرقتين . واحدة أحسنت الظن فأمنت أن دعوة الأمراء لن تلبث حتى

تسفر عن خير ، وأخرى ملكتها الاسترابة فأيقنت أن عثمان الذي انتقاد دائماً
لعماله على البمد لن يسمع من وفود التذمرين وأولئك العمال يحيطون به كالسور ،
وهذه وتلك آثروا أن ينتظروا النتائج التي ستبدو غيب الاجتماع .

ولكنهم جميعاً آفتمهم النتائج وهالهم ما انطوت عليه . فلم يكن بها معنى
الإصلاح ولم تبق ما كان كما كان ، ولكنها انحدرت بحالهم إلى أسوأ من سوء .
ومن عجب أن يأخذ الشيخ برأى ابن طامر المحارب فيأمر بتجمير الناس في
البعوث ثم لا يلقى باله إلى رأى ابن أبي سرح بتأليف قلوبهم بالأموال . . .
أفنى الصفة الاقتصادية التي كانت عليها شعوبه ؟ . أغاب عن خاطره أنه ما من
شكوى فاضت عن النفوس إلا كان لها من ورائها سبب مادي ؟ . وهل عوامل
الانتقاض على حكمه أثارها شيء غير الفوارق الاجتماعية بين الطبقات التي
نشأت مرة من التفرقة في التقسيم ، وثانية من كيل الهبات لطائفة دون الآخرين ،
وأخرى من حجز النفي عن بعض المستحقين ، ومع ذلك فإن الشيخ بمد انتهاء
الاجتماع قد أمر ولاته بتعريم الأعطيات على الناس ليطيعوا ويحتاجوا إليه . .
إنها إذن سياسة حسم الداء بالداء . . إنها الخطة التي تفتق عنها ذهنه وأذهان
مشيريه الدهاة الذين كان هدفهم الإبقاء على صوالج السلطة في أيديهم بأي
وسيلة وإن كانت إذلال الشعب التأثير على الفقر ، بالفقر وبالحرمان .

هذه حرب جديدة شنها عليهم عثمان . ليس أداؤها السلاح . ولا التخويف
بعمزة النفر ووفرة الأنباع . ولا الإرهاب بشدة العقاب وقسوة العذاب . .
ولكنها حرب عدتها المادة ، كان لها مثل طعم المر في أفواه الناس . . حرب
جائحة شنها الشيخ على الأرزاق .

ولكنها فشلت كما فشلت من قبل وسائل عثمان ولم يكتب لها النجاح . .
فلقد أساء بها الخليفة كما دته اختيار الدواء الذي يصلح للداء . . وكأني
بالكوفة غيب انقضاؤهم مؤتمره قد احتمت كلها بمسجدها حتى ضاق ،
وتذاكر الناس شأنهم فلقين . . كأني بيأسهم من إنصاف الشيخ بلغ منتهاه

ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد عاد إليهم الأشتر من المدينة يحدّثهم بما كان .
ولم يكن هناك عقل يتكلم ، بل العاطفة هي التي ملكت نواصي الحديث ،
والقنوط البالغ هو الذي حرك أقدام الناس . وكانوا جميعاً أشبه بقاطع أجمة خلت
كناتته من السهام ثم بصر بليث هائج يسد عليه منافذ النجاة ، فما أسرع أن
امتدت يده بقوسه يدفع بها عن نفسه وهو يعلم أنها في الأغلب قليلة الغناء . .
ولكن أهل الكوفة كان يحركهم اليأس . فقد غلبوا على أمرهم أخيراً
وضاعت عبثاً أعوام وشهور لضوها في الجهاد . وأدعى من هذا كله أن ثقهم
في عثمان قد ذهبت هي الأخرى هباء . فلم يبق ثمة أمل في إصلاحه وتغييره
طريقه القديم . ولم يعد لهم معدى عن العمل لأنفسهم بأنفسهم ، وأخذ حقهم
بأيديهم ممن غصبوه . .

وكذلك رفعوا القوس يذودون بها وإن علموها توشك أن تكون قليلة
الغناء . وانطلقت جموعهم الثائرة تبارح المسجد كأنها عاصفة . حسب الناس
أن يثبت عثمان عليهم سعيداً واليه ليلكوا القدرة على التمرد . . وراحت
الأفواج تنطلق إلى خارج البلدة وينضم إليها الأنصار من هنا ومن هناك .
وراحت أيضاً تندس فيهم طوائف من أصحاب ابن سبأ دعاة الفتنة يصبون
الزيت على النار . . وخرجوا جميعاً إلى الجرعة بقرب القادسية وقد تزودوا
بالسلاح . .

وقال لهم الأشتر مالك بن الحرث وقد تجلجل وجهه بالنبار ، وهو
مقلد سيفه :

« والله لا يدخلها علينا ما حملتا سيوفنا ! »

وأقبل أخيراً سعيد . وعجب للقوم وقد سدوا دونه الطريق إلى الكوفة .
فلما علم منهم ما أجمعوا الرأي عليه وقف هنيئة ينقل فيهم بصره ، ثم قال باسمه
بغير اكتراث وفي صوته رنين ترفع وسخرية :

« إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وتضعوا لي رجلاً . .

وهل يخرج الألف إلى رجل واحد ولهم عقول . . .
وانثنى عنهم يقطع الدرب صوب المدينة .

يا ترى كيف تقبل عثمان هذا العصيان ؟ . . . في لحظة واحدة نسي ما كان قد اصطنع لنفسه من البطش وارتد ثانية كعهده ليناً غاية اللين ، متخاذلاً أشد التخاذل ، ضعيفاً مسرفاً في ضعفه . وسمعه أن يخفض رأسه لثوار الكوفة كأنما يقر لهم بحقوقهم في التمرد . . . ولكنه بهذا قد هون أمره على الناس قبل أن يهون عندهم أمر سعيه ، وراحت هيئته لتق لا يكاد أن يحتفل به رجل واحد ، وزادت المرأة عليه فيما وراء البلدة حين سرى نبأ الحادث حتى أوشك أن يكون نذيراً بانقضاء سلطانه ، ولم يكن عجباً أن يأتيه من بعد نبأ عن حادث مماثل يقع بناحية أخرى من أقاليم الدولة ، وأن يخلع قوم طاعته هنا أو يخلعها غيرهم هناك ، فقد علم الناس أن يعصوه وأغرامهم بعصيانهم . وهم الآن لا يعرفون له حقاً عليهم ولا رقابة ولا قليلاً من سيادة تردهم إلى مركز التابع من المتبوع ، بل أصبحوا سادة أنفسهم ، أمرهم في أيديهم وشأنهم إليهم ، لا يقرون لمثله بسلطان ، وليس بدعاً أن يصبح الحكم من بعد فوضى تبزه شرادم الثوار حينما تشاء .

أما المدينة فقد استقبلت مؤتمر العمال بأمل وودعتهم بملل ، بل أوشكت أن يسودها توجس وقلق ، وهي تلقى ببصرها من خلال أمهالها إلى المستقبل القريب . لم يسفر للناس عن شيء يهدى مخاوفهم ، أو يرد عنهم خشيتهم على مصيرهم في ظلال هذا الحكم ، بل هو ألقى حجاباً كثيفاً بين الشعب وبين حكامه ، وأيقن بعده كلا الفريقين أن عزته في هدم أخيه .

أجل ؛ أصبحت هكذا الحال ، وما أحسب أمراً ينتظر أن نصيب قصيته العسالة لدى حصمه . وما أحسب عاملاً من عمال عثمان يستطيع أن يفهم أن غلبة الشعب عليه وعزله من منصبه هو نصر له لأنه نصر لشعبه
لذلك بات الناس بعد انتهاء المؤتمر بإقرار الولاية على أقاليمهم يكادون أن ينفقوا الأكف من إصلاح الحال ، وعادوا يسرون ثانية في دائرة التيه .

ولكن لحظة من أمل خطفت أمام الأبصار في الأفق كأنها خط البرق ،
 فقد دعا الخليفة إليه أصحاب رسول الله ليسألهم المشورة ، فحسب الناس أنه
 لقاء لا يتمخض إلا عن خير ، وتلبثوا ينتظرون راجين ، والتأم الجمع بسعد
 وطلحة والزبير وطائفة أخرى من المهاجرين ، وكان الوقت قد آذن بدخول
 الأصيل ، ومسجد النبي أوشك أن يفرغ من الجوع بعد صلاة العصر حتى لم
 يبق فيه غير نفر قليل . وكان على في ناحية منه ، إلى جواره ابن عباس يحدّثه
 حين أقبل رسول من لدن عثمان يدعو . . .
 والتفت أبو الحسن إلى ابن عمه :

« لم تراه دعاني يا عبد الله . . ألا تنطلق مني ؟ » .

ودخلا حيث اجتمع الصحب بأميرهم . فما إن استقر بهم مكانهم حتى وقف
 عثمان فقال :

« إن ابن أبي معاوية هذا كان غائباً عنكم وعن ما نلت مني وما عاتبتكم
 عليه وما عاتبتوني فيه .. وقد سألتني أن يكلمكم ، وأن يكلمه منكم من أراد .. » .
 فأدار سعد بصره هنيئة في الحضور كالستنكر . إن هذا الشيخ لا يني
 يتخذ من آله أستاراً يخفى خلفها ويحتجب بها عن قومه . ولو أنه آثر أن
 يلقي الناس بنفسه لكان خيراً له ..

وقال له سعد وهو لا يدارى عنه ضيقه بهذا الأجلوب من التفكير :

— وما حسي أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ماقلت أو قيل لك ؟

— على ذلكم يتكلم .

وأشار لصاحبه فوقف بينهم . فإذا يا ترى أغراء باتباع تلك اللهجة
 المعاوية حيال أولئك الناس ؟ . . إن معاوية بغير شك رجل فيه حذر ،
 وفيه حفاية بسلامته وسلامه أمارته كفيلة بأن ترده حريصاً على التماس
 رضا هذا النفر من أعوان رسول الله — هذه البقية الباقية من أهل
 الشورى الذين لن تلبث الخلافة أن تأتي أحدهم طواعية فلا يأمن أمير الشام
 بعدها أن يبقى له أمره . ولكنه مع ذلك تكلم . وعنف في خطابه إيّام

إلى حد كان يحمل معنى التعدي لهم والرغبة في إثارة غضبهم . . بل لقد بلغ من استهاتته بأقذارهم أن لف حديثه بالوعيد والتهديد فقال :

« . . إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم أندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم ، ثم استن عليكم بسننكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي . . »

إن هذا إلا صلف أغرته به نفسه ، واعتزاز بقدره وسطوته عند الخليفة وفي ولايته البعيدة التي اشترى نفوس أهلها بماله وبغيره من الأساليب التي يستجيب لها الضعف البشري وينحضع لإغرائها المحتاح . ولكن علياً أن يقره على إدلاله فصاح به يقطع عليه الحديث :

— كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ؟ . . لست هنالك !

فأجابه معاوية بلهجة المعانين :

— مهلا عن بنت عمك ، فليست بشر نساك . .

ثم راج يتمم لهم حديث التهديد :

« . . إنا ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين . فإن استقاموا استقاموا . . وأيم الله لئن صفت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدان . وليس ابن أمركم . ولنقلن الملك من بين أظهركم . فما أنتم في العاس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض . ولقد رأيتكم نشبتم في الطمن على خليفتمكم . وبطرتهم معيشتكم . وسفهم أحلامكم . ألا فالصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله . . »

فأى أثر تركه هذا الرجل في صدور سامعيه ؟ ، ولأى الفايات رمى من وراء تخويفهم ببطشه ؟ ، ويأى حق نصب من نفسه حامياً للخليفة وأولى بمشان أن يكون هو حامى الولاية ؟ ، وهل كانت ياترى نبوءة خالصة ألهمها صاحب الشام حين تحدث لهم عن قتل الملك من مدينة الرسول ؟ .

أحسبه كان جاداً في كل مقال ، يعنيه إلى آخر حرف من حروف كلامه ،

فلم يلق حديثه هبثاً بغير روية أو لغير غاية . ولم يثر فيهم حفاظهم إلا وقد دبر أمره أو أبقن أنه يستطيع تدبيره . ولم يطف بوعيده عليهم إلا وهو عليم بقدرته على إنقاذه .

أما الوعيد فلم تكن هذه أولى الكلمات التي نضحت به بل سبق به ذات يوم لسانه وقد لى بالمدينة عمار بن ياسر وقال له بلمجة الجد الصارم :

« .. إن بالشام مائة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون علياً ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته » .

وراح يردد أسماء صحب رسول الله برنة تعريض ثم انثنى إلى أسلوب الإرهاب :

« فإياك يا عمار أن تقع غداً في فتنة تنجلي ، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي » .

فكان بهذا قد علم أنه حقيق بأن يعتمد على قوة جنده إن دعت الحال . إنه على أى حال رجل كبير الأطماع ، قد دأب خلال الأعوام العشرين التي قام فيها بحكم الشام على أن يوطد بها أمره ، ويثبت أقدامه ، ويتخذ حيال أهلها كل ما هو كفيل بأن يجعلهم أطوع إليه من بنائه . وهو قبل هذا له عندهم نفوذ اكتسبه من تلك الصلة القديمة التي نشأت على يدى أمية جده حين تقاه حاشم إلى الشام فراح يؤلف الأقوام بها حوله ليكونوا له عدة على عمه . وهو ثالث قد خلف على إمرتها أخاه يزيد بن أبي سفيان الذي كان عاملاً لأبي بكر وعمر . ومنذ تلك اللحظة وهو قائم على أمورها ، يتبدل الولاية والعمال في الأقاليم حوله وسلطانها عليها ثابت ، ومكانته بها وطيدة لا تعصف بها غير السياسة . فلما أن ولي عثمان أضاف إلى قوته قوى جديدة بأن ضم إليها بضع ولايات جمعت له حكم الشام بأقاليمها المختلفة . وأصبح مساوية بكل هذا يمتاز على أقرانه من الولاة . فلم تكن له كتبهم صفة الولاية بقدر ما توافرت في إمارته صفات الملك المتوارث الذي دان له

دهراً يوشك أن يبلغ مثل عمر الإسلام في أرض الشام .

علم الرجل رسوخ قدميه بأرضه هذه فوسعه أن يزهي ويقول ليس يرده من زهوه واعتدائه بقوته استحياء واجب عليه نحو خيرة صحب رسول الله ، ولا أقدار لهم كفيلة بأن ترفعهم في عينه كما رفعهم في عيون بقية الناس ، ونسى في تلك الساعة أنهم أكرم على النفوس من أن يتناولهم بمثل تهديده . وإن صاحبه كان هو الأولى بالعقاب والملامة ما دام لم يرم خلافته حق رعاية . ولم يرم كذلك حق شعبة حتى حق أن تميل عنه القلوب .

أما كان معاوية إذن يشق طريقه بأقدام الوثق ، ويبنى صرح مستقبله السياسي وهو جد عليم بأنه وطيد الأساس ؟ . . ما أحسبه إلا قد آمن أن أزمة هُمان سوف لا تنجلي عن خير . . . وما أظنه إلا استشف نتائجها المحتومة وهو بالمدينة لم يبرحها ، بل وهو بعيد عنها لم يدخلها بعد ، ولعله قد استطاع إذ ذاك أن يرخي لأطباعه العنان ، وأن يتركها تنساق أمامه إلى أقصى الحدود . والرجل الطموح لا يبنى يرقى في سلم غاياته بلا انتهاء . . . وكان صاحب الشام ذاك الرجل . وكان كذلك حريصاً بحيد التدبير قبل اختياره الطريق التي تبلغه هدفه ، ولقد دبر لنفسه ، ودبر له أيضاً حسن حظه من قبل حتى اجتمعت في كفه ناحية من الدولة الإسلامية وسيعة ، لا تكاد تنطق قبل أن يشير ، أفئن مد بصره إلى بعيد أفيكون عليه ثمة جناح ؟ .

بل ليس عليه من جناح بعد أن نهيات له قوى من رجال ومال تؤيد طموحه . وبعد أن توفرت لديه أسباب النجاح في الحالة الخلقية التي أصبح الناس عليها في ذلك الحين وقد غلب فيهم سلطان المادة على قوة الروح ، وكان هو خير من يعمل على تغليب ذاك السلطان . وبعد أن ألف السيادة أعواماً — بنفسه وبأهله — كانت أطول من عمر هذه الدولة التي وسعها طموحه ، فما من شك وهذه حاله أن يعمل قدر طاقته على أن يسود الأمة الإسلامية كلها فلا يكاد يحس أنه يعمل لأكثر من توسيع رقعة الأرض التي دانت

له بضم دويلة من هنا إليها ودويلة من هناك .

يمثل هذا العناد النفسى الذى استشعره الرجل من وراء ميزاته استطاع إذن أن يلقى بقية صحب محمد ، وأن يتهمهم ، وأن ييسط أمامهم وعيده
 أما كلماته عن قتل الملك من بين أظهرهم فلملها لم تكن نبوءة ، ولعلها أيضاً لم تكن كلها تهديداً ساقه ليرهب سامعيه هى فى الحق كانت أقرب إلى التهديد منها إلى التهديد — المقدمة التى لن تلبث حتى تنكشف نتائجها عما قليل .
 ما كاد ألا يبقى لمعاوية بالمدينة مقام حتى قال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين . . . انطلق مئى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . . . » .

فلم يرض عثمان . ولكن العرض فى ذاته كان حرياً بأن يرفع صاحبه فى عينيه ، ويضعه منه موضع الغيور على الخلافة ، الأمين قبل غيره على سلامة الشيخ . وهو هكذا اقتراح قد تكون له جدواه على عثمان لو قبله ، ولكنه محقق الجدوى على معاوية فى حالتى الرفض والقبول . فما من ريب فى أن نقل الخلافة الإسلامية إلى الشام خطوة لا ثانية لها إلا نقلها إلى كفى معاوية ، سواء عن وصية من الشيخ عند قرب حينه أم عن اختيار متروك إذ ذاك لأهل الشام قبل غيرها من البلدان . أما وقد أبى عثمان أن يأخذ برأى ابن أبى سفيان ، فقد كفى هذا أن يسبق غيره من الولاة فيبدو حامياً لخليفته ، ويبدى المرشحين للخلافة كلهم فى مظهر لا تطيب له نفس عثمان .

ومع ذلك فلم يبرح مكانه حتى استوثق لنفسه . كان حاذقاً إلى الحد الذى يجعله لا يكمل تدبير أمره للظروف فدبره قبل أن يغادر المكان . . . عرض فى البدء على عثمان أن يعده من لدنه بجند يحميه ، فلما أبى استطرد فصور له الخطر المحيى به ، ثم قال :

— . . . فاجمل لى الطلب بدمك إن قتلت . . .

— هذه لك .

نخرج وكأنه ليس الرجل . . . ومر فى طريقه بالمسجد على بضعة من

الصحابة فيهم على وطلحة والزبير . وكان قد ارتدى ثياب سفره وتقلد سيفه ، فلما لمحهم تربث برهة ، وانكأ على قوسه ، ثم راح ثانية يحذرم إن أصفوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب أن يسلبوها . وبدأ في هذه المرة أكيس منه في سابقتها فألبس وعيده ثوباً ناعماً من الرقة حتى كان كمهده يجمع إلى الشدة لطف الحديث . وانتهى كلامه لهم بأن قال :

« . . . إني قد خلفت فيكم شيخاً ، فاستوصوا به خيراً وكاتفوه . . . »
وتبعته الأعين وهو يبتعد . لم يكن هو حقاً نفس الرجل . . . إنه الآن محوط بهالة من السهادة ، وبطيف من الرحمة حتى أوشك أن يظهر بما لم يكن فيه . . . وقال على لمن حوله وبصره لم يرتد عن هيكल الراحم الرحيم :

« . . . ما كنت أرى أن في هذا خيراً . . . »

أفعنى أنه لبس لبوساً لا يوائم حاله ؟ . . . من يدوى . . . ولكن الزبير بدا كن استهوته هيئة صاحب الشام وألقت في قلبه شيئاً من المهابة له ، لأنه أجاب :

« لا والله . . . ما كان قط أعظم في صدرك ولا في صدورنا منه الغداة . . . »

وانطلق معاوية . . . كان حقاً غيرة من قبل . على الأقل لاح هكذا في عيني نفسه بعد عيني الزبير وعيني عثمان . الأطماع التي كانت يتلمع أمانه دائماً عند حد الأفق كادت أن تلمسها أناملته الآن . . . إنه برز إلى الصف الأول بين صحب الخليفة وقام على رأسه . . . وتقدم قريشاً كلها بعد أن جرح ولأء شيوخها لعثمان وفيهم أهل السابقة والشورى وخيرة المهاجرين . . . وأصبح سيد أمراء الدولة وأكثرهم غيرة على سلطان سيده وعلى سلامته . . . ثم جمع إلى هذا كله السبق على أهله جميعاً وقد بات من بينهم المنفرد بولاية دم عثمان . . .

أجل إن الأطماع الآن أوشكت أن تنقبض عليها كفاه . . . وفي طريقه

إلى الشام لعله استذكر هذا وراح يحيله في ذهنه . وانطلق به الراكب إلى مقر إمارته وهو جد سميد . وكلما ألقي عينه على بغلته تحته وهي تحب به استشعر الرضاء والطمأنينة . . ما كان ليحلم أن تسير الأمور بتسل هذا اليسر وهذه السهولة ، وما ظن مطلقاً يوم غادر دمشق أنه سيدخل المدينة بحال ثم يفادرها بغير تلك الحال . لعل نجمه إذن أوشك أن يبرغ ، وأن يعلو لامعاً في سماء الحظوظ حتى يكسف غيره . لعل الزمن أخيراً شاء أن يسير سيره المرفوب وأقبل بمدنحوه يده . لعل نبوءة كعب صدقته ، فكعب كما علمه صادق النبوءات . . ما كان أقرب هذه الذكرى منه ، وما كان أحبها إليه . . إنه لن ينساها . لن يستطيع هذا ولو راض نفسه على النسيان ، ولو مضت أيضاً على قصتها أحقاب . وإنها لجديدة أبداً في ذهنه ، ثابتة لا تكاد ترحه ، تراوده في كل لحظة كلما التقت نظراته على بغلته الشهباء

وانقرجت شفتاه عن رضا واطمئنان ، والراكب يسير ، وموكب أفكاره أيضاً يسير . وكر ذهنه وثيداً إلى الذكرى الحبيبة وإلى القصة العاطرة التي أصبحت الآن رفيقة سفره . ولم يكن اليوم ببعيد . إن هي إلا أيام قلائل تقضت على الساعة السعيدة التي أطلعها . . وإن هو إلا نفس المنظر الذي يحوطه الآن . . ركب كالركب ، وقافلة كقافلة تضرب في لجج الرمل ، ورنه حاد لها صدى في هدوء الصحراء . . كان إذ ذاك في ركاب عثمان العائد بهما إلى المدينة بعد الموسم حين رجز ذلك الحادي الجريء بصوت حنون :

قد علمت ضوامر المطي وضميرات عوج القسي

أن الأمنير بعده على وفي الزبير خلف رضى

وطلحة الحامى لها ولي

وانتفض معاوية . إن شيئاً خشناً كالشوك أوشك أن يمس قلبه ، ولفحة مسمرة كالنار مرت به . ولكن رجلاً بالراكب أفاء عليه في لمة عين هدوءه ، وأسبغ الطمأنينة حين هتف بالراجز في نبرة رصينة :

« كذبت ! . . . »

فاستدار معاوية يلتفت إليه . هذا هو كعب . وهذه أصبعه تشير نحوه . وهذه
كلته الهادئة تتم الحديث :

« الأمير بعده صاحب الشهباء ! »

فكأنما كان لنطقه مثل السحر ، رفع الكف الشائكة عن القلب وأبعد عنه
لسع النار . . على الأثر تغيرت هيئة أمير الشام ، وأشرق وجهه ، والتمت عينه
راضية فرحة وهو يلتقي بها في جلال وهدوء على الدابة التي تخب تحته . . على
بغلته الشهباء ! . .

٢٢

عام انقضى أو أوشك والحال هي الحال . الشكوى باقية ، والأمير ساكن ،
والشعب يكاد أن يحتويه الاضطراب . الشام وحده هو الفارق في الهدوء .
وحاكمه وحده هو التقرير ناعم البال وإن أيقن أن سيده يجلس على بركان .
والكوفة لم يقر قرارها بعد . إنها وإن احتلبت بعض حقها عنوة وهنأت به ،
إلا أنها ظلت بضعة أشهر أخرى تتوقع الزيد . هي حقاً نصبت عليها من ترضاه
وزعت عنها صلف الفتى القرشي سعيد بن العاص . ولكن هذا ليس كل
ما صبت إليه . إن في آمالها بقية تنتظر التحقيق . وفي شرهة المساواة سطوراً
كثيرة طلت مطموسة لم تظهرها براعة عثمان . كم أبلى أهلها في نواحي فارس
وأثخنوا في أراضها ، ثم عادوا وعلى أكتفهم الدسر وفي ركبهم الفنائم من سبي
وأسلاب ، ففازوا منها بنصيب ، وفاز بالانصبه غيرهم من القرشيين الذين لم
يهزوا رجحاً ولم يرفعوا قدماً من مكان لمكان . وكانت مصر أيضاً شاكية ، أبى
حظها أن تهناً بمثل هذا القليل الذي وسع أختها أن تناله ، وظلت مغفولة الصدر
في كنف ابن أبي سرح . وبقيت البصرة هي الأخرى قلقة ، ترقب نافذة العبر
قليلة الحيلة أن تطلع عليها شمس اليوم المأمول . .

ولكن شهوراً طويلة مضت منذ اجتماع العمال لم تسر في ركبها بشرى واحدة بقرب انتهاء فترة القلق والانتظار . الأيام لها على النفوس وقع . والليالي بطيئة راكدة نجر في أعقابها مثيلات لها تعبي الصبر وتوهن التريث . الوقت كله متخاذل ، يزحف كما تزحف سلحفاة . طويل كهيبته في عين مسهد طرف نبا به الفراش . شديد الوطأة ثقيل كوقعه على مريض .

كان الزمن هو العدو الذي ضاق به الناس ، وحاصر جلدتهم حتى أوهاه ، وعاش بهم في ظل حياة سقيمة مملولة هي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة . ولقد وسعهم في البدء أن يصطبروا ، وأن يتلبثوا به ويلاينوه . ولكن فترة الترقب كانت طويلة العمر ، بدت كأن كانت بغير نهاية . وموالة الانتظار لا تأتي بخلاص وإنما بانتظار جديد . والتريث آفة توشك أن تورث النوم فكفى الشعب الآن ما اقتظر وما نام .

كذلك انتهى الرأي إلى وجوب العمل ثانية ، ووجوب الإسراع فيه هذه المرة والحرص على استخلاص نتائج حاسمة منه . إلى هذا انتهى رأى الناس في الأمصار وماهدوا نفوسهم عليه . حتى في الكوفة استطاعوا أن يجحدوا أسبائاً ، بعضها تقسى والبعض مادي ، دعيتهم لمشاركة إخوانهم الآخرين ، وكانت الرسائل ترد دائماً إليهم فيها علامة التذمر والخطوط التي رسمت لإبرازه ، ثم ترد عنهم مثيلاتها عبر حدودهم لكل الجهات . وكانت طريقة ربط كل بلد بغيره دقيقة غاية الدقة ، منظمة أتم نظام ، قد أشرف عليها أناس وكاوا بهذه الشؤون فأحسنوها . أما رأس الحركة الذي دبر كل الأمر فرجل موهوب ، شديد الذكاء ، مالى الهمة حتى لا ينأى عن غايته أو يغفل عنها لحظة . . . إنه ذلك اليهودي الأسود ابن سبأ . الذي فرع البلاد الإسلامية كلها من الجنوب حتى الشمال ، ثم استقر به قراره بمصر فأقام بها يمهّد لبث عيونه وأنصاره بكل قطر ودرب ودار . هذا الداهية استطاع أن يقرأ خلجات الأنفس فدبر أموره قبل أن تنطلق من عقالها أعمالاً تبدو للأعين أو أقوالاً تلفظها الألسن .

عرف ابن سبأ أن الناس داورهم زمنهم حتى أيسوا من خليفتهم وبرموا
 بإمهاله أكثر مما مدوا له في حبل الإمهال . وأن أفكارهم هفت ثانية إلى
 الأمير تعاود المناذاة بالعدالة . وأنهم موشكون أن . فموا إليه ظلمات دعاهم
 أن يثبوه إياها عامهم السالف فأرجأوا رفعها طمأناً فيما حسبوا أن سيتمخض
 عنه مؤتمر المال . . . عرف هذا فكاد أن يراهم بعين التصور منطلقين من هنا
 أفراداً ومن هناك جماعات ، لا تجمع بينهم وحدة العمل وإن جمعهم وحدة
 الغاية . يأتون الخليفة متفرقين ثم ينفضون عنه ثانية متفرقين بعد وعد منه
 أو بعد وعيد . أفليست هذه إذن هي اللحظة التي ترقب شيخ السبابة حلولها
 أعواماً ؟ . . هل ثمة فرصة خبر من هذه يوشك أن يسفر عنها الزمان ؟ . .
 أو لم تكن بعد ساعة الصراع التي تربص بها الرجل طويلاً ورتب لها طويلاً
 بغير وني ولا إمهال ؟ . . إنما الأجدى على دعوته ألا يدهمهم يذهبون هكذا ،
 متفرقين ضائعي القوى من التفرق ، إلى الموسم حيث تبتلعهم أفواج الحجيج .
 بل الأجدى على دعوته الهدامة أن يرسم لهم خط السير وساعة التجمع وخطة
 العمل ليفجأوا الشيخ في المدينة قبل أن يبرحها إلى البلدة الحرام .

ما كان أقصر مرمى عين عثمان إذ ذاك وما أشد بعصره كلاله ! ، ليكاد
 ألا يرى لأبعد من قيد يده . إنه غاف عما يحدث خارج نطاق بلدته ، غافل
 عنه ، وحتى ما دار بالمدينة كان يراه بعين سواء . استمار دائماً أبصار حاشيته
 لينظر ، وعقولهم ليفكر ، فلم ير الخطر إلا حينما رأوه ، ولم يبادره إلا بأكرمهم
 وأيديهم . كل ما يشغل همه اليوم رجل واحد ، واحد فرد من الرجال ملائمة
 سمعه وبصره وآفاق تفكيره . حياته كلها امتلأت به . إن سار لقيه ، وإن
 أصفى سمعه ، وإن تلفت رآه . كأنه الصخرة تسد طريقه ، وكأنه الهزيم
 يؤذي أذنيه . وكأنه وهج النار المشبوبة يبدو له وإن أغمض دونه عينيه . . .
 ألا فما بال هذا الكهل الحسن المظهر لا يكاد أن ينأى عنه . ليوشك أيضاً
 أن يفسد عليه ليااليه كما أفسد أيامه ! ، وإنه ثابت في خاطره أبداً وإن غاب

عن لح طرفه ، كل من بالمدينة ينطق به وينطق عنه . وكل من خارجها أيضاً كما حدثته الأخبار .

إنه فرد واحد ضاقت به حياة عثمان . هو طوائف المتذمرين مجتمعة في شخص ، وعوامل التدمير حية تسير على قدمين ، إنه المارد الذي يوشك أن يهدم عليه صرح حكمه ! ، وكلما استذكر الشيخ الماضي عجب للصورة القديمة التي كان عليها إذ ذاك هذا الغريم . كلما ألم فكره بناحية من نواحي شخصية علي إبان صباه الأول ، وإبان شبابه ، وإبان رجولته ، لم يملك إلا أن يتهم هذه الصورة الجديدة عنه ، التي رسمها له مروان وأعوانه . ليكاد صاحب الأمس أن يكون غير غريم اليوم ، عهده به من قبل عنواناً على المروءة ، سباقاً إلى النجدة ، يسارع بيده ولسانه وقلبه إلى نصرة كل ضعيف مظلوم ، وإن الخليفة لمظلوم تجنى عليه قومه . فإذا ياترى أقعد ابن أبي طالب عنه ؟ ، بل ماذا عسى قد دفعه إلى مظاهرة الناس عليه ؟ ، أفهو الآن آثر أن يخلع ثوبه القديم فبدا على غير ما كان ، أم هي صورة شائبة زيفتها حاشية عثمان ؟ .

ولكن الخليفة لا يسمعه اليوم أن يستجيب للماضي أو يهدأ له ، ليس له بعد ذهن خاص ، ولا فكر محرر ، ولا عين ناقدة تنفذ إلى الحقائق التي سترت عنه . إنه أنس إلى طائفة من أهله أمدوه بالعين وبالرأى . إنه لا يرى من الناس إلا أنهم خالفوه . ولكنه لا يرى أن أسباب الخلاف كلها مبعثها منه ، وعلاجها كلها موكول إليه . لقد أراد مشيروه الثقة على الرؤية فرأى ، ثم أرادوه على ألا يعمل فلم يعمل . أجل لقي الفتنة الوشيكة التسمر بالسكون والجود ، ولم يحاول مطلقاً أن يمنع عنها الوقود الذي أرسدها مشبوية . أو لم يحاول حقاً ؟ ، بل علم أن أعوانه أشاروا له على ذلك السكهل الخشن المظهر وقالوا : إن هو إلا مؤثر النار ! .

السياسة العثمانية إزاء الفتنة الناشبة كانت مغالطة مرة . في تلك الأيام هذا الشيخ كالنعامة لوت رأسها عن الخطر الداهم ثم حسبت أنه لا خطر

على الإطلاق ! . كذلك فعل عثمان . وأغمض عينيه عن الأحداث حتى نام .
ورضى لنفسه بالخطة التي أشار بها أعوانه والتزموها حيال الخطر النامي فتجاهله
ولم يأخذه بالعلاج الناجع السريع . في اعتقاده أنه لم يكن ثمة خطر من ناحية
الناس لأنه لم يكن وحكامه يقرون بحق الناس في النقد أو إبداء الآراء .
فلما أن جاءه الخلاف من كل صوب ، وتكلم الناس فيه بما يشاءون ، أصبح
يرى أن هناك امراً واحداً يستطيع أن يملك ألسنتهم لأنهم لا يسمعون إلا له .
فإذا تركهم على وشأنهم يتعهدون فقد قصر إذن في حق الخليفة عليه . وإذا
ظاهرهم وأيد عنده مظالمهم فهو الذي يجنى وحده الثمرة التي يوشك أن يتمخض
عنها هذا الخلاف ! .

بهذه النظرة المجيبة كان عثمان يرمى ابن أبي طالب ، ولا يبنى يضع تحتها
كل حركة يأتيتها أو كلمة يسوقها من أجل خير ممنوع يود أن يقيمه أو شر قائم
ينادى بهدمه . ما من مرة مشى فيها إليه إلا سبق إلى ذهن الشيخ أنه رى
إلى كشف ناحية ضعيفة فيه ، وهتك الستر عن نقص كان هو يجهد أن يستره
عن عيون أمتة . ولو أن فكر الخليفة استقام حق استقامة ، ونظرته إلى
الأمور كانت فقاذا بعيدة ، لوسعه أن يفتح صدره للنقد ويقبل عليه ، ولكن
سوء ظنه كان يغلب فيه الحكمة ، والتوجس من المكافة الشعبية التي نعم بها
على بين الناس كان مغرياً له بالحذر منه . ولم يكن على وحده هو المصطفى بنار
النفور التي أججها الشيخ ، ولكنه كان من بين صحابة رسول الله أولام
بالاصطلاء لأنه أولام بولاية الأمر عند الاقتضاء .

وكذلك عاش على هذه الفترة الصاخبة من عهد عثمان كالعربة يتجاذبها
فرسان ، واحد من جهة وثنان من أخرى . فلم يستطع مطلقاً أن يوفق بين
رغبات الشعب وبين سياسة الأمير ، وأصبح بين إن سكنت متهماً من الأمة
بالتقصير في أداء الواجب الذي وكلته إليه ، وإن تكلم متهماً من الخليفة بمهالة
الناس وتحريضهم عليه ، وليس له للجمع بين الفايقين من سبيل .
لقي ابن عباس معاوية وهو بالمدينة أثناء اجتماع المال ، فأقبل عليه هذا

يقول كاشفاً عن رأى بقية أهله وفيهم عثمان :

« يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم في زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظلمناكم ولا قهرناكم ولا أخرجناكم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم فسبق إليه صاحبكم . . . فوالله ما زال يكره شركنا ، ويتغافل به عنا ، حتى ولى الأمر علينا وعليكم . ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه . ثم غير ، فنطق ونطق على لسانه . . . لقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء . . . » .

أبالدم إذن استطاع الإطفاء . . . ؟ معاوية وحده يستطيع أن يفسح عن هذا وإن كان في هذا المقام أثر الإخفاء . . . ومع ذلك فهل بغير هذا الخاطر جرت أفكاره تلك اللحظة التي أدل فيها بمكانة قومه وعزتهم قبل ظهور الإسلام ؟ إن هذه السلالة التي أنجبته جديرة بأن تنسى كل شيء ثم لا تستطيع مطلقاً أن تنسى أن سلالة أخرى بزتها أمام الناس — سلالة جاء منها هاشم وجاء محمد ، وجاء على الذي حسبه اليوم يحاول أن يغلبهم على السيادة التي غلبهم عليها سلفاه .

والتقى إليه ابن عباس بالمرء الهادي المتسامح الذي يزرى بكل تفاخر واعتزاز .

« كنا كما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه . . . فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين إن أقننا متهمين ، أو نزعنا معتبين . . . وصاحبنا من قد علمتم : والله لا يهجهج متجهج إلا ركه ولا يرد حوضاً إلا أفرطه . » .

لكأنى بهذه الأسيرة لا تنى تشكك في منافسيها وفي رأسهم على الخصوص . ولكأنى بعثمان قيلهم وقد علم فيهم كان الخلاف بينه وبين علي لا يكاد أن تطمئن نفسه إلى علي ، ولا إلى النصيح الذي أولاه إياه . . . إن

سداً هائلاً من سوء الظن وقف بين الرجلين ، وخاطراً بفيضاً لقنه الشيخ افسد عليه أمره ولطخ صورة صاحبه القديم بالآثام . ولقد كان عثمان بتكوينه النفسى وتقدم سنه حقيقاً بأن يعيل عن عقله لظته ، وأن يجنح إلى الوشايات التى لفقها آله ، وأن يجمع وإياهم فى الخشية من على والاضطغان عليه . فلقد كان الوائى والسامع كلاهما من فئة أتاها زمنها بخير حسبت أنها عليه محسودة . وكان ذلك الموشى به من أخرى غمطها الزمن حقها حتى حسب أنها مورتورة . وكان هذا إجماع الراى الذى آمن به الخليفة ودفعه نسبه الأموى قبل أى عامل سواء إلى الإيمان به . . . لكأنى به لم تطب نفسه لأسباب الخلاف التى عرضها عليه على ، ، فأثر أن يستكنه الحقائق من لسان هاشمى سواء عسى أن تبدر فى الحديث بادرة يعرف منها الدوافع الخفية .

قال ذات يوم لابن عباس وهو يقلطف به :

« يا ابن عمى ، إنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شيء أحببه ولا أكرهه . على أو لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنحك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر .. » .

فما أعجب أن كان الجواب خلاصة رأى على الذى أدلى به إليه من قبل .

قال ابن عباس :

— يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتنى بمد العافية ، وأدخلتنى فى الضيق بعد السمة ، ووالله إن رأى لك أن يحل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك . فوالله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ، فلم يكونا احق يا كرام نفسيهما منك يا كرام نفسك ..

— فما منعك أن تشير على قبل أن أفعل ما فعلت ؟ .

— وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ .

فصمت الشيخ . لا جديد إذن عند الرجل ولا حقيقة خافية كشف عنها حديثه ، وإنما الموقف كما كان . وأسباب الخلاف على عهدنا الأول تلوح كالماء لقاطع الصحراء ، بعيداً عن حد الأفق حتى ليحار أهو سراب خداع أم هو حقاً ماء .. ولقد بدا من بعد أن عثمان أبلى قدميه في ابتغاء السراب ! ..

أجل . أولى الشيخ ظهره للحقائق السافرة وعنى بالتماس غيرها في نفسية على .. وظل هكذا أبداً ، مخطئاً أبداً ، ومتجنباً على هذه النفس الرائقة التي لم يكن لها من هدف إلا صلاح الأمة بصلاح عثمان . ولكن أمير المؤمنين لم ير الماء لأن أهوانه حولوا عنه نظرتة ؛ وأطلقوه يبحث عنه في سبيل مضاد . ووسعه مرة أن يجمع أنفاسه ، وأن يهيب بشجاعة قلبه أن تحمله إلى على يحدثه بشكه فيه .. وكان هذا قد انتهى ركناً بالمسجد بعيداً عن الضوضاء ينفرد فيه بوجهه ، وقد عصب رأسه ؛ وبدأ على ملامحه وهن المريض .

وقال له عثمان بصينة ، قد لا تحمل معنى من المعاني في غير هذا المقام ، وإن أوشكت أن تسوق الآن معنى الشهامة إلى ذهن شاك عليل :

« يا أبا الحسن . ما أدري أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ! .. » .

فلمل علياً تلقاء إذ ذاك ينظرة استغراب . ولكنه على أى حال لم يقل شيئاً . بل أنصت في هدوء إلى بقية الحديث .

واستطرد عثمان .

« . . والله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفاً . ولئن بقيت لا أعدم طاعياً يتخذك سلفاً وعضداً ، ويعمدك كهفاً وملجأ ، لا يمنعني منه إلا مكانه منك ومكانك منه .. فأنا منك كالابن العاق من أبيه ، إن مات فجعه ، وإن عاش عقه .. » .

أ كذلك عني الخليفة أن لا لوم عنده لابن أبي طالب ، ولا نقمة لديه منه ؟ .. أهو حقاً قد خلت نفسه من شك فيه ، ومن موجدة لعل هذا الشك أوردته إياها ؟ .. أصفحة على مازالت نقية صافية في نظر عثمان لم تشبها

شوائب الريب التي ولعتها الوشايات ؟ .. لولا أن الشيخ أضاف على حديثه بقية لحسبنا هذا . ولكنه ما لبث أن أفصح عما انضمت عليه جانحته ، فأردف كلماته اللينة — التي لفها بثوب من الجمالة رقيق شفاف — بهذا الاتهام الصارخ والتحذير العنيف الذي كان له في النفس البريئة النقية وقع أشد من ضربة سيف الاتهام .. قال :

« .. إما سلم فنسلم ، وإما حرب فنحارب . ولا تجمعني بين السماء والأرض .. إنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً .. ولن يلي أمر هذه الأمة باديء فتنة .. » .

وأطبق الصمت الثقيل على الرجلين . لفترة بدت دهرأً كاملاً لكليهما ، ظل على يرمق صاحبه في سكون . في جيئته بوادر عبسة أخذت تتجمع كما تتجمع سحاب عاصفة في يوم شات . وفي نظرات عينيه التي ارهقها التعب بدا لهب هائج سمره الغضب ، وفي صدره الضخم اضطرب قلبه حتى لأوشك أن يقفز منه .. هيئته توحى بثورة محتاحه . وكيانه العليل العاني انقلب قوة وفتوة . وهيكله الراكد الهامد مشى فيه تحفز ليث .. ولكن هذا كله كان لفترة ، فترة لا تكاد تحسب بالدقائق وإن لاحت دهرأً كاملاً في حساب التوجس والانتظار . ثم مسحت يد السكون ثانية عليه ، وعاد الهدوء يشمله . وانطفأت شعلة النار من ناظريه وتبعثها لمعة نور .. بدا الآن وديماً كما كان ، رائق النظرة ، تكاد أن تفيض كلماته بالركة لهذا الشيخ القائه عن الحقيقة ، وتمتليء دنة حديثه بالرثاء له وهو يقول :

« .. إن فيما تكلمت به لجواباً ، ولكنني عن جوابك مشغول بوجعي . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .. » . وبهت عثمان . وتمم مروان على الأثر بكلمات . ولكن علياً أثر أن يغادر المكان . . . لا جدوى بعد من وراء الجواب والعتاب . . . لا نهاية لهذا الأمر كله وقد بلغ اضطغان النفوس عليه غايته . وإنما الجدوى في

البعد عن ميدان هذا الصراع وفي التأني بنفسه عن المد والجزر اللذين يشيرها دائماً عثمان والناس . لعله إن غاب خفت اللفظ عنه ووقف السمع إليه . . إنه ليعلم أن الأمة وثقت به ولن ترضى لها بلسان ناطق بشكاواها إلاه . ولكن غيابها قد يخفف من خلافها نوعاً ، ومن تدميرها نوعاً ، أو في القليل سيقهرها على أن تضم جوانحها على مشاعرهما وتصبر زمناً على المظالم . وإنه ليعلم أن ضميره المرهف لم يألف الصبر على حيف . وأن قلبه المشغول بالتماس الكمال سيزيد من همه صمت لسانه عن المناداة بالعدالة . ولكن بعده عن المدينة قد يرى عثمان الحال على حقيقتها فيجفع إلى إرضاء الناس .

وكذلك خلف على داره . وخلف جوار محمد وهو حزين مقهور . ولقد كان انصرافه من البلدة عبثاً مرهقاً لأعصابه ، غير أن مكثه ليس خيراً منه . فليس اتهام عثمان بأول ماسمع ولا نأماً إلى سمعه ، وليس بآخر مافي جملة الاتهام أيضاً . . وانطواؤه ببعض ميساهه خارج المدينة فيه إخلاد إلى السكينة نفسه الآن أحوج إليه ..

ومع ذلك فهل نعم بهذا الهدوء طويلاً ؟ . لكأنه رجل ولد والتعب في زمان ومكان . . قل يغز مطلقاً بالقرار ، ولم يعرف مطلقاً راحة الجسم أو راحة البال . بل مضت حياته كلها من بعد حلقات متواترة من الحركة الدائبة والكفاح المرير . . حتى في خلوته تلك كان أيضاً نهياً بين الرعية وبين الأمير ، لآتمضي أيام ثم يجيئه وقد يخرجونه ليكلم عثمان ، ثم لآتمضي آخر حتى يأتيه رسول ليفض أناساً عن دار عثمان . وهو بينهم وبين خليفهم ماض أبداً بالشكاية والوعيد ، والشكايات دائماً بلا نهاية . والوعود دائماً بلا قضاء ، وإنه بعد هذا الموم من كلا الفريقين كأنه يملك وحده أن يكلم الأفواه أو يحقق الشكاة ! . .

ثم جرى الزمن جريه ، وأقبلت الساعة الرهيبة التي جهد الرجل منفرداً لردّها عن الإسلام ، وبذل من لسانه وقلبه وأعصابه ماملكت حتى لا تصبح أمته . . ولكن جهودهم راحت مع الريح ، وما هي إلا أيام فلائل ، ثقيلة كأعوام ، حتى ينطلق سيل الأحداث ، قاسياً رهيباً ، يقتلع ما يعترض طريقه من سدود وحدود .

حصاد الفتنة

إنها ليلة في الشتاء قارة ، خاصمتها الرياح ، ومشى البرد في ركبها السارى
تحت عين النجم . كانت باهتة الظلمة وإن أوغل الزمن بالساء ، لكأن لون
الثرى انعكس على صفحة الأفق السوداء فأكسبها لوناً ، وكأن السماء تبسم
من عل للرمال الوسنى ولكنها بسمة لا تحمل خفة الكواكب الزهر ، فيها
صفرة وفيهسا مرارة ، ليست ثنى البهجة وإن غدت بلمحة نور . . . وكان
السكون على الأرض كالسلام وإن أوحى إلى النفس أحياناً التوجس . مهيب
تارة وقارة رهيب .

صفاء كأنه غيوم ، وهدوء كأنه مرسوم . . الجفون مشقة على حذر ،
والقلوب منظوية على اضطراب . . والقاق يكاد أن يشيم في الجو كهذه الحبات
السافية من الرمل كلما حركتها نسمة فارقها النوم . إن شيئاً مجهولاً يزحف مع الظلام ،
خافت النائمة كأنه حية ، لا يننى يسرى مع الليل إلى الصدور فيلمس الأفتدة
بأصابع مثلوحة . إن هائفاً يكاد أن يهمس في آذان القوم ، الرقود منهم
والأيقاظ ، له في أسماعهم رنة نذير . والأولى أغمضوا العيون دونه عاشوا به
في كابوس ، والأولى انتبهوا باتوا منه كمن جاس بظلمل ، فريسة لخوف خفي
لا يعرفون مأتاه .

ليلة صفوها طلاء ، وحشوها بلاء . . قضاها عثمان على هم ، وقضتها معه
نخبة أعوانه وخلاصة مشيريه وعمت خشيتها دار الإمارة كلها والمدينة من
بعد . إنه حدث ليس كمثل حدث ، وفتنة توشك ألا تكون بعدها فتنة .
ليكاد الناس يؤمنون أنها النهاية ، ويكاد الأمير أن يوقن أنها المصير ، عند ما نزل
به رسول ابن أبي سرح منذ زمن قريب ، لم يحسب الشيخ أن الخطر بهذه
القرة . . لم يسيء أبداً الظن في الناس إلى هذا الحد . . لم يوف به حدسه
على مثل هذا التدبير الخطير ، كان دائماً رجلاً سمحاً ، رحيب القلب ، نفسه

لم تعرف السواد ، فظن الناس على شاكته . . ولكنهم بدوا الليلة من معدن مغاير ، طلب العدالة وحده ليس غايتهم ، بل الثأر . . منه هو جاءوا يطلبون القصاص ! . .

وكان الفجر يوشك أن يسفر والرجل جالس يفكر . . إن عماله حقاً لم ينصروه . . إنهم قصرُوا في أداء واجبهم فأساءوا إليه بهذا التقصير وإن تمنوا نصره . خانوه . وهل التقصير هكذا إلا خيانة ؟ . قد كانوا جميعاً أثيرين عنده ، رفمهم على هام الناس ، وقدمهم حين آخر من عداهم من خيرة المسلمين ، وكانت له فيهم ثقة تامة لا يشوبها شك ، وبقتدرتهم إيمان راسخ عميق ، وبمصدقهم في سياسة شؤون الدولة يقين ثابت ، فليته علم قبل اليوم أنه كان مخدوعاً فيهم فنظر إليهم كمنظرة الأمة ، لو أنه سائر الشعوب العام نحوم لكان نحاهم عن مقاعدكم ولكان جنب نفسه هذه الأزمة ، ولكنه ظل متعلقاً بهم أيداً ، رابطاً مصيره بمصائرهم وها هو يرى الآن كيف كانوا أكفاء ! .

أئمة حاكم ، يقدر تبعته ويعلم واجبه حق علمه ، يعرف أن نفراً من رعاياه أرادوا شراً برئيس الدولة ثم لا يهتم بهم ويذرهم عنه ؟ . عبد الله ابن أبي سرح كان ذلكم الحاكم ، علم أن قوماً من المصريين ممن عرفوا بشدة العدا لعثمان دبوا أمرهم فيما بينهم على شرميت فسكت عنهم ، كل ما فعله أن أرسل من لدنه رسولا للخليفة يخبره بنبأهم ، ويقول إنهم أظهروا الرغبة في الحج والعمرة ، ولم يكونوا بضعة تفر يستطاع أن يؤمن جانبهم وإنما كانوا عدة مثات .

وخرج الثوار من مصر بمجموعهم المجيشة ، ومشى في ركابهم زعيم خطير لهم يشيعهم حتى عجزود . . لقد كان سير هذا الزعيم وإياهم خير كاشف عن الغرض الذي اضمروه ، فلم يكن مجهولاً عداؤه لعثمان . ولا حقه البالغ عليه وإن كان قريبه وولى نعمته ، ولكن ابن أبي سرح حاكم لا يعرف تبعته ، ولا يقدر عظم المهمة الملقاة في يديه ، وكان فيما يبدو واهن العزم

شديد التردد ، ولو أنه كان في شك من المهمة التي أرادوا الاضطلاع بها لكان شكه وحده موجبا لحذره منهم ونحوطه للأمر قدر وسعه ؛ وللمره أن يقطع شكه فيهم ييقين ثابت ما دام قد عرفهم من أعداء سيده . ولكنه كان شديد التردد ، يضطرب عند التوازل وتعوذه القدرة على الجسم .

وكذلك خرج أولئك وأكثرهم من السبائية ، تحت أنه وعينه ، ومضى في ركبهم محمد بن أبي حذيفة حتى ودعهم بمجرود ، ومضت جموعهم الهاشمية صوب الجزيرة كالسيل المنحدر . . . أما ابن أبي سرح ، فقد كان يعلم أنه مامن شيء يعصم عثمان عنهم لو أنهم أرادوه . . . ليس هناك جيش يحميه ، ولا أعوان أعزاء الجانب يحيطون به عند الخطر ، وليس له جدار منيع بمقامه في المدينة لأن العبدان والموالي فيها ينقمون منه ومع ذلك فحاكم مصر حسب أنه بلغ الحكمة كلها حين أرسل إلى الخليفة يعلمه بالأمر . . . وخرج رسوله في أثر القوم ، واستبق دونهم الطريق إلى المدينة يركب البید إحدى عشرة ليلة طويلة في الشتاء ، لا شيء إلا ليحمل عنه كتابا إلى سيده منتهى ما فيه :

« إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه ، وقد خرجوا وهم يظهرون العمرة ، وشيعهم محمد بن أبي حذيفة حتى عجزود » .
وتوجس عثمان ، واضطربت نفسه ، فقد وضح أمامه الأمر كله ، ولم يملك إلا أن قال حين جاءه الرسول :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ . والله ما أراهم يريدونها . . . ولكن الناس قد دخل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى . . . أما والله لئن فارقتهم ليقمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكه »

ولعله عجب من هذا الجهد الأتبر الذي تكلفه ابن أبي سرح حيال أولئك الخارجين ، فراح يتناول الأمر بيديه ، ويبادره بالعلاج الذي وسعه . . .
بعث إلى من بمكة يحذره الفتنة التي حسب المصريين يوشكون أن يشوها

فيهم . ثم رد رسول عامل مصر إليها يأمرها أن يتعقب الثائرين .

ولكنها مبادرة كان أوانها قد فات . لقيت تدبيراً ضيقاً وخطة محكمة .

فلم يذهب المصريون إلى مكة . ولم يستطع ابن أبي سرح رغم مسارعته أن يلحق بهم في الطريق ليردهم عما أرادوه لو أنه شاء ، بل هو في الحق لم يكن قد تهيأً للملاقاة بعدة تخضمتهم . وكان من سوء إدراكه للأمور حتى بدا كأن قد خرج إلى نزهة ! . . . لو أنه تلقى المسألة باحتفال وجد لدبر الأمر قبل خروجه ، ولأعد قوة محبته يستعين بها على رد جموع الثائرين أو مناهضتهم في المدينة إذا سبقوه إلى الخليفة ، ولكنه نسي في هذا الوطن الجدير بالتبصرة والحكمة أنه كان ذات يوم رجل حرب علياً بما يتطلبه الكفاح والجلاد . ومضى في سبيله لا يتعرف مواطيه قدميه ولا ما هو مقبل عليه . . . فلما كان

بأيلة فجأته أخبار مروعة : جاءه من مصر نبأ بأن محمد ابن أبي حذيفة قد غلب على البلد واستعجاب الناس له . وجاءه من المدينة نبأ بأن الثوار قد حصروا فيها عمان . وأشكل عليه الأمر . وحرار أشد حيرة وقد نازح همه على الخليفة همه على المنصب المضيق . . . فإذا بلغ به الأمر حد الموازنة والاختيار فإنه اختار أن يترد ثانية إلى مقر إمارته دون الوقوف إلى جوار ههنا ساعة الهنة ! . .

نزل الثائرون قرب المدينة على مبعدة قليل منها ، ذلك اليوم في أعقاب الشتاء . ولم يكونوا زمر المصريين وحدهم ، بل كانوا أخلاطاً منهم ومن البصرة والكوفة ألفت بينهم وحدة الغاية ، وجمعهم دقة التدبير وحسن الغائب للأمر الذي هم بسبيله . واضطربت بخبرهم دار الإمارة . ووجفت قلوب فئة من أهل المدينة الذين طالت عليهم عهود الدعة والسكينة وبعدت عن فواظهم عهود الصراع . ولم يأمنوا أن يقعدوا عزلاً خشية أن يحدث ما يفاجمهم ، فراحوا يلبسون السلاح ويتخذون الأهبة لحماية أنفسهم إذا حزب الأمر . . . هذه فترة لم يمر مثلها بالبلدة منذ أيام أبي بكر حين أحاطت بها جموع مانعي الزكاة . لم تكن مهيأة إذ ذاك للدفاع عن نفسها بعد خروج جيش أسامة

للشام . وكذلك هي الآن . ليست بها حامية . ولا للخليلة قوة حرس خاصة كما استحدث بعض عماله في الأقاليم .

وضرب النازلون خياماً على حدود المدينة : ثلاثة معسكرات قريب بعضها من بعض ، لا تفصل بينها إلا مسيرة ساعات . في المروة نزل أهل البصرة ، وفي الأعوص أهل الكوفة ، وفي ذي خشب عسكر المصريون الذين كانت لهم الكثرة وزعامة قوى الثوار . وتلبثوا جميعاً قليلاً يتشاورون في الخطوة التي يجدر أن يتخذوها بعد ... كرهوا أن يبدأوا أعمالهم بالمدوان والعنف ، أو يدخلوا البلدة على أهلها عنوة وفيها أزواج الفتي وخاصة وأهل بيته ، وآثروا أن يستأذنوا حتى يقابلهم الناس بالمعطف والتقدير ... هم في همومهم لم تكن نية إيذاء الشيخ تعيش في خواطرهم وإن لاح أنها توارت في بضعة رؤوس الكبار لهم حبسوها لحين فرصة . إغما أقبلوا ولهم هدف قوامه حل الخليفة هذه المرة على الرضوخ لرغباتهم واليزول عند مشيتهم . الوعود اليوم أصبحت لا تلقى لديهم السمع بعد أن ألفوها دائماً بلا قضاء . بل أيسوا ونقضوا منها الأكف فجاءوا وفي نيتهم أن يقرروا الشيخ على النزوح عما كان منه أو يعزلوه . ووطدوا العزم على البقاء لا يرحلون حتى تأتيهم منه توبة يتبعها بتحقيق مطالبهم وقدروا أن يستجيب عثمان لهم حين تبدو له القوى التي صفوها له دون أن يطلقوها عليه ...

ومع ذلك فلم يكونوا مجمعي رأيهم على جل واحد يولونه أميراً على المؤمنين إن دعت الحال إلى عزل عثمان . بل كانت أهراؤهم شتى ، تفرقت تظاهر ثلاثة من أصحاب رسول الله هم خير بقية أهل الشورى وأول من تنجبه إليهم الأبصار عند الاختيار ... ولقد رنت إليهم أنظار الثائرين وانطلقت من معسكراتهم على البعد ترمقهم بالإعجاب والتأييد . هوى البصرة مع طلحة ، وهوى الكوفة مع الزبير ، وعلى على التفت قلوب سكان النيل ...

ولم يكن أحد من الثوار قد دخل المدينة ، ولكن الأخبار توارت

فيها بأن القوم قاتلو عثمان . ولم تكن شمة حركة تشي بالفتنة المرقوبة ، ولكن الناس تهيأوا لساعة الصرع أو لساعة الصراع . وكانت الرهبة عملاً الجو وتهيمن عليه . وكانت النفوس نهياً في أيدي قلق الانتظار ، والقلوب تأكلها اللهفة وتكاد أن تسبق الزمن إلى الغد المجهول عسى أن يسفر لها عما يخفيه ...

ثم مضى رسول الليل ، ترك ذا خشب خلفه وسار قدماً إلى دار على . وكانت إذ ذاك جامدة ، يلفها من جوانبها هدوء أقوى من الصمت . وكانت الظلمة سابغة ، بدت لفرط كثافتها كأنها فراغ . وكانت الريح ساكنة سكون الرمل ، وانية لا تستطيع أن تنقل ثامة في تلك الليلة الذاهبة في أعقاب الشتاء ...

وبدا على لطارق الليل ، معلماً بسماته وصفاته ، تكاد بشاشته أن تنطق عنه ، وتلك الهيبة التي جللت عياه تشع سحراً يجذب إليه القلوب وإن أبقى أصحابها على قيد منه لفرط ما يحسون له من رهبة . وتكلم الرسول . وتكلم أيضاً من عساهم قد انطلقوا معه إلى هذا الكهل الذي هوت إليه الأسماك والنواظر وهفت القلوب والخواطر . فما أسرع أن تبدلت البسمة التي داعبت ثغره إلى عبسة انعقدت على جبينه . وإذا كلماته قندقع إليهم حادة صخابة . وإذا الغضب يستغرق كيانه كله فيبدو لهم بأسه . لم يكن بالثائر فيقرهم على الثورة ، ولا بالساعي إلى صولجان الحكم فيتخذهم مطية ، ولكنه طراز وحده في الرجال . لا يقيس الأمور إلا بخلقه ، ولا يستعجيب لغير نداء المثل العليا التي التزم نهجها من القدم حتى أصبح هو أكلها وأسمائها مثلاً . ولعله في موقفه هذا قد تكشفت لعينيه وسائل العنف التي لا بد سيتخذها الثوار حيال عثمان ذات يوم فحرص على أن يقتل نواتها في نفوسهم قبل أن تنمو . فما كانت الكلمة الطيبة إن نطقها في مثل هذا المقام إلا إغراء لهم على السير في طريقهم الشائك ...

عنف على برسول أهل مصر وهم الذين أقبلوا من ضفاف النيل يحملون

إليه تأييدهم له . وردهم عنه رداً غير جميل . وسفه موقفهم من الخليفة حين ظنوا أنهم جاءوا إلى نصير قوى يحملهم عليه ، وصاحب أولى به أن يظهر فضيتهم التي لا تعدو في نهاية الأمر أن تكون نصراً له ... إن النصر في رأيه هو التعنف . والظفر الذي يأتيه من طريق المصيان خذلان كله وهزيمة نكراء . وما أحسبه في هذا الموطن إلا قد ذكر أمثالا له أوشك إبانها أن يجتمع في كفيه الأمر قبض دونه يديه لأنه رآه مدعاة لتفرقة شمل أمته وفتح ثغرة في صفوفها المرسوسة .

حتى هذه الرسالة السرية أباحها أيضاً - هذا الكتاب الذي بعثه إليه من مصر محمد بن أبي حذيفة - رفض على أن يحسك به أو يظهر على مافيه حيناً امتدت به إليه يد الرسول ... لود طارق الليل إذ ذاك لو لم يعموه في مهمته . لأوشك أن يؤثر بطن الأرض على مكانه الآن أمام هذا الرجل المثالي العجيب . تجمع الدهر كله عليه في لحظة ، وغلبه الخزي حتى جرد جسمه من الحركة ... وحينما استطاع في النهاية أن يبرح موقعه ، كان كأن قد ولد من جديد . ومضت قدماء - كقدمى مولود يدرج في مهده - تصارعان موطنه . وتبدأ بان به ليكون بعيداً عن تلك الدار ... وكانت دهشته تفرمه - العجب من هذا الكهل الذي يأتي أن يأخذ الثمرة المشتهاة إذ قدمت إليه وغيره من الناس يجهد كل هممه ليقطفها وإن قطع من أجلها سبلا شتى مليئة بالدماء والأشلاء ! .

كان هذا الموقف لعل ضربة قاصمة للأهواء والمطامع التي أخذت في ذلك الأوان تلعب بنفوس كثير من قادة الرأي وزعماء المسلمين . فهي سابقة لها أثرها . وخطة للعمل إزاء الثوار رسمها هو ولا يستطيع غيره من كبار الصحابة المرشحين للحكم إلا التزامها بدقة أو يشيروا على أنفسهم لنقط الاتهام بالمساهمة في الفتنة . قطع على الطامعين طريقهم وحصرهم في مكان واحد لا معدى لهم عنه هو مظاهره عثمان ومخالفة أولئك النازلين على حدود المدينة . وأصبح حتماً على كل رجل منهم يرى لنفسه حقاً في أن

بلى الخلافة أن يعزف عنها هذه المرة برغمة . . . كذلك كانت النتائج ، وكذلك وقف الزعماء موقفهم من الثوار فساروا سيرة على ، وردوا عنهم الرسل الذين جاءوهم بقرار ما جاءوا ابن أبي طالب به ، وأصبح طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ولهما موقفان إزاء أنصارها من الكوفة والبصرة يمثلان موقفه من المصريين .

وسمع عثمان بما كان من على ورسول للثوار يستأذن عليه فارتاح وهذا خاطره . . . وأمر بالرجل فأدخل عليه ، فإذا كتاب معه يشرح له غرضهم الذى جاءوا من أجله ، قالوا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فإله الله ، ثم الله الله ! . . . إنك على دنيا فاستم إليها معها الآخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . . . واعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله رضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مبلجة . . . هذه مقاتلتنا لك وقضيتنا إليك ، والله هذيرنا منك . . . والسلام » .

فلم يزد عثمان على أن أمر بالرسول فأخرج من الدار .

غير أن الهدوء الذى اصطنعه الشيخ لم يكن وحده كافياً لاجتياز الأزمة ، بل أن الخطر من ضيوف الضواحي وإن توقف عن الظهور هنيهة حتى يرى القوم خطوة أخرى أجدى على قضيتهم من الركون إلى الأقطاب الثلاثة ومن ترك مهمة التوجيه فى أيديهم ، هذا الخطر بدا فى لحظة لاحقة أهون شأنًا مما ظهر من سكان المدينة . . . كان عثمان عليا بأحوال حاضرتة وبنفوس أهلها إلى أين تميل ، يعرف أنها اليوم فى يد طوائف الموالى والعبدان والعامّة التى أوغر صدرها عليه أنحيازه عنها إلى الأشراف من العرب والقرشيين ، وإنها لقوى كفيلة بأن تنمر له بعد أن زودها وقوف الثوار على أبواب البلدة بزاد

معنوى تستطيع بعده أن تظهر موجدتها على الخليفة ثم تعصف به ، وهى آمنة أن تنف لها تلك الفتة اقليلة التى ما زالت تظهر المطف عليه .

تفكر عثمان هنيهة ، واستعرض الخطر أمام عينيه ثم راح يجهد لإيجاد الوسيلة التى تخرجه منه . . . لا طالة له بقتال القوم أو أخذهم بالشدة الكفيلة بإقرار النظام وإفاعة الأمن والسلام ، إن هو توفرت له العدة والرجال فإن الجراءة لم يتوفر له . . . ولم يكن هيباً يخاف الطعان ، ولكنه كان رجلاً أفسده التسامح حتى ليتحرج أن يقيم صرح أمره على دم ، وكانت الرجفة فى قلبه تسبق الحزم ، واللين يتقدم العزم .

أدار فى خاطره الأمر كله فأبى أن يتخلى عن طبيعته السمحة فيقابل الناس بالعنف الواجب فى أمثال هذه الظروف ، بل آثر أن يعطيهم من نفسه ليناً وتسامحاً ورحمة ، وأن يبذل غاية ما يستطيع طبعه من ترفق ، فلن يلتقى قواهم المهيضة بأمثالها ، ولن يشهر فى وجههم عصا وإن هاجموا بهتاد الحرب وآلة الصراع .

على هذا قرأه ، وانتهى به التفكير إلى ضرورة فضهم عنه راضين ، ولم يكن ميسوراً أن يفوز بثقتهم فيه ، ولا بركونهم إلى كلمة يزوجها بحمل إليهم عزمه على إجابة ما يطلبون . . . إن أكداً من الوعود القديمة تنف حائلاً دون هذه الثقة ، عالماً منها برمته يفصلهم عنه . . . ولكن ساعة المحنة جدية بأن تجلو ذهنه وترده صافياً تنعكس عليه الحقائق واضحة بغير إبهام . ولم يكن ثمة من وسيلة تؤيد وعده الجديد وتمهيه قوة ينفذ بها إلى قلوب الناس إلا أن يسوقه إليهم رجل يشقون به ، له شخصية أخاذة وكلمة تقاذه إلى تلك القلوب ، ولقد نثر عثمان ذلك اليوم كنانة الرجال ، وراح يتخير من بينهم أقوام على المهمة وأحرامم بإنجازها على الوجه المطلوب . . . وأنسته اللحظة العصبية هواطته الشخصية ، وشايات أهله ، فارتد رجلاً آخر يتبلج أمامه نور الحق وهو ينزع الخطأ إلى دار على مستتراً بالليل .

والتقى الرجلان التقى المدفوع إلى الظلم بالصاحب القديم — بالفريم الجديد المظلوم وقال إذ ذاك عثمان :

« يا ابن هم إنه لبس لي مترك . وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك . وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحى . وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً ، وأنهم يسمعون منك . فأنا أحب أن تركب إليهم فتدفعهم عني ، فأنى لا أحب أن يدخلوا على ، فإن فى ذلك جرأة وليس معك بذلك غيرهم . . . » .

فتلفت نحوه على يرمقه برهة . إن شيئاً جديداً يلوح فى وجه الشيخ . عاطفة جديدة بدت إلى جوار لطفته إلى النصرة كأنها الرغبة المضطربة لإيقاظ عزم يوشك أن يتحدث به عيناها ؟ . .

ولال على وهو يريد أن يستوثق منه :

— علام أردم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على وروايت لى ولست أخرج من يدك . ولكنها لم تكن الأولى مع ذلك ، بل سبقتها نوايا طيبة كثيرة طالما أبدأها الخليفة لشعبه ثم عدل عنها بغير ما مسوغ للعدول ولم يكن وعده الجديد هذا بوعده اليتم . . .

وأثناء على الأثر الراى السافر الصريح :

— إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ، فكل ذلك تخرج فتقول ، وتمتد

ثم ترجع . وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعمتهم «وعصيتنى» — فأنى أعصيتهم وأطعمك .

وقبل على أن يركب إلى الثوار فيحدثهم ليرجموا عن الشيخ بعد أن بافت له حرارة التوبة فى ألفاظه . وخرج وعهد بن مسلمة ، وطائفة من الأنصار والمهاجرين إلى ذى خشب ليحدث الناس . وأمر الخليفة نقرأ من أصحابه وأهل بيته ليصحبوه . وأمر أيضاً سعد بن أبى وقاص ليكون رسوله إلى عمار ابن ياسر على أن ينضم عمار إلى وفد التوفيق ليكون عوناً له بعد أن كان من

معارضيه .. بدا عثمان في هذا حريصاً على أن يكسب إلى جانبه كل خارج عليه .
ولكنه كذلك بدا معشككا كثير الريب في أصحابه وإن كانوا من الساعين
بالإصلاح بينه وبين غيرهم من مخالفيه فاكاد ينطلق سعد في مهمته حتى
بعت كثير بن الصلت الكندى في أثره ليرى كيف يكون الموقف بين
الرجلين ، وليعلم في خفية مدى إخلاص رسوله للرسالة التي وكلها إليه ، وهل
هو حقاً سيعرض محاراً له أم يرضه عليه ! . . .

وجلس الرجلان يتحادثان ، ووقف كثير بنجوى هن عيونهما متجسسا
يرهف السمع ... قال سعد :

— يا أبا اليقظان ، ألا تخرج فيمن يخرج ؟ .. هذا على يخرج ققم معه
واردد هؤلاء القوم عن إمامك فأني لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خير منه ..
وتفكر مزار برهة ، والتقطت أذنه حركة خفيفة خارج داره فارتاب في
الأمر وانطلق خفيفاً إلى تفرقة الباب فإذا عين هناك تقرب فما أسرع أن
مد يده بقضيب من خلال الثغرة ردت ذلك الجاسوس بصرخ وهو يفر من
المكان وخلفه كلمات حمار الهادرة نثيمه :

— يا ابن أم قليل ! . . . أعلی تطلع وتستمع حديثي ؟ . . . والله لو دريت
لغات عينك !

ثم انثنى غاضباً إلى سعد يقول له

— والله لا أردم عنه أبداً ...

وفسد الأمر الذي أقبل فيه ابن أبي وقاص . وضاع جهده ، ثم لم يلق
من عثمان غير الريبة والاثم

ولكن علماً نجمع في مهمته الكبرى ، وأثر اللقاء بينه وبين الثاثرين ثمرته
المرجوة . فلم يلبثوا أمام سحر حديثه أن لانوا له ، وصفت قلوبهم على الخليفة .
ولما أن تهيأ على وصحبه للعودة ، أقبل ابن مسleme على بضعة نفر من زعماء
المصريين يحذروهم الفتنة وينهاهم ثاوية عن عثمان . . . قال .

— ... إن في قتله لاختلافا عظيماً ، فلا تكونوا أول من يفتحه ،
ولسوف ينزع عن الخصال التي نعتتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك .
قالوا :

— وإن لم ينزع ؟

— فأمركم إليكم .

وقام عنهم ليلحق بوفد التوفيق العائد إلى المدينة ، فهتف به ابن عديس :
— ألا توضحنا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟

فالتفت إليه وقال ثانية يحضهم على الاستمسك بوعدهم الذي قطعوه
لابن أبي طالب منذ قليل :

— تتق الله وحده لا شريك له ، وترد من قبلك عن إمامه فإنه قد وعدنا

أن يرجع وينزع .

— إني فاعل إن شاء الله . . .

٢

قال على حين عودته لعثمان يبصره بالموقف ، ويشير عليه بالعلاج الذي
يراه حائلاً دون قيام فتنة جديدة بعد أن أنطفت فتنة الصريين :
— يا أمير المؤمنين . . . تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون
عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من الزوع والإثابة . فإن البلاد قد تخضعت
عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ،
ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً . . . ويقدم ركب آخرون من البصرة
فتقول : يا على اركب إليهم . . . فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحلك
واستخففت بحقك .

ثم جاء محمد بن مسلمة على الأثر فقال له هو الآخر يحذره ويبصره :
— . . . الله الله يا عثمان في نفسك ! . . . إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون

دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، بل هم يقودون عدوك هلك ..
 فتفكر ههنا . إن الحقائق واضحة أمامه تحدث عن نفسها في جلاء .
 ولقد صدقه إذن على . وصدقه أيضاً ابن مسلمة ، لأن كثيراً من كبار رجال
 المدينة لم يدعوا له يداً معينة في ساعة المحنة كأن ضياع أمره كان أمنية تجول في
 قلوبهم .. وما أحسبه في هذا المقام إلا استعرض أمام عينيه كيف غاب عن
 نصرته اليوم طلحة والزبير وكثيرون من أعلام الإسلام لولا أن بادر ابن
 أبي طالب فوقف إلى جانبه ثم رد التأثير عنه ..

وقام الشيخ إلى المسجد . أيقن الآن أن وعد اليوم ليس له ما بعده إلا
 القضاء .. وأن نصيحة على جديرة بأن تجنبه كثيراً من المتاعب التي لعلها
 تنتظر فرصتها لتنتلق . وأن كلمات قلائل لينة كفيلة بأن تجمع حوله ثانية
 قلوب أمته وتفتح في حياته السياسية صفحة نقية .. لذلك سارع بعمل بمشورة
 ابن أبي طالب . فوقف على المنبر يخطب الناس خطبته التي أعطاها فيها الحق
 من نفسه ، وترع تائباً عما سلف منه .. قال :

« .. إني منتني نفسي وكذبتني ، وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول
 الله يقول من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة ، إن من
 تدامى في الجور كان أبعد من الطريق .. »

ثم رفع يديه ووجهه إلى السماء ، وانطلقت عيناه تجودان بدمعه حتى
 اخضلت به لحيته وهو يتجه بالدعاء إلى الله :

« اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك » .
 وكان في ابتهاله حرارة ، وفي كلماته صدق ، وعلى قلمات وجهه مسحة من
 الظهر ساحرة أكسبتها الدموع رقة ودت معها قلوب سامعيه أن تخلف
 صدورهم ثم تلتف عليه .. وأجابته العيون من أنحاء المسجد . وجرى الدمع
 بيل كل وجه شهده في موقفه ذاك ، وصفت النفوس للشيخ حتى نسيت كل
 ما سلف منه وذكرت فحسب أنه شيخ هاض جناحه وليس يرى النصرة إلا في
 وحاب الله ..

وأردف من بعد يتم الحديث :

« أيها الناس .. مشي قد نزع وقاب ، وأنا أول من انعط . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فإذا نزلت فليأتني أشرفكم فليروني رأيهم . فوالله لئن ردتني الحق عبداً لأستقن بسنة العبيد ، ولأذان ذلة العبيد ، ولأكون كالمرقوق إن ملك صبر وإن أعتق شكر . فإلى مذهب من الله إلا إليه أيها الناس لا بعجزن عن خياركم أن يدنوا إلى . فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحن مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم ولئن أبت يميني لتتابعني شمالي . . »

وتفرج عنه همه حين فرغ من مقاله . وأحس أن القلوب النافرة قد أقبلت تمنو له . ودخل منزله ذلك اليوم وهو راض عن نفسه وشعبه ، لا تكاد تشوب قلبه على الناس شائبة من ضعف أو ريبة . . ثم أمر ببابه أن يفتح حتى يدخل عليه من أراد . .

كذلك كسب الشيخ بهذه الخطبة الرقيقة كسباً جماً لو عرّف كيف يستعين به ، وأوشك أن يثبت له أمره . ولقد تمت بينه وبين فئة من المصريين مقابلة أرضته عنهم وأرضتهم عنه حتى لقد قال :

« ما رأيت والله وفداً في الأرض هم خير لحوياتي من هذا الوفد الذين قدموا علي . . »

وأقرهم على ما طلبوه من خلع واليهم عنهم وتولية محمد بن أبي بكر عليهم ، وإباحة العطاء مستحقيه من المقاتلة دون أهل المدينة الذين لاقى لهم فيه إلا من بقي من أولئك الشيوخ أصحاب رسول الله . وأقروا له هم أيضاً بحقه عليهم ألا يخلعوا طاعته أو يناوئوه . .

غير أن الأهواء الشخصية أبت أن تدع الريح تسير رغبة طيبة . بل شئت أن تثيرها عاصفة هوجاء محتاجة تدمر . فما كان لأولئك النفر الذين ألفوا أن تسير الأمور في طريق مطامعهم أن يدعوها تنحرف عن ذلك الطريق الذي لا جدوى عليهم في غيره ما كان لأولئك الذين نعموا

بالسلطة أعواماً طويلاً إلا يتركوا سولجانها ينفلت من أيديهم ، وأن يخلوا بين
الناس وبين خليفتهم يلقونه ويلقاهم في خير ، ما دام صلاح ما بينهم لن يكون
إلا على حساب تلك الأهواء . . .

نظر مروان وذووه غب هدوء الحال فإذا عثمان راجح . وإذا الشعب أيضاً
راجح . وإذا الخاسر وحده هو مروان وذووه . . . إنهم النبوذون اليوم من كلا
الشعب والأمير . . . إنهم الضحية التي توشك أن تقدم رخيصة على مذبح
هذا الإصلاح ! .

وتربص الرجل الخاسر الذي أمضته مرارة الهزيمة . . تربص مروان ، الذي
جزع من ضياع نفوذه وسلطانه حتى حانت له لحظة موأتية اجتمع فيها بتلك
الشرذمة الجازعة كجزعه من بني أمية ، فانطلق بمجلسهم يوسوس في أذني
عثمان كأنه شيطان . . قال له وهو يحرص على أن يبدو في هيئة المشير
الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . اتكلم أم أصمت ؟ »

ولكن نائلة زوج الخليفة كانت أقرب إلى شفافية النفس في تلك الساعة ،
فألهمت أن الشر كل الشر فيما سيتكلم به مروان . . لم تنتظر لحظة واحدة . ولم
تدع لهذا الدساس الطامع فرصة لبث سمومه ، بل بادرت تسد عليه سبيل الكلام . .
صاحت به :

« لا بل أصمت ! . . لأنتم والله قاتلوه وميتموا أطفاله . . إنه قد قل مقالة لا ينبغي

أن يترع عنها . . »

فتار الغضب في جوانح مروان على هذه المرأة التي توشك أن تفسد عليه
تدبيره . وأعماء حتى عن واجب التظاهر بإجلالها في حضرة سيده وولي نعمته
حتى لقد قال :

« وما أنت وذاك ؟ . . فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! »

فلا يعجزها النطق الذي لا يعجز في مثل هذا الوطن أمثالها من النساء
وانبرت ترد عليه .

« مهلاً يا مروان عن ذكر أبي إلا بخير . أنخبِر عنه وهو قائب وتكذب عليه ؟ .. أما والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه يندله غمه لأخبرتكَ من أمره بما لا أكذب عليه ! .. »

وبهت الرجل . وأصابه الحصر من لسان امرأة .. على أنه ما كاد يخلو إلى الخليفة ثانية حتى راح يتهيأ للوفية التي فوتتها عليه نائلة . . . أقبل وهو يصطنع الولاء والإخلاص ويبدو كمن يريد إرضاء الرأي الراجح السديد، فقال :
« بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين . . . والله لوددت أن مقاتلتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبي ، وحين أعطى الخطة الدليلة الدليل .. والله لإقامة على خطيئة تسعفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ! فما زدت هلى أن جرات الناس عليك .. »

فتردد عثمان . ماذا لو كان فيما بسطه صاحبه علائم كثيرة من الصواب ؟ ..
ومس الشيخ المتخاذل في استحياء :

— قد كان من قولى ما كان ، والفائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً ..

— إن الناس قد اجتمعوا يبابك أمثال الجبال . .

— فما شأنهم ؟

— أمت دعوتهم إلى نفسك . فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ،

وهذا يسأل نزع عامل . .

وسكت عنه وإن كانت نظراته ملأى بعماني التوجيه والإيحاء ..

وقال عثمان بعد قليل :

— . . . إني أستحي أن أردم . . . فأخرج أنت إليهم فكلمهم .

وكانت هذه هي اللحظة التي ترقبها مروان ، واشتاق أن ينتهز سانحتها

قبل أن تفوت فيضيع من يده كل الأمر ، ويفدو الضحية الرخيصة التي يقدمها

عثمان على مذبح إرضاء رعاياه . .

خرج من الغرفة مزموأً بنصره ولو علم لعرفه نصرأً أهون شأنًا وأمعن في استجلاب الشر من كل هزيمة وخسران . ومضى إلى شرفة الدار يلقى بينصره على الجموع التي ازدخرت بالباب كالعباب . فلما أن وسمه أن يجتر هنيهة شماتته بهم ، ويفرق فهو ملامح وجهه كلها بألوان السخرية والازدراء ، صاح بهم في جفوة وخيلاء :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جثم لنهب ؟ .. شامت الوجوه ! .. آريدون أن تزرعوا ملكنا من أيدينا ؟ .. أغربوا عنا ، فوالله إن رمتونا لنمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم .. إرجعوا إلى منازلكم فإننا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا .. »

وعاد وقد خلف للناس مرارة في النفوس كادت أن تتذوق طعمها الشقاء ، وحقدًا على وليه سرعان ما عرف طريقه إلى الهدم وإن نجا من معوله هذا الجهول مروان ، وأصاب ضرباته القاصمة ذلك الشيخ المظلوم عثمان . . . مضى الناس عن الدار حيارى . خاب أملهم وغلبت دهشتهم كل ما سبق من إحسانهم الظن بالأمير . فما يمثل هذه السرعة يمكن أن يكون نقضه الوعود . .

ولكنهم لم يتوبوا إلى نفوسهم من الدهشة الغالبة حتى أحققتهم ثانية دهشة جديدة أزرت بكل حيرة سابقة وبكل ما تستطيع أن تتنبأ به الخواطر والظنون . فلقد صعد الشيخ إلى المقبر كأنما ليقطع عليهم الشك باليقين ، وراح يخطبهم بأسلوب مشبه وعلى السن الذي صوره له فقال :

« أما بعد أيها الناس ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلنهم من إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلنهم عنه رجعوا إلى بلادهم . . »

فبأي لسان كان يتحدث عثمان ؟ .. ألحسب أن كلماته تلك كفيلة بأن تنحجب عن الناس حقائق الحال ؟ .. ولكنه في كل سني حكمه كان مقودا بيد مروان وبقي الزمام كما كان حتى وصل به إلى أسوأ ما تنتهي النهايات . وصاح من أحد جوانب السجد صوت مستنكر يقطع عليه الخطاب .

إنه ابن العاص يهتف به في احتقار شابه الغضب لنفسه قبل الفيرة على صوالح مواظبيه :

— اتق الله يا عثمان . . . إنك ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب . . .

فقله وجه الشيخ وثار به :

— وإنك ما هنا يا ابن النابغة ؟ . . قلت والله جبتك منذ تركتك من العمل ! . .

ولكن المسألة في عين الناس كانت قد عدت طور الخلاف على الشخصيات وأصبحت جلاداً على شأن عام ياباه عايهم عثمان . فما كادوا يلقفون كلامه حتى ضج المسجد بمن فيه ، وجاءت كلمات الإنكار من كل جانب حتى غرق في لجتها صوت الشيخ الواهن الضعيف .

ولغطت المدينة بما كان . وتحدثت بسقطة الخليفة وحمالة مروان . وانطلق الناس إلى طلي يشكون إليه فأسرع غير مصدق إلى المسجد يريد أن يستوثق . . فلقية هناك عبد الرحمن بن الأسود . .

قال على يسأله وقد عرف أنه يعلم قصة الأمر :

— أحضرت خطبة عثمان ؟ .

— نعم

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟ .

— نعم .

فضرب الرجل كفاً بكف وقال وهو آسف حزين :

« عياذ الله ! . يا المسلمين ! إني إن قعدت في بيتي قال : تركتني

وقرابتى وحق . وإني إن تكلمت فجاء ما يريد لعاب به مروان . . لقد صار

سيقة له يسوقه حيث شاء همد كبر السن وصحبة رسول الله » .

ثم انطلق من فوره مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه

كجمل الظمينة يقادحيث يسار به ! والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا عقله ،
وإني لأراه يوردك ثم لا يصدرك . . وما أنا بمائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك .
أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » .

وخرج بغير تريث . ودخلت على الأثر نائلة . فإذا زوجها منقبض حزين
كأنما ينزاعه الأسف على ما بدر منه بعد أن تبين سوء المورد الذى قاده إليه
مروان ، وأيقن بالخطر الداهم الذى يوشك أن يحمى به . وقالت المرأة الوفية
الذكية تدلى بالرأى الذى تعلم أنه كفيل بكشف الغمة ورفع الملة :
« قد سمعت قول على لك ، وأنه ليس براجع إليك ، وقد أطمت مروان
يقودك حيث يشاء » .

فألقى ببصره إلى الأرض هنيهة يفكر ، ثم رفعه فبانت لها منه نظرة
مغلوب مهيب ، وهو يحدثها بصوت مازجت فيه نبرات الحيرة لطفة السؤال :
— فما أصنع يا نائلة ؟ .

— تقضى الله ، وتتبع سنة صاحبك ، فإنك متى أطمت مروان قتلك ،
وليس لمروان عند الناس قدر ، ولا هيبة ، ولا محبة . فإنا تركك الناس لمكانه .
وإنما رجع عنك أهل مصر لقول على . فأرسل إليه فاستصلحه ، فإن له عند
الناس قدراً ولا يعصى .

غير أن علياً كان قد بذل للناس من ماء وجهه مع وعود عثمان ما لم تعد
بعده بقية لبذل . فقال للرسول الذى جاء من قبل الخليفة يطلبه :
— قل له ما أنا بداخل ولا عائد ! .

وكأنما كان لمروان عيون بين الشيخ وزوجه تنقل له ما يتساران به . .
مالبت هذا الشيطان أن أسرع إلى الخليفة خشية أن يكون فى استصلاح على
ضياح أمره ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن نائلة بنت القرافصة . . .
فلم يصير عليه عثمان فى هذه المرة ، بل ثار به يقاطعه وقد أيقن من
سوء نيته :

— لا تذكرنها بحرف فأسوى لك وجهك ! ... إنها والله أنصح لي منك ...

على أن نتيجة اللقاء بين علي وبين الرسول قد خيت أمه . وأوشكت أن تذهب بالبقية الباقية التي مازالت تتعلق بها نفسه . وسكت الشيخ على هم . وطوى في قلبه مرارته . وتلبث مضطرباً لا يدرى أين ينشد النصرة ولا النصيحة الرشيدة ، وهذا ابن أبي طالب قد أدار له ظهره . حتى إذا دخل الليل ، ونشر سواده على الكون كالستار ، رأى بقية من أمل تلمع في أفقه . فاستطيع أن يوقن أن علياً يخلّده أو يتنكر له . . . وانطلق في هدأة المساء يقطع دروب المدينة ، ويسير فيها حائراً مقسماً بالظلمة . وأشرف من بعد على الدار المنشودة . على الجمعة التي لا ريب تنضم على دواء دائه . طرق الباب ودخل على استحياء . واستقبله على هناك بما يحمل به وإن بانت على حياه آثار غضبته الأولى عليه . وراح عثمان يبسط له الموقف ويلقى بعذره ، ويحاول جاهداً أن يستهديه وهو لا يكف من بعد عن بذل الوعد تلو الوعد . . .

ونظر ملياً إليه على . بدا كأن لا جدوى من وراء نصحه فليس الرجل بسيد نفسه . ولا قضاء لو عهد بسوقه لأنه لم يعد يملك القضاء . إنما لسانه وحده هو الطليق ثم على فكره وعلى يديه رقباء ! . . . وقال أبو الحسن أخيراً وهو لا يستطيع أن يخدعه :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك تخرج مروان إلى الناس يشتتهم على بابك ؟ » .

وبانت عزيمة التصميم في وجهه . وبدا للشيخ أنه اليوم أمام قرار حاسم لا مرد له . وازدخرت في نفسه همومه . وجاورتها أيضاً شكوكه وريبه وهو يذكر ما كان يحدثه به أهله عن علي : « لو شاء لما كلمك أحد » . . . ولكنه الآن لا يشاء . . . وحضرته أيضاً مواقفه منه ، وشدة عليه كلما استهداه . لكن كلمات مروان هذه صدقت فيه :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه ... فما ظنك بما غاب
عنك عنه ؟ .. »

وأوسعت له الذكرى في الاستراية . وأحس بقلبه تقبضه يد قاسية مدها
خذلانه . فقام عنه متهافتاً يقول :

« خذلتني يا أبا الحسن وجرأت الناس على » .

فالمعجب له ! .. لا يزال دم خطيئته على كفه ثم يلتقي بوزرها على كاهل
سواه ... وأجاب على وهو يشيعه إلى الباب :

« والله إني لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكني كلما جئت بك بشي ، أظنه لك
رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولي ... »

فلم ينبس الشيخ ، بل مضى مطرقاً بلا كلام . وغاب هيكله الضاوي من
عيني ابن أبي طالب . ولكني أحسب تلك العينين قد غامتاً برهة وهما تنظران خلفه
في جوف الليل ...

٣

اضطربت خواطر أهل المدينة ، وقلق بالهم ، وملك نفوسهم بأس جامع
من إصلاح خليفتهم بعد ما سمعوا منه ومن صاحبه مروان . ثم لعلمهم
أوشكوا أن يروا بعيون الخيال بوادر العاصفة التي همت أن تتجمع في أفق
البلدة .

ولم يكونوا يأسون على مصير الشيخ . ولا مالت نفوسهم إلى الرثاء له .
لو أنا عنيينا بإحصاء محبيه إذ ذاك لما جاوزوا عدة الأصابع . ثم لنحسبهم
بضعة من الخاصة لم يربط بينهم وبينه وفاء بل استعبدتهم له الهبات والأفواء ..
أما الإجماع فقد انطوت قلوبهم على النعمة منه . لعلمهم اقتنعوا اليوم بضرورة
مخالفة هذا الخليفة الذي لاح دائماً كالحريص على إغضاب شعبه لحساب
أهله ... لعلمهم رأوا صلاح الحال في تنحيته عن الطريق ليستقيم شأن أمته ..

لعلهم جنحوا لأهواء لهم بتحقيقها رهن بالخلاص منه . . على أى حال ضمت
البلدة زمراً من كل أولئك وهؤلاء تحالفوا عليه .

ولم تخل أيضاً من عيون لأصحاب الثورة بثوها عسى أن تنقل لهم ما يجد
بها من حركات بين حين وحين . فما نزل عثمان عن المنبر بعد أن نقض عهده
حتى انطلق جاركه إلى القوم ، وهو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار . ذهب
ليخبرهم بما كان من عثمان . فما انقضت أيام حتى جاء النبأ بأن المصريين عادوا
ثانية إلى ذى خشب وبعضهم بالسويداء .

أفكان أولئك الثوار قد ارتدوا حقاً عن ضواحي المدينة وركبوا الطريق
إلى بلادهم بعد حديث على وابن مسلمة ، أم هم يا ترى تلبثوا بمكان قريب حتى
يعلموا ما يكون من أمر عثمان ؟ . . . أغلب الظن أنهم ، وقد فقدوا الثقة
في وعوده ، تنظروا ببعض الطريق حتى يأتيهم من ينبئهم بحقيقة الحال .
فإما وفاء من الشيخ وصدق توبة فترحل جموعهم ، وإما نقض كما عودهم
فتكر إليه .

وربع عثمان . واختلط عليه أمره . وألقى يبصره على أصحابه وقد أوشك
الخطر أن يحدق به فما وسمعه أن يرسل ثانية إلى على بعد ما سلف منه في حقه .
بل حسب الخبر عند محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه عساة أن يكون أرفق به
وأحنى عليه .

قال له :

— يا أبا عبد الرحمن ، هؤلاء القوم قد رجعوا ، فما الرأي ؟

فقلب ابن مسلمة كفيه حيرة وأجاب :

— والله ما أدري . إلا إني أظنهم لم يرجعوا لخير ! .

— فارجع إليهم فارددهم .

فهمت الرجل مسفكراً :

— لا والله ، ما أنا بفاعل ! .

— ولم يا أبا عبد الرحمن ؟ .

— لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها . فلا والله ، لا أكذب الله في سنة واحدة مرتين ! .

فسدت أمامه جميع المسالك أو كادت بعد أن أبى عليه هذا الرجل مطلبه . ليس له من سبيل إلى آخر غيره من أصحاب رسول الله . . . فلم ؟ . . . وكيف لم يدر بخاطره أن يلجأ إلى سعد ؟ . . . أما زالت نفسه تحمل الشكوك منه ؟ . . . وأين ذهب عنه طلحة بن عبيدالله ؟ . . . وفيه سكوتة عن طلب النصرة على يد الزبير ؟ . . . كلّا أطلق المرء لتساؤله العنان ارتد به التساؤل ثانية إلى نقطة البداية ، ووقف حسيراً لا يستطيع أن يرى لهذا كله إلا معنى واحداً ليس له سواء هو أن الشيخ أبقن أن النصرة لا تأتيه من هذا الاتجاه ! . . .

واستمعى الحل على ذهنه المكبوه . وزاد من متاعبه أن أهل الديانة أنفسهم لم يترفقوا به في هذه الهنة النازلة . فقد جاءه من لدنهم كتاب يحتجون به عليه ، ويقسمون فيه ليقتلنه أو يعطيهم ما يلزمه من حق . . . بدوا كأن قد وجدوا ظهيراً لهم عليه بعد هردة الثوار .

وجمع الشيخ مشيريه من أهله وقد عجز أن يجد في غيرهم المشير ، وقال لهم عسى أن يجيئوه بالنصيحة :

— قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟

فأجابه مروان :

— يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكابرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك .

— إنهم لن يقبلوا التمليل . وقد كان منى في قدمتهم الأولى ما كان . فمتى أعطهم فمك يسألوني الوفاء به .

— إنما بغوا عليك فلا عهد لهم . . . فأرسل إلى على أن يردهم عنك ، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك . . .

فبش النصيح لا ينطوى إلا على خلف للوعد بعد خلف ! . . . ولكنها

النفسية الأموية التي تستعين دائماً بالغدر والدهان نضحت بها عقوبة مروان ! ..
وأقبل على من بعد يستجيب لدعوة الخليفة وقد علم أنه أصبح في حال توجب
الدفاع عنه . . . حتى إذا استقر المجلس بالرجلين قال عثمان :

— يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان مني ما قد
علمت ، ولست آمنهم . على قتلى ، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعطيتهم
من كل ما يكرهون ، وأن أعطيتهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في
ذلك سفك دمي . . . »

قال له مترفقاً وهو يصعده بحقيقة الحال :

— يا أمير المؤمنين ، الناس إلى عدلك أخرج منهم إلى قتلك ، ولكنني
أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى . لقد كنت أعطيهم في قديمهم الأولى عهداً
من الله لترجعن عن جميع ما تقموا منك ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء . . .
فلا تغرنني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق .

— فأعطيتهم يا أبا الحسن ، فوالله لأفنين لهم .

وخزج ابن أبي طالب من لده ، فإذا طوائف من الثوار تقبل عليه بمد
أن سعت تلتهم في كل سبيل وقرأ في وجوههم علام حنق جائح ، وفي
عيونهم ومضات غضب جبار ، ولكنه لم يمن بمعرفة أسباب الفورة النفسية
التي كانوا يعانونها إذ ذاك بقدر ماضق صدره بنقضهم وعدم له بالارتداد
والرحيل .

قال مستنكراً وقد قاربوه :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

فأجابه متحدث من المصريين :

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا .

وسلموه الوثيقة التي عثروا عليها مع خادم للخليفة أوشك أن يجتاز بها

الصحراء إلى مصر لولا أن صادفوه ، وعجب على دون أن ييئدي لهم ،
فهذا كتاب عثمان لعاملهم ، يأمره أن يقتل منهم ثلثاً ويحبس آخرين ،

وكانت علامتُ القدر واضحة في الكلمات . وهذا خاتم الشيخ على الكتاب ،
وهذا خادمه أيضاً بعد أن أمسكوا به قبل أن يقطع شوطه ، ويرم لهم
أسوأ مصير .

وتفكر أبو الحسن ملياً في الأمر . . . وأدار بصره بحذر في القوم وفيمن
تراحم حولهم من الناس . . . ها هنا طلحة يحدث نقرا من المصريين . . .
ونعمة الزبير يحدث نقرا من الكوفيين . . . وفي لحظة خاطفة كومض البرق قفز
خاطر إلى ذهن علي ، فهذه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها شكه .
قال وهو يحيل عينه في أنصار صاحبيه :

— وأنتم فيم جئتم ؟

فأجابوه :

— لننصر إخواننا هؤلاء ، ونختمهم .

فأسرع أن صاح بهم وهو يرمق متحدث البصريين بجانب عينه :

— وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد

سرتهم مراحل ! .

فبهتوا واستمعى عليهم أن يثبتوا لحجته ، لعلمهم كانوا قد أجموا الرأي على
الوقوف ببعض الطريق بعد أن تظاهروا أمامه أنهم تهيأوا للرحيل . . . لعلمهم
لم يأمنوا أن يتركوا الشيخ قبل أن تبدو لهم بادرة تطمئنهم على إنقاذ وعوده .
لعل بعض عيونهم بالمدينة قد علموا بأمر هذا الكتاب وما انطوى عليه من
الكيد لهم فأبلغهم عنه فكان أن تربصوا بالرسول . . . إن فرضاً من هذه
الفروض يفسر هودة القوم مجتمعين وكان كفيلاً بأن يلقي ضوءاً على القصة
لولا أنهم شاءوا — لأمر من الأمور — أن تظل مجهولة التفاصيل . أما وقد
رآهم على يلوذون بالصمت فلم يسعه إلا أن يقول :

— هذا والله أمر أبرم بالمدينة . . .

فأزادوا على أن أجابوه في تبرم وضيق :

— فضعوه على ماشئتم ! . . . لا حاجة لنا في هذا الرجل ، فليعزلنا .

ورأى منهم الجذ والتصميم فراح يحاورهم ، ويعمل جاهداً ليوفق بينهم وبين الشيخ . ولعله راح يعتذر عنه بأنه مظلوم . وأن العدو المائل في سطور الكتاب أولى بأن تلضح به غير نفس عثمان . . لعله قال هذا وكثيراً مثله وهو لا يعلم أنه هو الآن مطية لغدر جديد . .

وقال لهم أخيراً وقد أنس فيهم الميل إلى الاستماع له :
 « . . إنكم إنما طلبتم الحق أيها الناس ، فقد أعطيتهموه . . إن عثمان منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرر هون فاقبلوا منه . . »
 فأجابوا وقد لانت نفوسهم ثانية للشيخ :
 « قد قبلنا . فاستوثق لنا منه فإننا والله لا نرضى بقول دون فعل » .
 « على ذلك لكم » .

وتم الاتفاق بين علي وعثمان على أن يجيب هذا مطالب الناس ، ولا يتركها اليوم وعودا لا تساوى حروف الكلام الذى ينطق بها بل ينجزها على الفور ويخرجها إلى حياة الأفعال . . وقال عثمان يستمهل :
 « يا أبا الحسن ، اضرب بيى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كر هو فى يوم واحد . »

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .
 « فأجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . . »
 فكتب له ههداً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويمزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه ميثاق الله أن ينى بوعدده ، وأشهد عليه أناساً من الأنصار والمهاجرين . .

وكف الناس عن الخليفة . واطمأن بال المصريين فمسكروا بذى خشب ينتظرون أن تأتيهم أنباء المدينة بإنماذ العهد . وصفت النفوس كلها ، أو هى تجردت حيناً من أضغائها واتجهت إلى المستقبل متفتحة للرجاء . ولكن فئة قليلة ظلت وحدها طاوية قلوبها على الضغن ، تشحذ همها للكيد وتود لو أسففتها هذه المهلة القصيرة بإنفاذ خططها الغادرة . . . أولئك كانوا بطانة

عثمان وعلى رأسهم مروان مشيره وصاحب الكلمة السموعة لديه . فلتقد سل الرجل سلاح غدره ، ومضى يجيش القوى التي يستعين بها على القصاص من أوائك الذين أرادوا أن يسلبوه سلطانه . كان كل همه أن يحفظ على نفسه وأهل بيته أبهة الحكم والصولة التي حلم بها أجيالا طويلة ذروه من بنى أمية . وماونه في مهمته تفر من أهله لأن قضيته قضيتهم ، ولأنهم خشوا هم أيضاً أن تضيع هيبتهم المكتسبة من تقبض أيديهم على الصولجان .

أما الخليفة فقد ظل مغمض العينين عما يدور حوله كأن الأمر كله لا يعنيه في قليل ولا كثير . وجلس هادئاً يرقب سياسة مروان التي رسمها لفض الأزمة عنه . بل لعله كان مطمئن النفس واثقاً من خطة صاحبه أشد وثوق . أفلم يقاربهم حتى يقوى ويبذل لهم من الوعود ما يسكتهم عنه ؟ ولقد وعدهم فسكنوا ، واتخذ من ابن أبي طالب مطية لهذا السكون . والرأى عنده أنهم لن يلبثوا حتى يتفرقوا عنه كما فعلوا من قبل مرات ومرات . وكان مروان في الحق رجلاً لا يستطيع منصف إلا أن يشهد بحمته إذ ذاك . فقد أوغل في الأخطاء وفي التحدى وهو يحسب القوم أهون من أن يصلوا إليه . وبدا مستصغراً لشأنهم يحمل أميره على التسويف والطل كما يشاء . فمن عجب أن تكون هذه خطة يقره عليها عثمان مع ما انطوت عليه من الغدر وتقص ميثاق الله الذي أخذه الشيخ على نفسه . ولكنهم — فيما حدثه مروان — كانوا قوماً باغين فلا عهد لهم عايه !!

وانقضت المهلة كما بدأت ، فلا مكروه تغير ، ولا عامل عزل ، ولا حق من حقوق الناس رد عليهم . لم تبدر بادرة من ناحية القصر تحمل الناس على إحسان الظن بساكنيه . ولغطت بالخليفة الألسن أولاً بالمدينة ثم جاوز اللفظ حدودها إلى منازل الثوار . وبات البناء ، الذي جهد على دائماً حتى أقامه ، مهدداً بالانهيار . ولكن مروان ظل مطمئن القلب كما كان ، لا تختلج له جارحة ، بل لعله كان يسخر في ضميره من تلك الجموع التي أغضبها نكث الوعود ، فما لغضبها ذاك من جدوى ولا أثر في تغيير سياسته ما دام قد أعاد

لها العدة وأحاط الدار بطائفة كبيرة من رقيق الخمس هياها وأحسن إعدادها بالسلاح . وإن هي — فوق هذا — إلا أيام حتى تصل الأمدات التي راحت الرسل تستمدّها من البلاد .

وكان النازلون بالضواحي قد أعياهم المظل وأمضهم طول الانتظار . فما هو إلا أن حزموا أمرهم حتى هجموا البلدة بجموعهم المجهزة . وانتشروا في نواحيها يعلّونها بالتهليل والتكبير ، وينادون أهلها أن كفوا أيديكم فتصيحوا آمنين . وهل كانوا بحاجة لهذا النداء وأهل المدينة من علم موقفهم من تصرف عثمان .

كذلك غدت البلدة صاحبة تمج بالجموع التي ملكها التضرع . وأشكل فيها الأمر على الناس فما يتبينون أملا في غد مقبل أو يوم قريب ، وباتوا من سياسة خليفتهم في ظلمة لا بصيص فيها من نور الرجاء ، ولكن الدفعة التي تأسر عادة نفوس أصحاب الثورات لم تأسرهم ، بل راحوا أميل إلى الهدوء والتريث . فما هجموا الشيخ الذي لعبت بهم وهوده ، ولا آذوا صاحبه الذي كان يتحين بهم القرص للإيذاء والنكال ، وإنما حكموا العقل في الأمر ، ومدوا في جبل اضطبارهم ما وسعهم أن يعدوه . ومضوا إلى الرجل الذي كان دائما الصلة بينهم وبين أمير المؤمنين ، وطالبا سكن من حديثهم وسخطهم عليه . . أجل ، فلم يكن لهم مفرع إلا إلى علي فراحوا يلاحقونه في كل مكان ؛ ويستفجزونه أن يني لهم بالوعود التي قطعها باسم عثمان . فما أشده موقفا لابن أبي طالب رمت به الأحداث ، كله حرج ، لا هو به يستطيع أن يقهر هذا على الوفاء ، أو يحمل على الرضا هؤلاء ! .

ومضى الناس إلى محمد بن مسلمة يحدثونه في الأمر وألم بهم الحديث على قصة كتاب عثمان إلى عامل مصر لينكل بهم ، فقال محمد لهم :

« وما يدريكم أن عثمان كتب بهذا ؟ »

فأجابوه مستنكرين :

« فيفتات مروان عليه هذا ؟ . . فهذا شر . . فليخرج إذن نفسه من الأمر » .

ثم قالوا له :

« يا أبا عبد الرحمن ، انطلق معنا إليه ، فقد جئنا سعد بن أبي وقاص فأبى وقال لا أدخل في هذا الأمر ، وجئنا غيره فقال كما قال ، فانطلق معنا فقد كلنا عايًا فوعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه . . »

ووقفت جموعهم بباب عثمان في الموعد المضروب . ودخل على وابن مسleme على الشيخ فحدثوه :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب ، فأذن لهم . . »

فهمت مروان كأن مرجع الأمر كاه إليه :

« دعنى — جعلت فداك — أكلهم . . »

فما أسرع أن صاح به عثمان :

« فض الله فاك ! . . ما كلامك في هذا الأمر ؟ . . اخرج عنى . . »

وأيقن ابن مسleme أن الكتاب بأمر مروان لأن القدر الذى نضج عنه هو أدنى إلى طبعه وما جبلت عليه نفسه . وأقسم الشيخ أنه ما كتب ولا علم ولا أمر ، فلما بان لهجة الصدق فى كلامه قال على :

« فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرک . »

فكأنما استحيى أن يواجههم وهو على ما هو فيه من النكث وقلة الوفاء بما بذله لهم من وعود ، فأجاب :

« يا أبا الحسن ، إن لى قرابة ورحما ، والله لو كنت فى هذه الحاقة لحلفتها

عنيك . . اخرج أنت إلى القوم فكلهمم فإنهم يسمعون منك » .

فأبى هذا عليه . حسبته ما فات من بذل ماء وجهه ، فاهم براضين من بعد

بأنف وعد ووعده . ورضخ الشيخ أخيراً وهو كاره لمشيئة على ، فأدخل

عليه الناس ، وطال بينه وبينهم النقاش فى قصة الكتاب ، وفى أحداثه ،

وفى عماله ، وفى نقضه التوبة المرة بعد المرة دون أن يقرن القول بالفعل ،

وعلى وابن مسلمة لا يني الواحد منهما يظاھرہ ویؤید جانبہ مرة بعد أخرى حتى انتهى الحديث بالناس أن جنحوا إلى القهول منه .
وقالوا له :

« .. فإننا لا نمجّل عليك وإن كنّا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لايتهم على دماننا وأموالنا ، وأردد علينا مظالمنا » .

وأحسبهم بهذا قد فاقوا كل مأمول ، ولكننا لا ندرى أى يد أمسكت بلسان الشيخ فأنحرفت به عن المفروض منه فى هذا المقام إلا أن يكون أحب أن يتحدث إليهم بلسان مروان ! .. أفلم يطلب ذلك الشيطان منذ قليل أن يتحدث عنه إلى القوم ؟ .. فكذلك كان ، وإن نطق لسان عثمان ! ..

قال الشيخ الغافل وقد ركبتة عزة المنصب فأنستبه الحكمة الواجبة فى هذا المقام :

« ما أرانى إذن فى شيء إن كنت أستعمل من هويم وأعزل من كرهتم .. الأمر إذن أمركم ! »

فبهت القوم ، وطار على وصاحبه كيف تأتى لأمر المؤمنين أن يجيء هكذا بمنطق سقيم ، ولكنه على أى حال المنطق الذى يفسر نكث وعوده الكثيرة ومطله المتواصل لما أخذه به نفسه . وهل يشك الآن من يحب أن يتلمس للشيخ المعاذير فى أنه كان دائماً يقول وقد وطن نفسه على كل شيء سوى الوفاء ؟ ..

فما لبث أن أجابه ابن هديس بصوت هادى رهيب .

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ! .. فانظر لنفسك أو دع .. »

ووقع هذا الإنذار كوقع الصاعقة على نفس الصاحبين اللذين جاهدا لإقناذ الشيخ فأبى إلا أن يحرم نفسه ثمرة الجهاد . وراحا يرمقانه حساء أن ينىء إلى الحكمة ، ولكنه كان أسرع من لح عيونهم إلى الجواب ، فقال بعناد :

« لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أخلع قيصاً قصنيه الله . »
 « فلسنا إذن بمصرفين عنك حتى ننزلك ونسجد بك ، ولئن حال دونك
 من معك من قومك وذوى رحمتك لقاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق
 أرواحنا بالله . . . » .

٤

تلبثوا ينتظرون أن تصل الأمداد لتكون رداء لهم من الناس ، فقد
 ساءت الأمور ، وتربص القوم بالخليفة الدوائر ، وأصبح كل يوم يمر يزيد
 نفرة الخلاف بينهم وبينه .

وكانت الرسل قد مضت بكتب للشيخ إلى الفواحي يستحث أهلها أن
 يسارعوا لنصرته ، ويكونوا عوناً له على عدوه .

قال في كتبه هذه وهو يذكر قصة الكتاب الذي وقع في أيدي الثوار :
 « . . . إنما انتهكت الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام
 ولا ثرة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . . . وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا
 علينا في جوار رسول الله وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب
 فهم كالأحزاب أيام الأحزاب . . . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق . . . »

وأرسل إلى معاوية — ولي دمه ! يسئف بمطفه وقوته ، ويلتمس عنده
 العون الذي حسب أنه لا يبطل به . . . فقال :

« . . . إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث
 إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول . . . » .

ولكن ابن أبي سفيان كان ذا رأي آخر أمام نصرة الشيخ ، وله شأن في
 البدل إليه يخالف السجدة والاسراع وإن أحس الغيلة تكاد أن تفجأ صاحبه ،
 وإن علم أن القتل يترقب به منذ عام !

أجل . لم يبادر صاحب الشام بالنجدة التي كانت توجبها عليه قرابته

قبل أن توجبها وظيفته . بل اصطنع الأناة بغير موجب لها إلا ما في نفسه من غرض خفي ، وتلبث ساكنة لأنه — فيما حدثتنا الأسفار — قد كره أن يظهر مخالفة أصحاب الرسول كأنهم قهروه على هذا التريث الرذول ! . . أفكانوا إذن من القوة بحيث يخشاهم ذلك الجبار الذي عهدناه يدل عليهم بصولته ودولته ويخوفهم بعلشه كما شاء التخويف ؟ . . .

ولكنه معاوية فحسب ! . . وإذا ذكر فقد ذكرت معه التدبيرات الخفية والأغراض المستبكة الملتوية . . أما عثمان فقد كان رجلاً سليم الذية شديد صفاء النفس حتى راح ثأمة يستحبه ويشير فيه العطف الذي حسب ألا يلقاه عند سواه ، فبعث كربة أخرى يقول له :

« . . إن القوم طال فيهم مقامي ، واستمعوا القدر في . . . فياغوثاه يا غوثاه ! . . . ولا أمير عليك دوني ، فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم أدرك ، ولا أراك تدرك . . . »

فكان الجواب أن أعد الرجل قوة أمر عليها يزيد بن أسد القسري ، وقال يأمره وهو يتأهب بجيشه للمسير :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب . . . »

فكفاه بهذا أنه كان — وإن أرسل — كأن لم يرسل ! . . فلم تدخل قواته المدينة ، ولم تنجد سيده ، ولم تفرق عنه الثوار لأنه أراد لها موقف الغريب المشاهد دون خطة الولي المجالد ! . . .

وكذلك فشل تدبير الأمداد الذي علق عليه مروان كل آماله ، ودفع بمثمان إلى التهلكة في سبيله . ومضت الأيام ثقيلة عليه وعلى سيده ، مظلمة لا يبدو في محاثها رجاء . ومع هذا فقد ظل متشبهاً بالخيط الضئيل الذي بقي له وهو احتمال أن تصل النجدة بين حين وحين . ومضى في غيه معصوب العين لا يحاول أن يعالج الداء بالدواء الحاضر . . . وهل كان يوسعه أن يفعل وهذه جموع الناس لا تنى الآن بعد الآن تهتف بالخليفة أن يسلمها مروان ؟ . . .

دون الرجل المستبد الأحق دماء الخليفة والله ! . . . فما زال عثمان يراه
جديراً بأن يضمن به ويدخره ويحميه ، ولعل مروءته وحدها هي التي دفعته إلى
هذا الاستمساك الخاطيء . بمشير أثبتت الأحداث أنه ما من مصيبة داهية
إلا حركتها أصابعه . . .

لكم آذات أحداث هذه الفترة العصيبة عليا وأخذت منه ! . . . كلما سار
تبعته الجموع تهتف له وتدعوه أن يفض هذه الأزمة الحازية التي نالت من قدر
الحاكم ومن راحة المحكوم . . . وكلما انطوى على نفسه بداره أقبلوا يخرجونه
ويستحثونه أن يفرج عنهم الضائقة . ولم يكن يملك أن يفعل شيئاً ، ولكنهم
لفرط ما شهدوه يسعى بينهم وبين الخليفة بالتوفيق حسبوه صاحب كلمة مسموعة
لديه . أما عثمان فقد آذاه منهم التفافهم هذا بغريمه ، وحز في نفسه أن يراه معقد
الرجاء وهو ملوم محسور ، وزاد في مرارته ما عسى أن يكون ذووه قد أوغروا
به صدره على ابن أبي طالب من ألوان الوقعة وسط الاتهام .

وقال الناس له :

« فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب
رسول الله وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتب عزلناه ، وإن كان
مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره . . . »

ولكن عثمان آثر أن يصم أذنيه دائماً عن أمثال هذا النداء ، وأحنق موقفه
الناس وأثارهم فأروا أن ينفضوا أكفهم من اللين به . حسبهم ما بذلوا له
من الصبر والأناة . . . وعنفوا عليه في اللقاء والمقال ، وجروا في سيرته بأسوأ
ما تقول السنة . . . ثم أجمعوا على أن لا يدعوه بخير . . .

فلما كان ذات يوم من أيام الجمعة واقتعد المنبر ليخطبهم كدأ به ، لم يلق
منهم الإصغاء الذي عودوه من قبل ، بل لفظوا ، وامتسلات عليه نواحي
المسجد بالضجيج ، وأرادت طائفة أن يذموا العنف الذي هم يوشكون أن
يضمروه فثاروا بها وأخرجوها من حرم الله ، واشتعلت الفتنة فتحاثوا

بالخصباء ، وأصيب عثمان وهو بموقفه ببعض ما تراشق به القوم فصرع وأدخل داره وهو غشيان . .

وعلم على بالنبا — وكان قد آثر منذ مدة أن يحتجب بعيداً عن الصراع — فأسرع منى داره إلى دار عثمان . ودخل عليه يعودده ويستخبره ما كان . .
قال بنبرة المطوف الملهوف .

« مالك يا أمير المؤمنين ؟ .. »

فما أسرع أن ثار به بنو أمية ... وما أعجبه جزاء ما ناله من هذه الفئة التي دفع عنها كما لم تدفع هي عن نفسها قط ! ..

قالوا له بمنطق واحد كله موجدة واحتقاد :

« أهلكتنا يا علي ، وصنعت هذا الصنيع بأمر المؤمنين . . إنا والله لننبلغت الذي تريد لمرن الدنيا عليك ! .. »

فأجال فيهم نظرة حيرى صوبها من بعد إلى الخليفة ، فإذا على وجهه سكون الراضى بما كان . فما كان أقل عرفانه بالجميل إذ ذاك . .

وقام على عن المجلس مغضباً ، ولم ينطق ، بل مضى لتوه إلى داره وفي نفسه مرارة . لكان عثمان نسى هذا الجهد الجبار الذي بذله أبو الحسن ، ثم عاد قلبه سيرته الأولى من البغض له أو الريبة فيه . . كيف يأتري ينكر الشيخ اليد الطولى التي أوشكت أن تقيم ملكه لولا هذه الطفمة الحمقاء من ذويه ؟ . . أم حسب أن علياً ترك سلاحاً واحداً في جمعبته لم يسله من أجله ؟ . . أم غاب عنه أنه دافع عنه حتى خشى أن يكون قد أسخط ربه لأنه دافع ممن آثر خسر العهد ونكث الوعود ؟ . .

ومع ذلك فلا تتريب على الشيخ الغافل عما يدور حوله وهو ساكن كأن قد أغمضت عيناه . . فما هي المدينة تشور به ، وهامهم الناس يتربصون به ويتحينون كل سائحة للتصااص منه ، وهامهم أولئك أصحابه أجمعين قد سكتوا عن نصرته وقنعوا من موطن الكفاح بعد الأعين المشاهدة دون الألسنة والأ كف لتتضح عنه . . . ومن لم يسكت عن خير فقد حكم

بشر ومضى ينصب من نفسه داعية للثوار ، أو قائداً لهم يسير بهم لجهاد الخليفة والنيل منه . فكثير ألبوا وأعانوا عليه ، وكثير عصمت بهم الأهواء والمطامع حين لامت لهم من بعيد شمس الإمارة . وهل فات عثمان كيف كان موقف طلحة بن عبيد الله منه ؟ .

هذا الرجل من تيم له في الخلافة مطمع قديم يرتد إلى أيام ابن عمه أبي بكر ، وهذه هي الأيام تواتره ، والظروف الرخية عليه الشديدة على خصمه تحالفه ، وها هي الجموع تلتف به بمسد أن أعجزها أن تغري ابن أبي طالب بمنظر الصولجان .

ومع ذلك قعثان ينسى المكروهة تأتيه من كل إنسان ، ثم يسهه أن يقابل إحسان على له بالإساءة إليه لأن بنفسه الأموية ضغناً يرنو إلى بضعة أحقاب ، ولأن أهله الأمويين يربون في قلبه هذا الضغن ، ويتمهدونه بدسائسهم حتى يفرع عوده ويضرب إلى السماء . . . ولقد سمع لهم ، وأخذ مراراً بآرائهم فأبعد علياً عن المدينة لئلا يلتف به الناس ، وأمره أن ينزل خارج المدينة بعيداً عن عواطف القوم . . . ثم لطلباً بمداه أعاده ليدرقهم عنه ، ثم عاد فردده لعلمهم يفسونه فلا يكون ثمة منه كبير خطر على إمارة الأمير .

ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تفتح عيني عثمان . . . فاستطاع الخليفة بعد يوم الحصباء أن يسير بين الناس ، ولا أن يجتمع بهم في مكان . حتى المسجد أصبح حراماً عليه وإن كان مكثه فيه لا يزيد عن لحظات إقامة الصلاة . حرموا عليه كل موقع من مواقع المدينة ولم يبيحوه منها إلا داره . وتركوه محصوراً يكاد لا يملك من حرية الشئ إلا خطوات . ولقد ثقل هذا عليه وبرح به ، ولكنه كان امرأً مصابراً لا يعيبه التسليم بحكم الضرورات . وكان أيضاً شديد الوثوق — كما يبدو — بدهاء مروان وقدره على حل الأشرطة التي انعدت بعنقه وشدت عليه الخناق ؛ فقد ظل حتى نهاية الشوط لا يفرط في مشيره ، واستمسك به في إصرار . وكلما مضى يوم عليه في الحصار زادت الحلقة ضيقاً ، وزاد الثوار إيماناً في الضغط عليه بقدر

ما كان يزيد تأليب المؤلبين وإثارة المشيرين . وأخذت الأطلاع الشخصية تلعب دورها وتأسر نفوس العامة بكل ما يستعبد النفوس الساذجة التي أضربها طول الحرمان . وكلما مرت فترة من الزمن تفتحت عيننا الشيخ على صورة جديدة بغیضة من صور الأهواء التي عصفت بقلوب فئة من الخاصة ظن من قبل أنها ممتنعة على الأهواء جلس الخليفة يوماً داخل بيته ومعه ضيف يفاخيه ، وكان الناس كدأبهم جموعاً تلغظ خارج باب الدار . فإذا عثمان بهم من مكانه واقفاً ويقول للزائر على حين غرة :

« أفلا اسمعك كلام الناس يا عبد الله ؟ »

وأمسك بيد الرجل يقوده إلى حيث لم يفصل بينهما وبين الجمهور إلا الباب . . . وسرى إلى السمع حديث الناس واضحاً حيناً وحيناً مبهماً مشوش الكلمات . ولكن الضجيج لم يكن يمنع الزائر أن يتبين ما أراده على تبيينه عثمان ثم يهتف كالمدحور :

« طلحة بن عبيد الله ؟ . . »

فأجابه الشيخ في ألم بدت آثاره على وجهه كضربات سوط :

« هو والله يا عبد الله . . »

وأصغى الرجل ثانية لما يدور خارج الدار ، فإذا القوم قد استفرقهم الحديث وانتثرت زمرهم ها هنا وهناك ، كل طائفة لها رأى ولها نوع من أنواع البيان . . . وسمهم يتحاورون :

« ما تنتظرون به ؟ . . »

« بل لا تمجلوا به ، فمساء ينزع ويرجع . . . »

ثم استرسل بهم الحوار في مصير الشيخ هكذا بين فرقة المتعجلين وفرقة المتريثين . . .

والتقى عهد الله من بعد نظره في القوم . وراح يحدد البصر في ناحية معلومة لا يتركها . فإذا طلحة بن عبيد الله قد انثنى إليه ابن عديس أحد زعماء ثورة المصريين فتناجيا برهة بصوت خفيض . فلما غاب طلحة عن عين الزائر كان ابن عديس قد عاد ثانية إلى أصحابه يقول :

« أيها الناس ، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه . . »
 فما سمعها عثمان حتى حال لونه ، وقال وهو يرفع بصره إلى السماء :
 « هذا ما أمر به طلحة ! . . اللهم اكفني طلحة فإنه حل هؤلاء القوم
 وألبهم على . . والله إنى لأرجو أن يكون منها صمراً ويسفك دمه ، فقد انتهك
 منى ما لا يحل له . . »

ولم يمض قليل وقت بعدها حتى كان هشام مولاه قد انطلق من المدينة
 مستخفياً قدر وسعه حتى خرج من نطاق الثوار . ومضى مسرعاً لا يستأني
 إلى خير ؛ فيها الرجل الذي يدخر دائماً للعلات . . بها على بن أبي طالب قد
 اعتزل الناس حتى لا تمشى عليه ظنون عثمان ، قد خرج اليوم رسول عثمان
 يدعوه . .

وأسرع أبو الحسن يلبي النداء فإنها لحظة حازبة ينسى فيها كل خلاف .
 فما أشرف على الدار حتى هاله ما هي فيه من حصار . فلم يكن قد تركها كذاك .
 ولم يكن الثوار بمثل هذا الطغيان حين غادر المدينة إلى خير ، بل كانوا بها كأهلها
 وأمير المؤمنين حر الحركات حتى ليخرج إليهم ويؤمهم والناس في الصلاة . .
 وأدار على في الناس عينا تلهب . ومضى في بحرهم الزاخر فما وسعهم إلا أن
 يفتحوا الصفوف له ، وجاز حلقهم المضروبة على الدار حتى خلص إلى عثمان .
 وقال له الخليفة المغلوب يشكو ويطلب العون :

« يا أبا الحسن ، إن لي عليك حقوقاً : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق
 الصهر ، وما جعلت لي في عنقك من العهد والميثاق . . . فوالله لو لم يكن من
 هذا شيء ثم كنا إنما نحن في جاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزم
 ملكهم أخو بني تيم . »

ولم تكن الحال لتخفى على بصيرة على الذي أسرع فقال :
 « أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين . وسأكفيك . . »
 ثم أثنى خارجاً إلى دار طلحة فلقبه قد التف به الناس واجتمعوا له حتى
 غص بهم المكان . . فدعاه إليه ، وقال بغير تمهيد :

« يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعت فيه وصنعت بهتان ؟ »
 فرفع الرجل حاجبه كالستغرت ولون ثغره ببسمة دهاء ، ثم أجاب
 فى هدوء :

« يا أبا الحسن ، أبعد أن مس الحزام الطيبين ؟ . »

فلم يترث على . لم ير جدوى من وراء محاورة هذا الواثق من أمره
 وخطره . وقام مسرعا فلقى أسامة بن زيد فصاحبه ، ثم مضى وإياه إلى
 بيت المال ..

كانت النظرة التى ألقتها على الذين امتلأت بهم دار طلحة كفيلة بأن تكشف
 له عن أمور تكاد تجرى فى الخواطر مجرى اليقين . ولم يكن غراً ليشتبه
 عليه الأمر ، بل كان نفاذ البصيرة فى المستغلات والمجاهيل . وكان أيضاً
 عليماً بأولئك العامة ، عارفاً إلى أين تنزلق أقدامهم وأى الأشياء يفسرها على
 الانزلاق . وكان الحرمان وحده باب السر . . الحرمان المر الذى عانوه
 طويلاً وجاهدوه طويلاً لم يتحرروا من قبضته بعد . وكان البذل هو
 مفتاح الباب . ولئن ملك المال أن تفتح له المغاليق ولا يستمضى مطلقاً عليه
 رتاج ...

أفايقن على إذ ذاك ان طلحة قد أوشك أن يملك أرثك العامة
 المحرومين ؟ ..

الرجل حقاً ثرى ، وليس مقبوض الكف ، بل هو أميل إلى إسباغ
 البذل والسخاء . قد فشت له فاشية من أموال اتخذ على بيوتها وخزائنها
 — فيما حدثتنا عائشة — مفاتيح . فهلا إذن كانت سيرته مع القوم الثوار
 خاضعة لجوده المعروف المأثور ..

على أى الحالات موقف القوم اليوم لا يستطيع أن يملكه غير الجود .
 وتقوس الكثرة الغالبة فيهم كانت أولى بأن تسارع إلى استقبال البذل
 بعد أن حرمت أعواماً طويلة إحدى متعق الحياة . ولم يغب هذا عن تقس
 على التى تعرفت نفسية الجماهير ، ولا عن ذكائه وخاطره اللامح . ولحق

بالبذل اليوم أناس حرموا أفياءهم أو انتقصت عليهم . وأنسب الساعات له . ساعة بلغ فيها التذمر من الحرمان إلى حد الثورة والجحوش في العصيان . . بهذا الخطر مضى على إلى بيت المال ، وقال لمن حضره هناك :

« افتحوه . . »

فأرسلوا إلى خازنه . فلما وجدته قد ابطأ عليه ، ضرب الباب فكسره بنفسه ، وراح يفرق ما فيه من الأموال ... وشاع الخبر في المدينة فأقبل الناس عليه من كل ناحية عسى أن يكون لهم في هذه الهبات نصيب . وسمع المجتمعون ببیت طلحة فأخذوا يتسلسلون تباعاً حتى فرغ عليه المجلس ...

وأثمرت الخطة . وفرح عثمان أيما فرح فقد نصر على عزيز قوى عنيد . وتلفت طلحة نخشى أن يفقد مكانته عند عثمان بعد أن أوشك أن يفقدها عند الناس . . . لكأنما حسب الرجل في تلك اللحظة أن تيار الأمور قد تحول إلى غير مجراه ، وريحها جرت بما يخالف هواه ، وأراد أن يكسب إحدى الحسينيين فسارع يدخل للخليفة محاولاً أن ينفى عن نفسه الظنة ، ويعتذر عما قد يساء تأويله منه ...

ولكن عثمان في ساعة نصره المفاجئة أبى أن يلين له ، بل قال بلمهجة الشامت الممرود :

« أجبث تأثبا ؟ .. والله ماجئت إلا مغلوباً ! .. فالله حسيبك يا طلحة .هـ. »

هـ

« لا أصلي بكم والأمام محصور ... »

هذه هي الكلمة التي ألقى بها على في وجوه الثوار حين جاءوه بمرضون الإمامة والخليفة محصور عليه حلقة منهم حالت بينه وبين الخروج للصلاة . وهي بمنزاتها بيان لرأيه فيهم ، وإنكار تام لوسيلة العنف التي ركبوها لنيل

مبراميهـم ... أفضتـوه الرجل الذي يمنـح كـثـلـهـم للعدوان ولو أرد به حق ؟ .
إعـا دنس الذرائع منبـيـء عن دنس الغايات . والحق لا يستعين مطلقاً بباطل أو
يكون قد خالف ذاته وأقر على نفسه بالبطلان . وهل النور والظلمة يجتمعان ؟ .

كانت معنى في خاطره قبل أن تجرى مبنى على لسانه . ما قصد بنطقها إلى
دلالة الألفاظ ، ولكنها صورة من صور خلقه تنضاف في سجله النقي إلى مثيلات
ومثيلات ... لو علموا إذ ذاك لردوها إلى أختها التي طالعهـم بها عند ما جاءوه
بكتاب ابن أبي حذيفة ، ولأوها تماماً كما رأوا الأخرى ، ولأيقنوا أنهم يـأـزاء
شخصية فريدة ديدنها سمو ، ونهـجـها ترفع ، وهدف حياتها كاه رسم المثل العليا
بعدها لكل حياة .

لم يفتـه أن في الإمامة سمـة سياسية قد يؤخذ عليه أنه استباحها والإمام
محـصور . وأنها مظهر للزعامة الرسمية قيامه بها كـفـيـل بأن يمتـبره البعض سـمـياً
وراء تلك الزعامة . وأن قبوله إياها في هذه الآونة أولى بأن يكون — في
الأذهان والعيون — اعترافاً خفياً بشرعية ابتزازها من الشيخ ... فإذا سلف
منه في حق الثوار ما هو معروف من مخالفة وإنكار فقد وجب إذن أن يأتي
على الفور عرضهم ويرده دون تمهل في الإباء .

ومضى عنهم وتركهم مقهورين ... لم يغلبهم بأسه وعدته ، بل غلبهم
إبـاؤه وأنفته . فلقد حسبوه بحاجة إليهم فوجدوه الغنى عنهم . وجاءوه يعرضون
المجد والسلطان فلمـهم أن للنفس المترفة مجداً أخـلـد وسلطاناً غير محدد ،
دونه ما قدموه وعرضوه . ووقفت حصانة روحه ثابتة أمام زخرف الإغراء .
وكما ذهبوا من قبل يـلـتمـسون الموافقة عند سواه فكذلك ذهبوا اليوم .
ومضوا إلى طلحة بن عبيد الله يـقـلـدونه الإمامة قـبـلـها فهي بلا ريب خطوة إلى
الأمـام ! .

وبقي عثمان قعيد داره . كآتى به نام وأسلم نفسه للأحلام ! . فلم يحرك

يدا ، ولم يفعل شيئاً ، بل ظل أليف استخذائه وتسليمه ، أسيراً خاضعاً لحاقات مروان يأمل كمثل أمه في وصول الأمداد .

حتى الفرصة التي أتاحها له على حين فرق المال على العامة لم ينهزها الشيخ ، بل تركها تمر دون احتفال وهي الجديرة بأن يفيد منها بعد أن فاءت بها نفوس أكثر الناس إلى الرضاء . وبقي كدأبه الأول ساكناً لا يخطو شبراً واحداً ليقرب من شعبه ، ولا ينطق بكلمة واحدة تصل ما بينه وبين هذه القوى التي أمسكت بالزمام . وغلبه دائماً عناده ، وملكته كبرياؤه . وزاد من استمساكه بموقفه شعور قوى بأنه صاحب حق إلهي في الحكم لا يملك أن يغير فيه إنسان ! . أو لم يكن هو القائل للناس حين طلبوا إليه أن يعزل الأمر :

« اتبرأ من الأمانة . . . لأن تصلبوني أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله وخلافته . . . »

وأخذت السحب الداكنة تتجمع في الأفق فلم تعد المدينة معلمة كمهددها بالهدوء والسكينة . وصار الأمر فيها للجموع المضطربة النفوس والجوانح ، والكلمة النافذة لزعماء الثوار . حكمها عقل الثورة إن كان ثمة عقل يحسك بجراح الثورات . ثم سادتها شريعة الإرهاب حتى منع الناس غيرهم من الكلام والاجتماع . . . حتى طلحة أصبح اليوم سواء بالأمس . وبدأت الجماهير لا ترمقه إلا كما ترمى قناة في أيديها إن شاءت هزتها أو شاءت تركتها معطلة حتى حين . فلقد كان رجلاً — فيما يبدو — جرفه السيل ، لم يؤت القدرة على قيادة الجموع ، وكان منحوه كرامة الإمامة في يوم فقد استطاعوا أن يسلبوه إياها في آخر لأنهم تغير قدره منعهوه ، بل ليكون هو خطوة الانتقال الوثيدة من سلطان سلطان ، فاعادوا من بعد يحرسون على أن يؤمهم في الصلاة بعد أن فازوا بإقراره لهم بشرعية منعها عن عثمان ، بل استوى الآن قيامه بها أو قيام سواء ، فإذا انتهوا إلى هذا فأولي بها إذن العافق وهو زعيم المصريين الذي داف لهيبته طوائف أهل

البصرة والسكوفة وألقت في يديه الزمام .

عقل الثورة هو الذى كان يدبر . وشريعة الإرهاب هى التى سادت
البلدة فى تلك الحقبة العصيبة من تاريخ الإسلام . أما عثمان فقد لاح كمن أعجزه
الهاء وأعياء أن يبادره بأى دواء . وبات لا يعرف له وسيلة يركبها سوى الإخلاء
إلى السكون والإيمان فى الهدوء والركود ... لكأنما فرغت البلدة منه وفرغت
أيضا من داره . لكأنما الأحداث سلبتة القدم واللسان .. وأما مروان
فقد ظل أسير حقه ، كليل البصر فى العواقب والخواتيم . كان شديد الكلف
بنفسه ، بالغ الأثرة ، حربصاً على سلطانه وسلطان ذويه فلم ير مطلقاً أن يسارع
إلى التضحية الوحيدة الكفيلة بتجنيب البلاد ويلات الانقسام ... هذه التضحية
التي لم يكن يملكها سواء أباهما الرجل على دينه وأمته لأن متعة النفوذ — عنده
— غاية لا يعز فى سبيلها إتيان كل محظور ، ويهون دونها انتسلم البلاد
وما يتبع الانقسام من وهن الإسلام .

سدر فى النى وركب غروره ، وأبى أن يقنح عن سلطته وإن علم تنحيه
كفيلاً بأن ينفى الهدوء والحلام ، وراح يصابر الزمن ما وسعة عسى أن تجيئه
لحظة سعيدة بأنباء وصول الأمداد . إن أملة فيها لم يقمده ، وحلمه الهانىء
عنها لا يبنى يراوده فى اليقظة وفى المنام ، وإنه لعل يقين من حضورها ذات يوم
فيشتقى بها لنفسه ، ويقمع عدوه ، ثم يقف على أشلاء أولئك الذين أرادوا هدمه
وهم لقي شائه تحت قدميه ، ممزقين هامدين ، لا يستطيعون دفع بلائه ولا كبريائه .
ولكن الزمن كان عدواً له ولعثمان ، فلم تصل الأمداد ، ولم يسارع أهل
النجدة بالأمصار إليه . بدا أعمال الخليفة الذين هاق عليهم حياته كأن قد حالفوا
الثوار عليه ! ... فلقد أبطأوا ، أو هم لم يقدرُوا هول الخطر المحدق به حق
التقدير ، أو عساهم لم يلقوا استغاثته بمجد واحتفال لأنهم ظنوها أزمة كغيرها

من أزمات كغيرها لن يلبث حتى يجتازها بسلام، أو غلب عليهم تردد هم القديم المهود فأعيانهم أن يتبينوا موقفهم وما عسى يجعل بهم أن يعملوه . فإذا المرء أحسن بهم الظن فهم غير جديرين بمناصبهم ، وإذا حاسبهم فالتزم الجسد في الحساب فهم متهاونون أجزموا في حق وليهم الشيخ ، وإذا قدمنا في خواطرنا ما ساف من مواقفهم لما وسعنا إلا أن نراهم — كمن قبل — حريصين على ما في أيديهم من سلطان ، يؤثرون السلامة لأنفسهم ولتلك الإمارات التي ارتفعوا بها على هام الناس .

أم هم ياترى اختاروا دور المشاهد من بعيد انتظارا لما قد تسفر عنه الأحداث ؟ .. السلامة تنادى بالموازنة بين أمر وأمر ، وبين مغامرة ومغامرة وإن كانت المغامرات لا تستهوى المعنيين بالسلامات . . . ولكن عمال عثمان قهرهم الزمن على الاختيار بين نوعي مغامرة فوجب أن يستمينوا بالحذر عند الاختيار . أعلى عثمان أم على الثوار ؟ .. أى أولئك ياترى ينصرون — بل أى أولئك سوف يعقد له في نهاية الأمر لواء الانتصار ؟ . ما أحسب إلا خواطر من هذه الشاكلة طافت برؤوس ابن عامر ومعاوية وسعيد وهم يقرأون كتب عثمان . وما أراهم إلا تدبروا طويلا ، ثم ترددوا طويلا قبل أن يستقر أحدهم على حل يرضاه . ولكنى أراهم جميعا يسارعوا لإفقاد الشيخ الذى حوصر عشرات الأيام وكان في استطاعة جيوشهم أن تصل إليه في أيام قليلات .

ثم دنت اللحظة الفاصلة التي توشك أن تحسم بين عهدين وتسير بيدى النهاية إلى النهاية .. فلقد أسرع الثوار بالأزمة إلى ذروتها ، وجردوا على الأمير أعتى سلاح ينجز الكفاح : منعوه الماء فأصبح ، وهو بداره ، كمن في متاهة صحراء وإن كان قاطع البيد يستطيع عادة أن يعلل النفس بالسراب دون الشراب ! ..

سلوا على عثمان سيف العطش ، ووقفت جموعهم ببابه تحول بينه وبين من عسى تأخذهم الشفقة فيسمعون إلى بل أوامره بشربة ماء . . . عذيرهم في هذه

القسوة أن الأيام تصرمت تباعا وهو على عناده ، مسرف فيه ، لا يتقدم إلى وفاق ، ولا يسمع لهم وإن جأروا لديه بالنداء ، ولا تجيبهم لطلب واحد مما طلبوا . وسعوا إليه جاھدين أنايا لنصع والملاينة ، وأنا بالمف والمخاشنة . فإذا جاءتهم الأنباء بمد طول اضطبارهم وكفهم عنه بقصة أمداد ترحف هليهم من لدن هماله ، فقد رأوا إذن حقاً عليهم نحو نفوسهم ونحو مرامهم أن يراعوا ثورتهم ويتحصنوا عن أهدافها بكل سلاح .

ويعلم على فيسترجع ويأسى لحال عثمان . ويفيض به الحق أضافاً على الثوار ، ولكنه يفور على أصحاب رسول الله آلاف الأضعاف ، فهذه الفئة المعلمة بين الناس بالهدى والرشاد نامت عن المهنة النازلة بصاحبها وقعدت عنه ، ولم يتقدم منها واحد إلى كفاح ذلك البغي المرذول ، بل لاحوا جميعاً كمن يؤثرون السكوت على تصرف الثوار عن رهبة منهم أو عن مصانعة . وهرب الكثير بأنفسهم من حلبة الصراع لتبعد الظنة عنهم . ومن لم يقم منهم بدور كأدوار هؤلاء فقد شارك أهل الثورة وركب مركبهم إن لم يكن قد ألهم على الشيخ بزخرف الأقوال وبذل المال ...

ولكن علياً أبى عليه قلبه الكبير أن يخلى — كغيره — بين الثوار وبين الخليفة المحصور . وهاله قدر الأداة التي جردها القوم لنضاله . فما كان أى كفاح عند أبى الحسن إلا مبارزة نظيفة بين خصمين ، لاتصح بغير تعادل السلاحين . . . امتثاله لشرعة الفروسية أملى عليه هذا ، أو قل إنها نفسه الكريمة النقية التي رسمت هكذا شريعة الفروسية . . . فلما أن رأى الثوار يححفون ولا يلتزمون الرحمة ، ويجورون في سبيل النصر على مروءة الانسانية ، هب من فورهم رجلاً فرداً تظاهره مثله ويؤيده نبلة ، اهناضل وحده كل هذه الآلاف .

كان يعلم أن رجال الحصار تحينوا دائماً أيام غيابه عن المدينة بخير أو بئاء يبيع ليشددوا حلقهم على الأمير . ولكنه لم يكن يملك شيئاً من أمر مكثه أو ذهابه ، بل هو رهين بمشيئة عثمان ، إن شاء نقاه أو شاء إبقاء . فلقد أبى الشيخ

حتى في أحلك ساعات محنته أن ينزع أصول الشك من قلبه . وظل كعهده
 واجداً على كل شيء ، لا يستطيع أن يتحرر من ذلك الشعور الموروث بالنقمة منه ...
 لكان مر الأعوام عجز عن استئلال ما في صدره أو إخفائه بالنسيان في قرار
 سحيق . لعل شجرة الحقد لا تعرف الحريف ، بل هي مورقة أبداً ، خضراء
 أبداً ، تتجدد أغصانها وتخرج طلعا مع كل صباح ... أفنسى عثمان ياترى
 الجهود الدائبة التي بذلها على من أجله وجاوز فيها كل مأمول من ولى مخالف
 فضلا عن غريم مخالف ؟ بدا هذا من تصرف الشيخ ونعت فعالة عنه . فما زال
 ابن أبي طالب نفس الهاشمي القديم والمنافس الغريم . ولئن ألزمت للظروف
 يوما عثمان على مخالفته فإنها إذن مخالفة ضرورة ، موقوتة بحين ... كذلك ظلمت
 حال الخليفة نحو على بالرغم مما خبره من دأبه على صيانة حكمه المنذر بالانهيار .
 فإن هي إلا حال نفسية لاسلطان للشيخ عليها وليس له إلى إصلاحها سبيل .
 وما دمنا عرفنا إبان سطوته واستتباب أمره شديد الريبة فيه فلسنا إذن ننكر
 عليه ريبة . وهو في إبان محنته وخاطره فريسة سائقة في فم الظنون ...
 وكذلك راح ذهنه الكليل المكدود يراوده على النقيض والتقيض . إذا تخزبت
 عليه الأمور وخاف الناس على نفسه بعث إلى على فأدناه ، وإذا رآهم لانوا له
 وسكتوا عنه رأى في سكونهم هذا مدى سلطان غريمه عليهم نخافه واقتصاه .
 ثم لا يني هكذا يدنيه ويقصيه والرجل صابر لا يبرم به ولا ينقم منه قلبه الكبير
 الكريم . بل يستجيب له في الفنى وفي الدعوة كليهما سواء بسواء ...

استسفره ذات مرة إلى الثوار يردم عنه ويتراضاهم له ، فلما علمهم قد فاءوا
 إلى السكون ، لعب الوهم يعقله وخشى مغيبة افتتانهم به مادامت له عندهم هذه
 الكلمة المسموعة من دون الناس ... وأرسل ابن عباس يقول له :

« يا أبا الحسن ، إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج إلى ينبع ... »

فابتسم . ولم يزه على أن قال في هدوء وهو يهيم بالرحيل :

« ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جلاً ناضحاً بالغرب. أقبل وأدبر! .. بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ... أما والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً ... » .

ومع ذلك فلم يحمل ضغناً ، بل انطلق إلى نصرته سباقاً وقد علم أن الحصر جاوز في الشدة كل حدود ، وأن مرد الأمر فيه لطلحة دون زعماء الشوار الذين اتخذوه ستاراً يدفع عنهم العيون والظنون ، ويضفي على حركتهم سمة الحق الجديرة بها شخصية هذا التيمي صاحب رسول الله . علم هذا كله فجاوز الجموع حتى خلس إليه ، وقال له يهيب بمروءته وأريحيته :

« يا أبا محمد ، نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان ... » .

فهز الرجل رأسه بإباء ورد في اعتداد

« لا والله . حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسهم .. »

ولكن الساعة لم تنسح للمساومات . وإنما هي مسألة حياة حفظها رهين بأيدي اللحظات قبل الساعات ..

ولم يطل بعلی غياب ، بل أقبل على القوم من بعد تتبعه على الأثر ثلاث قرب تنضح بالماء ، فما بدت لأعين أصحاب الحصار حتى لغطوا ، وشمل الهمس شفاههم ، وملأت الدهشة نواظرهم من هذا التحدى الذى يطالهم به ابن أبى طالب ، ولكنهم تهيّبوا أن يمنعوهم . ومضت أبصارهم تلف بطلحة وتستقر على وجهه كأنها تناجيه أو تستوحيه ...

وأقبل الرجل على على ، متمهلاً كأنه يقصر نفسه على السير ، وراح يرمقه في هدوء وسكون . وتحدث في عينيه إباؤه على صاحبه ما جاء فيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الناس يلتثمون عليهما من كل ناحية حتى ضربوا حلقة حولهما ، ثم وقت فئة متأهبة في وجه حامل الماء تسد عليه الطريق ...

فما أسرع أن صاح على بهم صيحة غضب واستنكار وهو يوجه حديثه إلى

ذلك الزعيم :

« أدخلوا عليه الروايا أيها الناس . »

فاستخذى القوم، وانفجرت صفوفهم على كره . وأخذ الغضب من طلحة مأخذه وهو يرى القرب تدخل الدار . ولكنه طوى في نفسه سخطه حتى غادر على المكان .

ولكنها كانت مرة واحدة ، المفاجأة فيها شلت حركة الثوار وظهرت هلياً حتى أنجحت مساه . فلما أن انتفض الأثر الذي خلفته بنفوس القوم راحوا ثانية يحزمون أمرهم ويضيقون حلقة الحصار

ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه ، وأصبح عثمان يتلفت فلا يرى قطرة ماء يداره تبل صداه وصدى أهله وفيهم نسوة وأطفال . وأرسل كرة أخرى يستنجد بعلي . فمن عجب أن يكون رسوله إليه هو أحد أبناء الرجل الذي مهد لمقتله وأعان الثوار عليه ! . . لم يكن يستطيع أن يبعث أحد مواليه لأن القوم ضيقوا على الدار ومنعوا كل خارج منها كما منعوا كل داخل إليها ، فكان رسوله هذه المرة ابن جارية له من بني حزم ذهب عنه يطلب المعونة من علي ، ثم انثنى إلى بغية الصحابة ومنهم طلحة ، فأزواج النبي ومنهن عائشة ، عسى أن يستطيع أحدهم أن يبادر إليه . .

ولكن الحلقة كانت اليوم من حديد، وطريق الدار قد سدته كتل متراصة من الثوار لا تريم هن مواقفها . . حتى ابن أبي طالب لم تسعفه هيئته عند القوم ، بل أبوا عليه ، وحالوا دونه ودون بغيته ، ووقف يهيب بهم فلا يسمعون له ، وينصحهم فلا يراعون عنه . .

قال لهم عسى أن تنفذ كلماته إلى قلوبهم فتلين :

« يا أيها الناس . . . إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين . لا تقطعوا عن الرجل المسادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى . وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحاون حصره وقتله ؟ . . » .

فما زادهم حديثه إلا عناداً ، وقالوا له :

« لا والله ولا نعمة عين ! . . لا نتركه يأكل ولا يشرب . . . »

وكان الليل قد مضى إلا أقله ، وظلمة الغلس تلف المكان كله في ستار قاتم

محجب الدار عن الأعين . وتلفت على برهة إلى ناحية بيت هشام لعله يرى أحداً من ساكنيه فيشير إليه بأنه فشل فيما جاء فيه عسى أن يدبروا أمرهم بطريقة أو بثانية ، ولكن الظلام رد طرفه .

وتفكر هنيهة . وجب إذن أن يعلم عثمان أنه صدع بأمره وقام له ثم حيل بينه وبينه حتى لا يركن الشيخ إلى أمل وصوله ساعة بعد ساعة . وحتى لا يذهب باله إلى أنه تخاذل عنه . . . فلما أن أعياء أن يشير لأهل الدار بما أراد ، خلع عمامته ثم طوح بها إليهم لتكون مغنية عن أفصح الإشارات .

وكذلك أفلت زمام الأمر وأصبحت ثورة تنقاد كغيرها لعقل الثورات ، وزاد طغيان أصحابها بقدر زيادة الأنباء بقرب وصول الأمداد ، وعنفوا بكل مخالف وإن أتاهم بنصح أو حضهم بخير ، ولم يمودوا بعد يراعون مكانة أحد أو يحلون قدره ، بل ركبهم الغي حتى اجتروا على أم حبيبة زوج الرسول حين أنت تريد أن تعطف قلوبهم على الشيخ المحصور ليدخلوا إليه المساء ، وضربوا بغلتها حتى ندت بها ، وأوشكت السيدة أن تتردى عن مركبها قتيلة لولا أن تلقفها بعض الناس .

بهذه الروح الجامحة وبأمن منها في الجموح والعصيان كانت تسير الثورة المشبوبة حتى أيقن على أن الشر النازل بات يطرق الباب ، وأن على الخليفة اليوم حقاً حيال نفسه يسبقه آخر حيال أمته ، وكلا الحقين رهين بالآخر متوقف في البدء والنهاية عليه ، كان العلاج في يده وحده ، في يد هذا الشيخ المفيد الذي أبى طوال عشرات الأيام أن يأخذ بمسلاج واحد يحسم سريان الداء ، ولم يكن دواءً عصياً يستحيل عليه ، بل هو في مقدوره وقيد يده ، فلو أراد الجدد في استصلاح الأمر لما أعياء أن يلتمس الخير ، ولوسعه أن يلين مرة لمشيئة الإجماع ، ولا استطاع وهو بميد عن الخطأ كل البعد أن ينحى مروان عنه ، ويخرجه من أمره فيستقيم له الأمر . فما أحسب أحداً من الناس كان يطمع من خليفته في أكثر من هذا الإجراء ، بل أحسبهم به جد قانعين ، وما دام الرجل

الذى كانت أصابعه تحرك أميرهم كما تشاء ، وعلى غير ما يشاءون وتشاء الأمة
 جمعا قد أريد له البعد عن السياسة لغير هود ، فإنه إذن قد صالح الحال واستقر
 السلام . ولكن عثمان أبى عليهم مطلبهم وأوطأ رقابهم كرها صاحبه مروان ،
 وراح فى سبيل إبقائه يتخبط فى الوعود دون وفاء أفهو يا ترى قد آمن
 بحسن سياسة مروان فأبى إلا إقراره ؟ . . . أم قد خجل - وهو الأرمحي
 البر بأهله . . . أن يخذله ويقعد عن نصرته فى ساعة محنته . . . أم قد أيقن أنه
 مظلوم تجنى عليه الناس ؟ . . لا نراه فى أى هذه الحالات قد التزم الصالح العام
 حين أبقاء ، لأن إجماع الرأى على عزله كان أجدر بأن يلتقى عند عثمان أذناً
 سميمة ونفساً راضية مطيعة . وما نرى مروان إلا رجلاً أعماه حبه لنفسه حتى
 استمسك بصالحه وإن كان دونه حشف ناصره وانقسام صفوف الإسلام .

تفكر على جاهداً فى الحل الذى يكشف الغمة عن الأمة . فما وسعه أمام
 عناد الشيخ إلا أن يراو فى تفريق الثوار بأية وسيلة من الوسائل عسى أن يتيح
 للخليفة مهلة بعد ذهابهم لإحسان التفكير ، ولم يكن يستطيع إلا أن يشير
 وإن كاد ليعلم أن مشورته ستكون دبر أذن فهم عثمان ، ولكنه رغم هذا رأى
 على نفسه حقاً نحو ضميره قبل أميره ، فهم ليسعى إليه بالرأى فى جمبته التى
 فرغت بعده من ذخير الآراء . . .

هم ليخرج من منفاه فاذا رسول يأتيه فينبئه باشتداد الطعن على عثمان بعد
 أن أبعدته عن المدينة ، فقد اغتتم الزبير وطلحة كدأبهما غيابه فنشطا فى العمل ،
 ورجوا أن يميلا إليهما قلوب الناس . . . ثم قدم إليه الرسول كتاباً من عثمان
 يقول فيه :

« ... أما بعد ؟ فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر
 الناس فى شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي ، وطمع من
 لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب ... فأقبل على أولى :
 فإن كنت مأكولاً فكن خيراً أكل وإلا فأدركني ولما أمزق »
 فما شاب صفاء نفسه هذا الغمز الذي دسه عثمان في طوايا الكلمات . بل غفره
 ومضى سريماً إلى الدار وفي خاطره أن الساعة لم تعد ساعة توفيق بل ساعة جهاد
 وأن عثمان وقد أبى طريق الموافقة والانتقياد فعليه بطريق الكفاح والجلاد ، وأن
 الثوار اليوم لن يسمعوا لأى كلام ولكنهم قد يذعنون للحسام وانطلق بطائفة
 من أهل بيته قليلة فيهم الحسن والحسين ابناه ، وعبد الله بن جعفر ربيبه
 وابن أخيه ، وقد اعتم بعمامة رسول الله وتقلد سيفه ، وحوله وأمامه مشى أولئك
 الفتية الأنجاد .

وأشرف على جموع الثوار وقد لمت في أكفهم النصال والحراب كأنهم
 في ميدان قتال . وعلم أنهم اليوم لن يوسموا له إلى باب الدار إلا أن يقهرهم
 بسيفه صاغرين ... فهجم سريماً . وبغت بنفيره آلافهم المجيشة . وبدأت الآن
 منه صورة صادقة لذلك الرجل الذي قال فيه رسول الله إنه جيش وحده في
 سبيل الله . فما أسرع أن فرق القوم أمام هيئته وتفرقوا له . ومضى بينهم غير
 مدافع حتى دخل الدار ..

ولقي عثمان هناك قد أخذ منه الهم مأخذه . كثيباً محزوناً قد أثقله وقر
 الأحداث فراح يمين له الأمر ويهديه إلى ناحية العمل التي لم يعد له إلى
 سواها سبيل ..

وقال له بعد تمهيد قليل :

« يا أمير المؤمنين ، لا أرى القوم إلا قاتليك .. »

فأجاب الشيخ بتهافت واستسلام :

— حسبي الله ونعم الوكيل .

— فرنا فلنقاتل يا أمير المؤمنين .

فرفع الشيخ يديه كأنما ليحول بينه وبين ما يريد ، وقال :

— أنشد الله رجلاً رأى الله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً ألا يهريق في

سبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه ..
— يا أمير المؤمنين مرنا .

وأبى عثمان . وأصر على الإباء كما أملت نفسه الرقيقة . فهل علم أن وصول
الأمداد كان كفيلاً بقمع الفتنه دون إراقة دماء ؟ .
وخرج على من لديه وهو أسيان عليه ، فارغ الجمبة من كل أداة بمقدوره
أن يسخرها في عون الشيخ ، ولكن عثمان التزم دائماً سياسة الإباء ، فأبى كل
العروض المبذولة لإعادة السلام وإقرار النظام ، سواء بطريق القوة أو بطريق
التوفيق ، فلا هو أجاب مطالب الثوار ، ولا هو اعتزال الأمر ، ولا هو قابلهم
بالتقتال قبل أن يقتلوه ..

ولكن علياً لم يرض أن يدع الرجل وشأنه لأنه عهده لا يحسن القيام على
أمر نفسه ، بل بعث إليه ابنه سبطى رسول الله ، وبعض أهله ، ونهراً من
مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقوه
قال للحسن وللحسن ولها يتأهبان للذهاب :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدع أحداً يصل إليه
بمكره .. »

فصدع الفتیان . وتوجهت هذه الطائفة من بنى هاشم ومواليهم إلى باب
عثمان يترسون بصدورهم دونه ، ويذودون عن الشيخ الضعيف المغلوب ، عن ذلك
الرجل الذى غلبه زردده ووهن عزمه قبل أن تغلبه عدة عدوه وخصمه . وكانوا
بهذا أول من سلوا سيفاً لرد الثوار .

وخجل بضعة من الصعابة من أن يقوم على فيما قعدوا عنه ، فترسموا خطاهم
وبعثوا بأبنائهم كبعث الحسين .. حتى طلعت يمث ابنه ، وحتى الزبير أيضاً
خشية أن يرميا بقلة الروعة . فما كانا فى الواقع يريدان قتل عثمان وإن أرادا
نزع ملكه عنه ..

ودخل الحسن من بعد على أمير المؤمنين ، متأهباً بمدته ، وفى يده سيفه ،
وعليه لباس القتال .. وقال له كأنما ينطق بلسان أبيه :

« يا أمير المؤمنين .. إني طوع أمرك فرئى بما شئت .. »

فلم تتغير لهجة الشيخ عنها من قبل ، وأجاب :

« بل اجلس يا ابن أخى فى بيتك حتى يأتى الله بأمره .. »

ذاك رأى الذى التزمه حيال مشورة على حين أراده على التوسل بالقوة لفض الثوار وإعادة النظام ، تقيد به الشيخ حتى آخر لحظة من عمره ، وأراد أن يلزم به مناصريه .. ولكن الحسن كان قد تلقى الأمر من أبيه فوجبت له الطاعة . وحق عليه أن يدفع عن أبي الدفع عن نفسه وبات منها بمنزلة غريم !!

٦

أجال عثمان بصره فيمن وقفوا ببابه ، كأملى العدة ، مشرعى الأسنة تأهباً لرد الخطر عنه إن كان نعمة حاجة للكفاح ، وراح يستعرض الوجوه النبيلة التى لم تفسدها بعد الأيام ، فكلمها مرايا لهذه القلوب الفتية الصافية التى تخفق فى صدور هؤلاء الفتية الأجداد .. هذه زهرة هاشم ، نسله الطيب الكريم ، تم عن قدر ذلك الرجل الأول الذى أصبح ذكرى شذية تعطر التاريخ ، وتعيد الآن إلى الأذهان بموقفها النبيل صور نبلة وأريحتته . لا قرين إذن له ولا شبيه فى النفوس لهذه المروءة التى أنجبها على الزمن رجالاً تعز فى الرجال ، وتقل فى الأشياء والأمثال ، وكفى بهم رفعة دونها تطاول الأعتاق والجباب أن كان منهم سبطا رسول الله ..

ثم أدار فى عقله خواطره .. ها هو الموسم يقبل ، والناس يتهبأون فى المدينة وفى بلاد الإسلام للخروج لبيت الله الحرام . والأمة كلها توشك أن تمضى إلى مقام إبراهيم . والشوق يملأ قلبه أن يسير فى طليعة الركب فيزور دار الهجرة ودار دين الفطرة الفويم . ولكنه الآن خاصمه يومه وتبدل قومه . وأصبح من بينته فى قيد حديد لا يستطيع معه أن يرح إلى قريب أو إلى بعيد ..

وأعاد عينه ترمق الفتية ، وتغر بالوجوه النبيلة التي أحاطها غضبها من أجله وجوه أشبال ، وبالعيون النقية التي انمكس في صفائها لهب الغيرة عليه وتلونت نظراتها بإشراقه . وبالأجساد القويمة التي بدت لطرفه رماحاً . . . داره الآن كعرين بدر ، تلك الجنة التي أشرف منها على المعركة رسول الله ، وقام أصحابه حولها يدافعون عنه . . . فيالطوباه اليوم وهو يمرين يذود عنه حفيداً رسول الله . . .

وهفت للذكرى نفسه . وغامت عينه برقائق دموع ، ولكنه سارع فرقاها ليفرغ لما جاء فيه . فما عاد ثمة وقت يجوز أن يضيع .

ونادى بصوت رقيق بين الجميع :

— يا عبد الله . . . يا عبد الله بن عباس .

فانطلق الرجل إليه خفيفاً لسمع منه .

— لبيك يا أمير المؤمنين . . .

— اذهب أنت على الموسم يا عبد الله .

فاعترضه دون إمهال وهو يشير بسن سيفه إلى خارج الدار :

— والله للجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إلى من الحج .

— بل نشدتك الله أن تنطلق . إني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام

على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم في حرم الله وأمنه . فرأيت أن أوليك .

وبث معه بكتاب ليقرأه بالموسم عسى أن يمطف عليه القلوب فيقدم

الناس من مكة ناصرين . وخرج ابن عباس يلتمس علياً لهقبته ويستأذنه في

السفر والقيام بالمهمة الموكولة إليه . والقوم إذ ذاك خارج الدار قد أوهى

جلدهم تواتر الأخبار بوصول الأمداد من الكوفة والبصرة والشام .

كانوا يديرون الأمر في أخلادهم فلا يستطيعون أن يجحدوا حلاً ينقذهم من

النازلة التي أوشكت أن تدهمهم وهم على الوعد الذي قطعه لهم عثمان من زمان

طويل ، وهو على النكت الذي أصر عليه . . . فلقد ظل الشيخ معانداً أبداً

لا يستمع لنصح راشد . ولا لمشورة أمين . ولا يعمل من جانبه لفض هذه الفتنة التي همت أن تسيل فيها الدماء وقاربت أن تفرق أمر الإسلام . بل استكان لتلك الطغمة الخاسرة من ذويه حتى قال علي — ذلك اليوم — فيه :

« ... ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفه من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها ... »
فقال ابن عباس وليس يسه في هذا المقام إلا الاسترحام :

« فلو رأيت أن تقوم دونه يا أبا الحسن ... فإن له رحماً وحقاً . »
فتكلمت الرقة في عيني ابن أبي طالب ، وتكلم الرثاء ... ثم تكلمت معهما قلة الحيلة بعد ما بذل في استصلاح شأن الأمير الذي نكبت معه كل وسيلة .

ومضى عبد الله ، وأوشك أن يخرج من المدينة اليوم كل راغب في زيارة بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الفراء ... وعلم عثمان ومن بداره أن عائشة تتأهب هي الأخرى للمسير لمكة فلعله بعث إليها إذ ذاك يريد أن يستأخرها عساها تستطيع أن ترد عنه الثوار . أو لعل أحداً آخر من أهله أراد أن يرمي بهذا السهم الذي لم يبق سواء ... أو لعل مروان نفسه وقد رأى القوم يتحلبون للشر وقد أثارهم نبأ اقتراب الأمداد قد أراد أن يعمل على تسكين الناس حتى تفاجأهم الأمداد ... على أي حال لا نرانا نلبث إلا قليلاً ثم نجد ابن الحكم يستطيع بوسيلة أو بأخرى أن يغادر البيت الذي خربت عليه حلقة الحصار ، فيمضي إلى أم المؤمنين ومعه زيد بن ثابت ، يحاولان معاً أن يحملها على البقاء وعلى تسكين الثوار .

وتصغى السيدة لما يقولان ، وتفسر نفسها على الصمت والسكون حتى يفرغا من الحديث ، ثم لا تستطيع في نهاية الأمر إلا أن تهتف يزيد في لهجة ساخرة مبطنة بالاستنكار .

« وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساريق قد أقطعكما عثمان وأعطاك من

بيت المال عشرة آلاف دينار ! ... »

فبهت زيد ولم يرجع عليها بحرف . وحاول مروان من بعده أن يتكلم
فهرته ، وأشارت له بالقيام . .

ونهب الرجل من مجلسها مستاء . وألقى حديثها العنيف بقلبه مرارة
ارتدت خلال حلقه فهمهم بكلام وهو يهم بالخروج . .
ولكنها سمته بأذن المرأة التي لا يمز عليها سماع الهمسات . . فأسرع
أن صاحت به :

« يا ابن الحكم . . أعلّ تمثل الأشعار ؟ . . قد والله سمعت ما قلت .
أتراني في شك من صاحبك . . والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة
من غرائر غيظ عليه فألقيه في البحر الأخضر ! . . »

ولكنها حين خرجت فرأت كيف اشتد أمر الثوار خشيتهم على الشيخ
وامتلأت نفسها بالرثاء له إلى جوار سخطها عليه . . فلم تكن لتريد له ذلك
المصير المخوف الذي بات منه على قيد ساعات ، لم تكن تريد أن يراق دمه وإن
جاهدت طويلاً لتخرجه من أمره بعد يقينها بأنه أساء السيرة في الأمة ولم يعطها
حقها عليه . . غير أنها — مع ذلك — لم تستجب لرغبة مروان في البقاء حين
عاد إليها يقول :

« يا أم المؤمنين . . لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل . . »

فأجابت . وهي تحاول أن توائم بين السخط وبين الرثاء :

« أتريد أن يصنع بي كما صنع بأُم حبيبة ، ثم لا أؤد من يمنعني ؟ . . »

لا والله ، ولا أعير ، فلست أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء »

ثم رحلت عن البلدة ، كما رحل غيرها من كبار الرجال ليكونوا بعيدين
عن مهد الفتنة . فلا حقا نصرُوا وقاموا فيه ولا باطلا ناهضوا وأعانوا عليه .
ولكنهم فروا من الميدان تهيئاً من الكفاح ، وتركوا الخليفة المهيض الجناح
لا يجسد من يحمي ظهره أو يكفكف عنه ، بل هم في غالب الأحيان كانوا
قد ألبوا عليه من البدء لغاية عامة أو لغرض خاص وفي حسابهم أن تسير
الأمور على ما يشتهون ، فلما أن رأوا زمامها قد أصبح دونهم في أيدي

الثوار تواروا عن الأعين عسى أن تنام عنهم الظنون .

سار بها الركب حتى شارف الصلصل فلقبها هناك ابن عباس وهو يشق طريقه إلى قبلة الإسلام ... وراى لزاما عليه أن يتقدم فيحييها ، فإذا بها قد نسيت رثاءها لحال عثمان ورقبها له حين غادرت المدينة ، وهى طعمة سائفة بأيدي محاصريه ، ونسيت أيضاً استرحام مراون ومازالت كلماته فى سمعها ندية لم تطل عليها الأيام ... وأقبلت على الزائر نوغر صدره على الخليفة ، وبدعوه كسابق عهدها مع سواء للتأليب عليه .
قالت له مخاطبة :

« يا ابن عباس ... أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا — أن تمخذل عن هذا الرجل ، وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفمت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ... وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر ... »

فما أسرع أن أجابها على الأثر ، كأنه علم خلاصة عرضها فأعد له الجواب من زمان طويل :

« يا أمة ... لوحدث بالرجل خدث مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ! ... » واكتفى بهذه الإشارة القصيرة التى تقنى دلالتها عن كل بيان . وأحست بمرارة الخيبة وقد كانت تطمع فى نصرة ابن عباس ووقوفه إلى جوارها للكفاح من أجل الهدف المرموق الذى ترجوه . وبان لها هى المنار ووضح السبيل الذى سوف تسير فيه رغبات الناس ! ... فما هم إذن بناصرى صلاحها ولا بمجهمى رأيهم عليه . وليس المال أداة الترجيح فى هذه الحال ، ولكنها مزايا وصفات دون أثرها الفعال إغراء المال . أفئن دهم الأمر لن يفزع الناس لغير على ؟ ... لغير غريمها القديم الذى لا تملك إلا أن تضيق بسمع اسمه فضلا عن ضيقها به ؟. لودت فى هذه اللحظة أن تكشف عن دخيلة نفسها نحوه أمام ابن عمه ... وأن

تذهب في إطفاء موجدتها عليه إلى المدى الذي يستطيعه لسان ناطق عن قلب حائق ... فما نسيته قط منحرفاً عن شد أزرها إبان قصة الافك ، ولا منافساً خطراً أراد أن يتزأبها خلافة الإسلام ، ولا شريكاً لها في حب زوجها يأخذ بعض نصيبها من قلبه الجدير بأن تضن به على غيرها من نساء ورجال ... إنها المرأة الخالدة ! .. إنها ذات الطباع والخلال والميول وإن هذبها كساء زوج الرسول ! .. رهل المرأة إلا أهواء ؟ ..

وفي هدوء يخفى ماثار بصدرها من الضيق وشعورها بالخلالان ، هتفت ترسم نهاية الحديث ،

« إياها عنك !. إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .. »

وانطلقت بالركب إلى غايته : وانطلق كذلك عبد الله ليتأوى على أهل مكة ومن حضرها من حجيج رسالة عثمان :

«... وجئت نسوة النبي حتى كلمتهن ، فقلت ما تأمرنني ؟ . فكان يؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ، وتدع معاوية فأعما أمره أمير قبلك ، فإنه مصمح لأرضه راض به جنده . واردد عمرأ فإن جنده راضون به ، وأمره فليصلح أرضه . فكل ذلك فعلت . وإنه اعتدى على ... كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر استعجلوا القدر ، ومنموا منى الصلاة ، وحالوا بيني وبين المسجد ، وابزوا ما قدروا عليه بالمدينة .. كتبت إليكم وهم يخبرونني إحدى ثلاث : إما يقيدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء ، وإما أعزل الأمر فيؤمرون آخر غيري ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيأرون من الذي جعل الله لي عليهم من السمع والطاعة . » ومع ذلك فلم يكن الشيخ قد أَرْضَى حقاً الثوار وفعل كما أشاروا عليه ، بل هو أنف أن يخضع لمطالبهم ويستجيب لها ... وحتى عمرو بن العاص لم يكن رده بل بقي بعيداً عن الإمرة التي اختارها له .. ولو أن امرأاً في هذه اللحظة التي قرئت فيها رسالة عثمان استطاع أن يقطع الأطوال والمسافات

في لحظات ، لوسمه أن يرى ابن العاص جالساً بقصره العجلان بناحية السبع من أرض فلسطين ، بمد أن ألب الناس على عثمان في المدينة ، ومد أن راح يؤلب نفوس من يلتاقم بأى مكان وبشكل مكان ، ومد أن غادره محصوراً بيته بهم به زمر الثوار . . . لو أن امرأ شاهده بمجلسه إذا ذاك لآه شديد اللهفه على مصير الأمير ، لآعن خوف من خطر دام أن ينزل به ، وإعما تعجلاً لهذا الخطر أن ينزل . . . يستطلع كل ركب يمر به فيقول :

« من أين قدمتم ؟ »

فإذا جاءه جواب السؤال : « المدينة » قفز قائماً وسأل بلهفه وفضول :

« وما فعل ذاك ؟ »

« تركناه محصوراً شديد الحصار ... »

هنا يطمئن باله ويهدأ خاطره ، ثم يهتف بغبطة ومباهاة :

« أنا أبر عبدالله ! .. قد يضطر العير والمسكواة في النار ... »

ثم لا يمضى به سوى قليل حتى تأتیه الأنباء بمشتهاه ... فما انقضت بضمة أيام فلائل ، حتى جلس هذا الخائف الموتور نفس مجلسه ، بقصره ذاك ، وقد أحاط به أبناء — محمد وعبد الله — ومعههم سلامة بن روح الجذامى ، وصريهم إذ ذاك ركب راح عمرو يسأله كمادته حتى جاء الجواب الذى فيه شفاء نفسه :

« قتل ! »

فلعله أوشك على الأثر أن يطلقها صيحة ابتهاج ... ثم قال يفخر بموقفه من

الشيخ ، ذلك الموقف الذى أحر انتصاره على غريمه بمد طول اصطبار :

« أنا أبو عبدالله ! .. إذ حككت قرحة نكاثها ! »

وتريث هنية يحدد فيها زهوه ، ثم أردف يقول :

« ... إن كنت لأعرض عليه حتى إنى لأعرض عليه الراعى فى غنمه

براس الجبل ... »

ولقد صدق فيها قال . فلقد فعل ، ولقد ألب المدينة على عثمان ، وألب

صحبته . ومضى يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث الخليفة ويحرضهم عليه ...
صدق ابن العاص وملاً الأرض والقضاء بالدعوة إلى الخلاص من عثمان ...
حتى إذا أينع ثمره ، وقتل الشيخ ، وسالت دماؤه المسفوكة ، قام هو نفسه لا يأخذه
تلوم ولا استحياء ، وقد سل حسامه ليطاف بدم الخليفة المظلوم عثمان ! . .

ولكنها نفس ابن النابغة التي تبيع المحظورات حين تشاء ! وهي صورة
صادقة لكثيرين من معاصريه الذين لا نحسبنا مستطيعين تخيل حال نفوسهم
قبل الإسلام عادت هذه أحوالهم بعد تعاليم الهادية الفراء ... ولعل ما يملأنا
اليوم بالدهشة قد ملأ بعضه إذا ذاك قلب الجذامى ضيف عمرو ... فقد بهت
الرجل حين سمع حديث صاحبه ، وأخذ العجب ، وهتف به في استفكار :

« يا معشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتوه ،
فما حكمكم على ذلك ؟ »

فما وجد ابن النابغة من جواب يحضره إلا التمويه والتمسح في الحق فقال :
« أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ، وأن يكون الناس في الحق
شرعاً سواء ... »

أما المدينة فقد باتت بعد خروج عائشة هشيماً جافاً ينتظر الشرر . الناس
فيها على الأهبة ، والقلوب متحفزة ، والسيوف مشرعة .. وكان زيد ابن
ثابت قد راح ينشد في الأنصار ما لم يفز به عند أم المؤمنين . وأطمعه في
مناصرهم إياه أنهم قومه . ولكنهم قعدوا عنه ولم يجيبوه ، بل ركبوه بالسخرية
وعرضوا به . وكان الجواب الذي لقيه منهم تكاد ألفاظه تكون صورة أخرى
من رد عائشة عليه ، كأنهم والسيدة كانوا على اتفاق :

« تريد أن تمنعه ؟ ... فما يملك يا زيد أن تذود عنه وقد أعطاك عشرة
آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها !؟ ... »
أوضح اليوم مدى الخذلان الذي أصابه الشيخ لدى كلا الطائفتين :

المهاجرين والأنصار . وعظمت الفتنة ، واشتد الأمر وإن بقي مروان كدابه ينتظر أن يغير وصول الأمداد اتجاه الرياح ...

ولقد جاءت أخيراً لحظة المرقوبة ، اللحظة التي ملأت قلبه ابتهاجاً وتقسه طمأنينة وثقة وردته كسالف عهده رجلاً يستطيع أن يزهي ويتيمه على الفاس ... وصلت الأمداد ... جوعهم من الشام في طريقها الآن ، وجوعهم من البصرة تسكاد أن ترى المدينة رأى العين . فقد نزلوا بصرار ولم يمد يفصلهم عنها إلا مسيرة ساعات .. لانسكاد لينة واحدة تمضي حتى يكونوا طوع أمره وتصل بنارهم زمر الثوار ! ..

وفرغ الفاس ، وانطلقت جوعهم صوب الدار ، وأحاطوا بها من كل جانب ينادون عثمان وقد ملكهم الغضب عليه . فقصة الأمداد لم تعد شائعة تجول بالخواطر المضطربة وعلى الألسنة اللاغظة ، بل أصبحت حقيقة توشك أن تدمهم ببلاء ..

وانقلت من بينهم شيخ مهيب . طالت به أعوام عمره ، فتقدم الصفوف ، وفادى بصوت رافع جهير :

« يا عثمان ... يا عثمان بن عفان .. »

فأقبل الخليفة على النداء ومعه طائفة من أهله ومواليه . وتطلع من أعلا داره يشرف على القوم ، ويجيل عينه في الجوع الزاخرة تحتسه لا وفاق إذن اليوم ... ذهبت اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يسيطر على عواطف الناس ! .. جاوز ركب الأحداث ركب تفكيره وتخلف هو وحده عن الزمن السباق ! .. وتطير . وقمدت عنه ثقته بنفسه وثقته بغيره ، فلم تعد الوجوه التي يطالعها الآن تنبئ عن خير ...

وعاد يسدد بصره إلى حيث جاء الصوت . وتفرس طويلاً في هذا البحر الزاخر من العيون التي أوشكت أن تغرقه بنظرات السخط ، ومن الوجوه التي اكتست نقاب الغضب الفوار . . وتبين أخيراً بينها صاحب النداء ، فهتف بصوت أراد له الثبات فخذله ووشى بسوء ما يعانیه :

« نيار الأسلى ! ... »

أجل نيار ، صاحب رسول الله ، قد أفلقه ما أصاب أمته من اضطراب ،
وخفى عليها الفتنة ، وأوشك أن يرى الفرقة دانية منها تهم أن تمزق
وحدة الإسلام ...

« اتق الله يا عثمان ! »

« فما تريد يا نيار ؟ »

كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقل هذا
أمركم فاختاروا له أيها الناس ...

لم تبق وسيلة إذن إلا الاعتزال ؟ ... لبئس ما أشار به الرجل وأشار
الثوار !... ومع ذلك فهل من سبيل إلى اعتزال إمارة يؤمن عثمان أنها أمر له من
عند الله ؟..

وغضب الشيخ . وعز عليه أن يكون شأنه على قومه يمثل هذا الهوان .
وانطلق يجادل صاحبه ويعنف به ؛ ويعنف بالناس في المقال . ومضت لحظات
على التجمع وهو صامت صمت يرى ما سوف يسفر عنه هذا الجدل ...

فإن هي من بعد إلا لحظة خطفت كالبرق ثم اختفت كومضة ، تلفت الفوم
على أثرها مذعورين ، ثم سيطر عليهم وجوم رهيب .

ثم دبت الحياة فيهم بفتة . وأقبل بضعة منهم على صاحبهم المطريح .
يكذبون العيون ويقلبون جسده الهامد مشدوهين ، ولكن نفسه فارقة حقا .
وانطوى سجله في الدنيا فلم يعد نية نيار ... لشد ما أسرع به حينه ، كأنه
السراج تفخته الريح !... مضى إلى مصيره المحتوم في لحظة ، وانتهى عهده
بالأرض وإن بقي عليها جثمانه ، وانقطع ما بينه وبين الحياة إلا جرحا ما زال يتنفس
ويلمظ بقايا الحياة ... فهذه دماؤه ما برحت تنزف وتسيل تحت الأقدام تخالط
الحصى والتراب ..

... عادوا إلى الوعي ، وانتبه فيهم وحش الغضب على رائحة الدم المسفوك ؟
إنهم لا يعرفون أي العصابة المجتمة فوق الدار قد أصمأه . لا يذكرون من

منصره إلا أن سهماً لمع في الجو وحجراً ضخمًا قد انقض ثم انطرح الصريع ..
وتحركت جموعهم كوجه صوب الدار . وعلت أصواتهم المتهتجة كأن الأرض
تحتهم أضحت غابا يمج بزئير أسود ...

وبهت عثمان . وتلفت ترمق عينه أهله ومواليه وفيه نظرة حرج ونظرة
إنكار . فما كان يقر هذا القدر أو يرجو أن يتناول الأمر يمثل هذا الأسلوب .
وتصاحت تحتته الجموع تطلب أن يعينها على القاتل ويسلمها إياه . فليس ثمة صراع
يمكن أن يستباح فيه هذا الدم الحرام ، ولا زاد نيار عن إزجاء رأى ظنه يحسم
الشر وينتهي بالفتنة الناشئة إلى أحسن انتهاء ...

وتردد عثمان وهو يصفى إلى الزئير الميجاج . وملكت نفسه رهبة هذه
الفترة العصبية الحرية بأن يفت فيها زمام الجماهير من كل قائد وأمير . ولكنه
عالج هيبة الموقف بإظهار العزم والتوسل بالكبرياء والصلابة . وبقي هادئ الوجه
يحيل طرفه في الناس ثم يرده إلى العصبية الملتفة به لعل أحدها أن يشير عليه .
ولكن أفرادها جميعاً آثروا السكون ، وتركوا الخليفة وحده يواجه الأمر
حسبما يستطيع أن يسعفه جناحه ، ويزوى لسانه .

قال عثمان للجموع برنة قليلة المبالاة فيها مروءة وفيها كبرياء :

لم أكن لأقتل رجلاً نصراني وأنتم تريدون قتلى ...
فسرعان ما تاهب غضبهم كما تلقى زيتاً على النار .

وتأهب الفتية الواقفون بالباب . وأشرعوا الأسفة في وجوه من عسى
ستحدثهم نفوسهم لاقتحام الدار إلى الأمير الشيخ ... وعصف القلق بنفس
عثمان . وسرى منه إلى العصبية الملتفة به وهي توشك أن تلمس الخطر الوشيك
الزول ... ولكن رجلاً منهم كان راضى النفس ، بقى وحده ناعم البال في
هذا العباب المصطخب الفوار ثم انثنى يتسلل من بينهم في هدوء ، وقد
ومض ناظراه بلعة انتصار وأوشكا أن ينأ عما بقلبه من شحنة بالقتيل
وأصحابه الغضاب . وكانت بسمة غامضة تلمب بشفتيه تخفى خلفها كل عاطفة
ثم لا تخفى مطلقاً مطنى الاشتفاء ... أفهو ياترى الذى قدر الحساب ثم نقد

فأصاب ؟ ... أ كانت الخطة حقاً من نتاج تديره ؟ ... ألاح له شبح النصر من وراء الأمداد التي باتت على مسيرة ساعات فهان عليه الآن ما كان يخشى من بطش أعدائه مناجزى عثمان ؟ ... أ أراد أن يتمجسل ساعة الجلاء فأوحى لمن ألقى في الميدان بأول سهم ليـكون البادىء بإرافة دم ؟ ... كلما سار المرء بذمته خلال هذه الفترة استطاع أن يوسع فيه لكل هذه الفروض التي لا تغاير طبيعة مروان . أجل مروان ... ثما نحسب غيره كان وراء هذا الغدر وهذا العدوان . وحسبنا حماقته الشهور بها لتقرن به فعلته تلك . وحسبنا الرغبة الملحة التي كانت تسيطر عليه وتدفعه دائماً إلى التزام وسائله الخاصة في الغدر ومجافاة الوفاء . وحسبنا تلك الخشية التي أقضت مضجعه وتركته حليف ثم وهو يرى كيف هدفت ثورة الثوار إلى تجريدته من جاه المنصب وأبهة الحكم ... ليوشك الزمن أن يطالعنا بصور شتى من أسرته الأموية التي لا يقف بها خبث الذرائع والمقدمات دون بلوغها المقاصد والغايات .. ليوشك بين عهد وعهد أن يكشف لنا في سجلهم عن ألوان الغدر تررى بكل إثم ووزر وإذا كلن الأمس قد كشف لنا عن هند ووحشى العبد الحبشى تدفعه ليصمى أسد الإسلام ، فإن اليوم انكشف عن مروان وعتيقة أبي حفصة اليماني يدفعه ليصمى داعية السلام ... ثم لعل الغد لا يمجز من بعد عن مطالعتنا من هذه الصور البغيضة بأمثال وأمثال على تعاقب الأجيال .

٧

ثبت الفتية الواقفون بالباب فلم يرعهم الموقف ، ولم يذهلهم حماس الثوار عن مراسهم وشكيمتهم ، بل ألفوا بالرماح والسيوف سوراً دونه الختوف ، لا يكاد يقترب منه جمع حتى يتفرق ، ولا تأثر هائج حتى بعيد إلى وعيه خيال حينه . ووقفت الآلاف المهيثة دون اقتحام الدار .

وبدا مروان من قريب ، على وجهه سمات اعتزاز ، وفي عينه نظرات تهاون
وبيده سيف مصلت حديد السنان ، يتيه به ، ويدل بقدره وحسن بلائه كأنما
تحله الحسام ملاك الحمام يوشك أن يفرقه على أخصامه كما يشاء ، ثم راح
يرثجز ويقول :

قد علمت ذات القرون الميل والسف والأنامل الطفول .
أنى أروع أول الرعيل بغاره مثل قطا الشليل .

فأراه هثمان حتى سارع إليه يحول بينه وبين ما يريد ، ويجذبه من ردهائه ،
ويناشده ألا يزيد في استعمار النار .

« اجلس يا مروان . »

« يا أمير المؤمنين ... »

« اجلس فلا أراك تخرج . »

« والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت . »

ثم انقلت خفيئاً إلى الباب بعيد ارتجازه ، بنفس اللهجة الساخرة ، وبنفس
النظرة المستهزئة ، وسيفه يكاد أن يمس العيون التي ودت نظراتها المتهبة أن
تحرق كيانه المقيت ، وهو لا يكف عن تحديه إلا حين أخذ يهتف في خيلاء :
« رجل رجل أيها الناس ! . ألا من يهاز ؟ . »

وخطر أمامهم في تيه وتجبر ، فما وسع القوم إلا أن يضيّقوا بصلفه .
وغلبت عليهم الحمية فأنشبوا القتال . واطلقت جرعهم كالسيل المتحدر صوبه
إلى ناحية الباب ، وكان ابن هديس قائماً إلى قريب يسند ظهره بمسجد الرسول
ويشهد الأمر عن كثب ، فأراه وسمع تحديه حتى أشار بهدوء إلى فتى من
أعوانه وقال :

« قم إلى هذا الرجل يا غلام . »

فاستجاب للأمر شاب طوال مديد القامة ، أسرع فتمنطق بدوعه ، وسل

حسامه ، ثم مضى إلى مروان .

وكأنما رأى عثمان الخطر الذي يجثم وراء هذا التحدي ، والمصير القاتم

الذى ينتظره ويبتظر أهل بيته غب البارزة . فلا الناس مردودون إن أصاب صاحبه واحسداً منهم ، بل هم أولى بأن تفيض بهم فورة الغضب وحمة النار فينقلبوا إلى الدار كهمم النار ، ولا هم إن فازوا بمروان غير طامعين بعده في الظفر بمن عداه . هذا خاطر كفيل بأن يحول إذ ذاك بذهن الشيخ فيبصره بموقفه ويرده إلى اصطناع الحذر قدر ما يستطيع . ولقد انكشف له من خلاله مصير ليس يحمد معه السكوت فهم يحاول درأه ، ويعمل جاهداً على الخلاص منه قبل استفحال الأمر . ولكن الحمية الروائية — أم الحماقة ؟ — كانت قد تناولت وحدها الزمام ووجدت الناس فيها جسراً للمنف فعبروا عليه . فإذا الموقف في لحظات قليلات يفتكث فيقابل الكيد بالكيد ، والصمام الذى حكم حتى الآن بغضاء الثوار يفسد فلا يحسكها شيء .

الحماقة الروائية أرثت النار النائمة تحت الرماد ، ودفعت الناس في ركاب الأحقاد . . . فما رفع الرجل سيفه في وجه الثوار حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم ، وانطلقت الجوع إليه مشتعلة النفوس ترأروا وتصخب ... وتنادت من كل جانب نطلب الثأر ، ونطلب قبله الظفر بالشيخ الذى جراً هكذا عليها صاحبه ، وركب حقها — الذى طالما أقر لها به — بباطله الذى أبى إلا الإصرار عليه ... أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع في ضجة المكان وهو يصيح بمواليه :

« من أحمد سيده فهو حر أيها الناس ... نشدتكم الله ... من أحمد سيفه ... »

ولكن حماسة الجلاد أصمت دونه الآذان ، وراحت طوائفهم تتبع الفتية القلائل الذين وهبوا أسنهم للذود عنه . ولم تحمل النار التي أنشبهها الثوار بالباب وبالسقيفة بين كتيبة الدفاع وبين ما أخذت أنفسهم بالأضلاع به ، بل لعلها كانت سياجاً حائلاً دون الناس وولوج الدار ... ووقف الحسن في اللهيبي المشبوب يضرب بسيفه ، ويشد أزره مصحبه الشبان من أهل بيته

ومواليه وأبناء صحاب رسول الله ، لا ينكثون ، ولا تنبو في أيديهم السيوف ،
وتصايح بهم ثانية عثمان :

« يا الله الله ! .. أنتم في حل من نصرتي ... من كانت عليه طاعة فليمسك
داره ، فإنما يريدني القسوم ... »

ولسكنهم لم يسمعوا له ، واستغرق الكفاح وعيمهم كله ... حتى إذا رأى
الشيخ أن شجاعة الحسن وحسن بلائه اعلمهما أغريا الفتية على الثبات ، أقبل
وقد بدت في عينيه نظرة تقدير وبانت خشيته عليه ينأشده أن يكف ليجنب
أباه رزاه فيه ، فيقول :

« يا ابن أخي ، إن أباك الآن في كرب عظيم ... فأقسمت عليك لما
خرجت ... »

فما ألقى الفتى بالآ إليه ، ولا توقف عن القتال سيفه كأعما كان نذره لرقاب
الثور ! .. ولم يقعد به جرحه عن مواصلة الجلال ، بل هو كان أدعى لإثارة
حماسه ، ولم يلق الخشية في قلبه أن أصيب الحسين وأصيب قنبر خادم أبيه وهما
ذراعاه والذائدان عنه وعن عثمان في آن . بل الدم السائل دعاهم داعيه فلبوا
النداء ... ومضوا غير هيايين في قلب المعركة يختلط في وجوههم العرق بالدماء
وهم من النار التي التفت بهم كأنهم في لاتون .

وعسر على الخليفة أن يحسم القتال الناشب . فما استجاب له إلا نفر من
مواليه آثروا السلامة مع العتق على المناجزة مع الرق ، ومضى مهموماً إلى حجرته
ينوء إلى كتاب الله فيستروح به . وجلس والمصحف بحجره يرتل حتى غاب مع
التنزيل في عالم من الفكر بعيد .

وعسر أيضاً على الثوار أن تفشل حركتهم ، وأن يكون فشلها هكذا
على يد بضعة نفر من الفتيان قربوا صدورهم للأسنة المشرعة فأخطأها ،
وقدموا للموت رقابهم فنكل عنها الموت واجتبتهم الحياة . . . وراحت
الجموع الزاخرة خارج الدار تجمد الأذهان في بلوغ غايتها ، وتفرقت هنا
وهناك طوائف ، بعضها يجالذ الحياة ؛ وآخرون يدبرون وسيلة لإنجاز ملجأوا

فيه ، وثالثة تعلق الأنظار بهذه الصورة الجديدة التي أراد أن يرسمها لهم مروان .

أجل ، كان مروان إذ ذاك قد خرج يصاول ، والتأم سيفه بسيف غريمه الغلام ، وكانت فئة واقفة لا تنشب قتالا قد راحت نلتف بهما للشهد لأيهما سوف ينمقد النصر ، ومعنى الجميع أن يسقط الخصم لمفوض ، وأن ينزف — مع دمه — صلفه من جرح قاتل يصيب قلبه ، وأن تنجاب البارزة عن جسده لقي على الأرض لعل تقوسهم أن تشتني به ، ولكن أمنياتهم هذه كلها ظللها خوف على غلامهم ألا يكون ندا لهذا الشقي وقد رأوه بدل بسيفه كالوائق من قدره وخطره .

وتصاول الحصان ، وحسب الناس أن سيشهدوا مبارزوه تجل في النظائر ، وعلقوا الأنفاس من خشية ومن رجاء ، ولكنها كانت لحظة مضت كلح الطرف تحرك فيم السيفان ثم سقطا ، وسقط بعدها الغريمان .

وبادر الثوار إلى صاحبهم ، فاطمأنوا إذ وجدوه قد أخطأته ضربة مروان فلم تصب إلا من قدمه ، وأسرع بمضهم إلى غريمهم ليشتفوا منه فازعجهم أن سيف فتاهم لم يسلبه حياته وإن قطع بعض عنقه . وانطلق إليه على الأثر رجل منهم رأى السلامة في اقتضائه كل نفس ما زال يتردد فيه .

فسرعان ما أتقذه حسن طالعه كأنما الأقدار أرادت أن تملي له وتبقيه على هذه الأرض حتى يفرغ كل ما في جعبة طغيانه ! . بدت في التو فاطمة ابنة أوس كأنها نبت أطلعت أتناس الشيطان ، ووقفت بهيكلها الذاوى لتحمي الطريق وتدفع عدوه . ثم مالت عليه تجره إلى مأمن وتبتمسد به ، فما كانت حياته تهون عليها وهي ظأره التي ألقته في مهده ثديها فأصبح منها بمشابة ابن .

وصاحت بالرجل الذي هذا خلفها يحاوي أن يدف على الحرج :

« يا ابن رفاعه حسبك ! إن كنت إنما تريد قتل الرجل فإنه قتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح . »

فكف يده عنه وفي حسبانها أنها صدقته . وردته عن الشق خديمة
المعجوز . .

غير أن القتال لم يتوقف ، بل تسمر واشتد ، فما صبر رجال عثمان حين
رأوا مروان بادية الأمر يخرج إلى الوطيس ، ولا تريثوا عساء بصيخ لنداء
الخليفة . بل انطلقوا عصابة خلفه يحملون على جموع الثوار ، ومضى في أثره
سميد بن العاص في طائفة تحاول أن تشق حلقة الحصار . وخرج بعدهم المغيرة
ابن الأخنس بن شريق بصول صواتهم . وينضم إليهم بين فترة وثانية من وسمهم
أن يغادروا الدار ليظاهروهم ويرجعوا كفتهم ، فما هي إلا سويمة حتى تفرقوا
في النهار كالقطرات ، واتقوا من شكيمة القوم ما ردهم عنهم فآثروا أن يلوذوا
ثانية بالدار أو يستخفوا بدروب البلدة من الثوار . وبدا الميدان بعد قليل خالياً
إلا من أشلاء فريق منهم ودماء آخرين . . . أما الفتية حاة الباب فلم يبرحوا ،
ولم تكل في أيديهم السيوف ، وإنما ظلوا ينضحون عنه كأنما تعاقدوا بأرواحهم
عليه ، وجرح سبطا رسول الله ، وشج قنبر مولى علي ، وأصيب عبد الله
ابن الزبير ، ثم جرت دماؤهم تحت مواطئ أقدامهم كلون اللهب المشوب فوق
رؤوسهم بالسقيفة ، فلا فرقهم ألسنة النار ، ولا أرهبتهم أسنة الثوار .

وتفكر زعماء الثورة في الأمر وهم يرون هذه الحفنة من حاة الباب ثابتة
لا يقل عزائمها لسع ضرام أو حد حسام . وأوشك اليأس يقعد بهم دون ولوج
الدار ، وأوشك أيضاً أن يعصف بقلوبهم القلق من مصير يجهرل يكاد أن
ينفجأهم بعد قليل ، فما نسوا أن جيش الأمداد في الطريق لا يفصله عنهم
إلا ساعات ، وأن أنباء المعركة دخلت الآن كل بيت وهي حرية من بعد أن
تخرج سراعاً من المدينة فيلقها الجيش وينبرى يناجزهم حتى تذهب ريحهم إلى
غير بقاء ، وما نسوا أيضاً أن خطراً آخر يكاد أن يدهمهم من داخل البلدة
ثاراً لصرعى سيوفهم وجرحاها ، إن قريشاً لن تصبر لهم على إيذائهم رجالها .
وإن بني هاشم قبلها لن يدعوا دماء زهرتهم تجف على الأرض دون أن ينهضوا

لكفاح مريقيها . وإذا ذكرت هاشم فقد ذكر على ووجفت قلوبهم
لذكره ، ثم أيقنوا بانتفاض أمرهم عليهم وضياع ثمرة نصرهم هذا
وثمرة ثورتهم .

أداروا الفكرة في رؤسهم فما رأوا غير البدار إلى اقتحام الدار ليحفظوا
عليهم نتائج الكفاح . ولكن دون الباب فتية كالليوث الغضاب ، وقفوا
يمنعون الخليفة الشيخ من أيدي قدره . وما نحسب عثمان في هذه الآونة وهو
يرتل مصحفه إلا كان هادئ البال إذا ودع أكتفهم مصيره . إنه بسيفهم
في قلعة وإن ولي عنه أكثر أهله ومواليه ، ويصدورهم في جنة حصينة لا يخترقها
أشجع مناجزيه . قد أمن بمجاسه أن يناله سوء وقد سدت السبيل الوحيدة
التي يجتازها الخطر إليه .

ولكن النازلة لا يعيها التماس الأبواب والمسالك إذا فرغ الأجل ولم تعد
فيه بقية لإمهال . . . فمن مأمنه أتى عثمان . تسورت عليه داره عصبة من الثوار
نقضت خلعة من دار جيرانه بنى حزم أولئك الذين كانوا أحياناً يمدونه بالماء
حين تضيق عليه حلقة الحصار . وكان إذ ذاك هادئ البال قد استراح إلى
مصحفه فوضعه بين يديه وراح مع الآيات في عالم روحى بميد عن هرج الناس ،
وبعد عن الحومة باله ، وفي فكره في السطور التي كان يطالعها بعصره ،
وصفت نفسه فما عاد يشغلها هم دنياه ولا هذا الخطر الذي أخذ يزلزل تحتها الدار .
فالوت والحياة إبان صفاء الروح سيان ، بل لعله في هذه الآونة كان جد مشغوف
بالرحيل عن الأرض ، يود لو استطاع تعجل قدره واستباق الزمن إلى اللحظة
التي ستكون مجازاه إلى العالم الأخير ، لشد ما طال عمره فطال به شوقه إلى لقاء
الرسول ! وما أبطأ زمنه اليوم من أداة لهذا اللقاء . . . إن روحه تنهفو إلى محمد
ونحن حينئذ لم نعرف له من قبل هذه الحلاوة ، وإن قلبه ليكاد أن يثب إلى دار
الخلد ويخلف جسده لو استطاع ، وإن سمعه ليستطيع الآن الكلمات القلائل
الرفيقة التي سمعها بحلم ليلة أمس فيستعيدها مشوقاً فتنساب إليه شجيرة بغير
صوت لأنها حديث روح لروح . . هذه هيئة محمد ، تبدوله فلا يراها بعينه فحسب

وإنما يستشعرها بكل كيانه وقد ملأت عليه مسرى أنفاسه ، لا تقهّب عن
خاطره ولا ناظريه ، بل تلوح له في فضاء حجّرتة ، وعلى صفحات المصحف ،
وفي حينها امتد بصره ، ثم لا يني يسمع منها نفس الدعوة التي أسمته بالأمس
أثناء الحلم :

« . . . افطر عندنا الليلة . . . »

ومضى في التلاوة وقد زاده الصوم رقة وصفاء . يتنقل بين السور والآيات
ولا يكاد أن يلقى نظرة إلى ما يدور في الخارج . وأحس بالشف يقرب منه
وترامى إلى أذنه صوت كلام مضطرب كأنه الهمس أخذ رويداً رويداً يبين
له . . . ولكنه كان مشغولاً عنه بما في يديه . فما كثره ما سمع ولا نال من
هدوئه ، بل طفق صوته يرتل كلام الله .

ووضح الضجيج بعد قليل يختلط بصوت الخطا السائرة في اضطراب ،
وعلت الحركة ، وسادت الردهة خارج الحجرة ضوضاء فيها لغط وفيها وقع
أقدام كلها تنم عن طائفة استطاعت أن تفتح على الشيخ داره وتخلص إليه ،
وكأما يومئذ إلى الخطر الداهم الذي يوشك أن ينقض عليه . ولكنه في هذه
الآونة كان في عالم من صفاء الروح ، القرآن فيه حاديه ، قد سار به أشواطاً
باعدت بينه وبين الناس حتى نسيهم فلم يأبه لما يتقوّه من شرور ، بل كان
هادئ الوجه ، عامر القلب بالطمأنينة وقد بلغ من تلاوته إذ ذاك قول الله :
(. . . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جموا لكم فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . . .)

ثم بدا من فرجة الباب رويجل كأنه ذئب ، صاغ الله وجهه على هذه
الشاكلة ليكون مرآة صادقة للغدر الذي ينطوى عليه قلب إنسان ، تطلع
بعينيه لما كرتين برهة في الحجرة ، ورعى بنظرة صفراء إلى عثمان ، ثم ارتد
سريعاً كما جاء ، أكان هو يا ترى طليعة الطائفة التي دخلت الدار ؟ .

وقالت لحظة ، وتبعها ثانية كأختها في هدوء . ثم امتلأت على الأثر
الحجرة بالجمع الغدار . . . ولم يرفع عثمان إليهم عينه ، ولم ينح المصحف عن

موقعه من حجره . ولم تصمت شفتاه مطلقاً عن التلاوة بل ظل يردد الآيات في هدوء ، حتى حين تماوروه بالأذى كان كمن غاب عنهم بوعيه وإن حضرهم جسمه . وأقبل بعض نسوة الدار على الضوضاء . وصرخن وقد شهدوا الواقعة فأنجفل عنه العادون . ولكن خلفوه هامد الحركة وقد حسبوا أنه فارق الحياة . ولكنها كانت غشية أفاق منها الشيخ بعد قليل ، فلما فتح عينيه حتى دخل عليه محمد بن أبي بكر . . . في البدء ظن الفتى — وقد سمع الصراخ — أن عثمان قد انطوى من الدنيا سجده . فلما اجتاز باب الحجرة إليه ورآه ممافي ، صاح به وهو لا ينسى موجدته عليه مذ أوشك أن يفرى عامل مصر بالفتك به :

« أما أخراك الله يا نعثل ؟ » .

فابتسم عثمان بسمة مرة ، فقد أوشك في هذه الآونة أن يسمع عائشة

بلسان أخيها ! . . ثم قال يجيب الفتى في هدوء :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فابتدره محمد بتهمة ساخرة ، وقال في استنكار :

« فقل أي دين أنت ؟ . . »

« على دين الإسلام » .

« بل بدلت كتاب الله » .

« كتاب الله بيني وبينك » .

ومد بالمصحف يده وهو هادي الوجه فأثار غضب الفتى حتى قفز يتسكك

بالحائط مستهيفاً بشأته ويصيح :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ . . وما أغنى عنك مروان ؟ . . وما أغنى عنك

ابن عامر ؟ . . إننا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطمنا ساداتنا وكبراءنا

فأضلونا السبيل . . »

فما دفعه عثمان ، ولا حرك يده محوه ، بل قال بصوت هادي رقيق وعينه

تبحث نحوه بنظرة عتاب وحنان :

« يا ابن أخى ، دع لحيتى فقد كان أبوك بكرمها ، ووالله لو رآك لمكانى ،
ولسأله مكانك منى ... »

فكأنما الزمن قد ارتد بمحمد إلى طفولته وكلمات الشيخ لم تجف على
شفتيه ، انتفض الفتى ، وهزته الرقة التى خاطبه بها عثمان . وبدأ كأن عاد ثانية
إلى محضر أبيه قبل عشرين عاماً ، طفلاً طرى العظام يتهيب بحس أبى بكر ولا يكاد
من حياته أن يصوب إليه بصره ، لاح كأن أباه اليوم قد امتدت عيـنه من
خلال الماضى فرمقته بإنكار ، وتقبت فملته بالزراية الواجبة لكل فعلة تنفلوى
كشلها على إغفال التوقير المفروض على الصغار حيال الكبار ، من خاف الأعوام
مثل أبوبكر فى خاطر ولده فردده كما كان فى حياته ، يستشعر الرهبة والخشية فى
حضرة أبيه ، ويتوقى أن يمد لسانه فضلاً عن كفه بما يثير غضبه عليه ، فى
مثل اللامح فنيت شخصية الفتى القوى الصخاب فى صورة الطفل الحى الهياك
فغاب عن باله كل جبروته ، ومضى عنه اعتداده بنفسه ، ولم يبق منه إلا الطفل
الآثم أمام عيني أبيه وقد كادت أن تنسمرا عليه .

فإن هى إلا تلك الكلمة الرقيقة نطقها عثمان حتى سابت الذكري محمد ابن
أبى بكر كل إرادته ، وجاءت بطفل الماضى على جناحها ، ضعيفاً أخزاه إثمه
فاخفى وجهه فى كففيه عساه ينأى عن نظرات أبيه الغضبي ، ثم أسرع به قدماء
إلى الباب ودفعه يبتدر ، وقلبه من فرط الحزى يكاد أن ينفطر ، ولقى هناك
عصبة بهم أن تخلص إلى الشيخ فتتال منه ما لم تنل ظليعتهم ، فوقف يسد أمامها
المجاز . لقد انقلب الآن غيره . بالأمس ، وارتد آخر يستشعر واجباً جديداً
نحو عثمان . إن ذكرى أبيه حملته رسالة واجبة الأداء نحو هذا الصديق المخذول
فى ساعة المحنة التى عز فيها الناصر وولى الولى الأمين .

جاهد محمد أصحابه ودفعهم عن الباب بعنف أنكره منه وملاً نفسهم
بالمعجب قبل الغضب . ولكنهم ما كانوا ليدعوه بحرمهم عمرة جهادهم وهى
دانية فهد الأنامل . أو يركعوا إلى النصيح الذى محضهم إياه إذ ذاك وإن عرفوه

من قبل ثأراً كثلهم يمتنى بنجاح خطتهم كثل عنايتهم ، ولكن المداورة التي انتهجوها بادی، الأمر حياله لم ترده عن عناده ، بل جعلته أشد مراساً وأصلب شكیمة كأن أبا بكر كان على رأسه إذ ذاك ! .

غالبهم الفتى ما وسعه ، وردهم عن باب الشيخ الذي أقدموا يحملون له الموت فما أغنى غلابه ولا كفاحه ، وما أغنى عنه ندمه أو حياؤه اللذان سددوا تصرفه في هذه الآونة التي كان القدر قد أتم فيها رسم طريقه إلى مصير عثمان ... فقد ظفرت العصبية أخيراً بما شاءت ، وغلبت محمداً على موطنه قدميه ، ثم جاوزت الباب إلى الخليفة المستسلم لقدر الله .

وبدأت في التو المركة التي سادت فيها فوضى الجمهور ، ليس يسيرها عقل ، ولا تمسكها حكمة ، الحيوانية البشرية وحدها هي التي كانت تعمل ، والهمجية الرابضة في نفس الإنسان استتوت مارداً عاتياً يشبع شهوته من الحسد والضغن والانتقام ... لكان كل واحد من أولئك الثلاثة عشر الذين اقتحموا على الشيخ حجرته كان شيطاناً لم يعرف قلبه طعم الرحمة ، ولم يستشعر مطلقاً عاطفة نبيلة جرت في جنبيه ، بل انطلق بهم جميعاً الغل إلى غايته حتى لودوا لو كان منهم مائة كف في كل كف مائة حربة ، لكل حربة ، مائة ذؤابة يطعنون بها الخليفة الأعزل ! .

كان الشيخ مأدبة لذئاب نفوسهم المهومة ! . أهوى عليه أحدهم بحديدة ، وعاجلة ثان بلكزة من نصل حسامه ، ووجأ ثالث بمشقص في رقوته ... فلما هاض وأوهى قوى لم يمهلوه ، ولم تأخذهم الشفقة بضعفه ، بل أمعنوا في فسوتهم كأن لون الدم الذي أخذت تلفظه جراحه زاد وحشيتهم ، وتعاوروا عليه بكل أداة ملكتها أيديهم ...

ثم جاء رجل قد أفرغ من قلبه الإيمان فتقدم بسيفه إليه ، وضرب المصحف برجله فأطاحه ... وحز الألم في قلب عثمان وقد رأى قرآن الله يتمن هذه المهانة ، وعجز عليه أن يدعه لقي فوق الأرض فجده وسمه ليلقطه . فإن هي إلا

حركة دارها النصل حتى انفصلت الأصابع الراءشة عن كفها ، وسقطت تنفض إلى جوار الكتاب .

والتقى عثمان عينا دامعة على سلاميئة اللقاء ، وعض على شفته من فرط وجعه ، ثم رفع إلى جلادية وجها يفضح بألمه العميق ، وهمس بصوت خافت لا تكاد أن تلتفه الأسماع وهو يهز أمامهم كفه البتراء :

« أما والله ... إنها لأول يد خطت الفصل ... وكتبت آي القرآن ... » وأقبلت نائلة على الأثر ولهي ، تحاول أن تحجز بين زوجها وبين عداته ، حتى خلصت إليه ... واحتوته في صدرها كطفل وهو يفوء ، وأكبت عليه حين سقط فسترته عنهم ، وجعلت من جسمها درعا تقيه ، ورأت سيفاً يلعب نصله كالشهاب فوق رأسها ويهم أن ينفقض على الشيخ فسارعت بكفها لتلقاه وتدرأ ضربته الصاعقة عن زوجها المهيض ، ولكنها لم تغن شيئاً عنه في النهاية بل لقد اندفعت من الغرفة تولول ويقفوا أثرها خيط من الدم الذي نبع من منابت أصابعها المقطوعة ... ومضت لاتتبين طريقها بعد أن خلفت عثمان هامد الأتقاس ، قد نال جلاده الوطر وإن بقي يتمتع نفسه بالمثلثة كما يشاء ، ويضع السيف في البطن المبقر ، ثم يتكىء بصدرة على مقبضه ليغوص فيه النصل كاه ، كأنما أراد أن يسمع قرعة عظام ظهره وهي تنقص تحت وطئه كقطع لحاف .

وقضى الأمر ، وانطوى سجل عثمان .. وبدأت الحجرة بعد قليل فارغة إلا منه إن بقي من جسده الشائه ما يفيء عنه ، وكان الدم لازال دافئاً لما يبرد ، سيالاً يفيض من جراحه ، ويتحدث بلسان صامت عن الهمجية التي لم تستأصل جذورها من النفس البشرية قوة دين وكن نأشئ لم يحف بعد المداد الذي كتبت به تعاليمه ! .. فلقد رقد المصحف بجوار الجثة غير بعيد منها ، عنوانا على السلام الذي أراده الله ورسمه في آياته للإنسانية ، إلى جانب الوحشية التي أبت إلا أن تنفض عنها النفس البشرية ، حتى المصحف المقدس أصابه من عفت الإنسان بلا . ومن كفرانه اعتداء ... ولكنه في صمته كان أبلغ من كل حديث يستطيع

أن يصوغه فاطق مبین ، فلقد حدثت في هذه اللحظة آية لمن أراد التماس العبرة من هذه القصة الفذة في العدوان . . . كان دم الخليفة لا يبي ينبع ويبدأ من جراحه ، وينطلق قليلا قليلا في نفثات كأنتاس النزع ، ويتجمع قطرات تلساقت على صفحة مفتوحة من الكتاب ، حتى إذ غاض النبع ، وجمدت الجراح وجف سيل الدم المراق على الآيات ، بدت هي من تحتها مكتسبة لونه ، حمراء قانية كأنها توميء إلى غضب الله الساهر الذي لا ينام ، فتقول بغير لسان في أوضح بيان :

« فسيكفونكم الله وهو السميع العليم »

ونفذ القاتل — وسيفه مازال يقطر من سنامه دم الخليفة الشهيد — فاندفع في غمار الثوار ، على وجهه سمة الذئب المرتوى من دم فريسته ، وفي عينيه بسمة شماته كربة ، وبقلبه قد استراح وحش الغدر وطاب مهده . . . مازال يتفرس في الوجوه المتطلعة نحوه ، ويبحث خطاه بين الجموع ، ويشق طريقه غير مبال بما يثيره في النفوس مظهره المريب إذ يصبح :

« قتل عثمان ! . مضى الرجل أيها الناس ، فأين طلحة بن عبيد الله ؟ »

ولكنه لم ير طلبته ، ولم يستطع أن ينبئه الخبر الذي كان يزجيه كالبحري السارة . . . فقد غاب عن الحومة طلحة ، وانزوى بعيداً حتى لا تلتصق به الشبهات ، ففاته أن يشهد بعينه الثمرة التي طالما تعهد غرسها الخبيث .

. . . وغام ضوء الحجرة مسرح الأساة ، واخذ لون السماء خارجها يتحول دامياً وقد صبغه الشفق ، وكان الأفق البعيد يوشك أن يتلقى الشمس التي أوهنتها رحلة النهار وهي تنزلق نحوه ويبدأ لتخفى وجهها المحزون في نقاب المساء . ثم راحت أطياف تنفذ خلال الشرفة ، خافتة كخفقة السراج الجاف ، وإنساب شمع وان إلى جثمان الطريق يمسه ، ويمر عليه في ترفق كأنه أم حانية مدت كفا لتوقظ وليدها الوسنان ، فلقد طال رقاده ، وأن له أن ينتبه ويتبها لموعده المرفوب مع الرسول الحبيب . . . أليس الغروب قد آذن الآن بانتهاء الصيام ؟ . . .

الامام

كان المساء قد ألقى ظلاله على الدار وامتد يلف ما حولها من رحاب ، وكانت جموع الحصار حيرى ، قد ألفت السلاح ووقفت واجمة تعلق الأبصار بموئل الخليفة الصريع ، كأن قد هالها ما أقدمت عليه ، شملتها الرهبة التي غلقت السكان كله ، وعمها الصمت حتى لمسمع تردد الأنفاس .

وكانت الغرفة التي شهدت المصراع ساكنة كأنها قبر وإن وسمها ظهر الأرض ، معتمة وإن طوفت بها أضواء النجم السارية من خلال الهرفة ، لا يبدو شاغلها إلا كأشباح . منذ انجاب ضجيج المعركة لم تمتد لها يد بالتغيير ، بل بقيت كحالها ، في جانب رقد جثمان عثمان ، لف من دماؤه في ثوب . وعلى مقربة منه المصحف المخرج ، مازالت إلى جواره سلاميات الأصابع ، مختلطة لا يعلم أيها للشيخ وأيها للزوج الشكلى . والأرض كلها حمراء قانية ، لونها ما سال من جراحه وجراح جلاده ، فإلى الباب رقدت ثلاث من جثث الثوار دفع أصحابها من حياتهم ضريبة الجريمة ، وقيد خطوات منها بضعة قليلة من موالى عثمان آثروا أن يثأروا لسيدهم فقاتلوا عنه حتى تبعوه إلى المصير المحتوم .

ثم تحركت في الغرفة ظلال حيرى ، انبعثت عن نقر دخولها بغير ضجيج كما تتحرك الأشباح . لكأنما كل حاضر نبا به الآن موطن قدميه فليس يستقر على أرضها القانية بمكان . الرهبة ملكتهم ، والأسى عصف بقلوبهم فما زالت قوة اضطرابها في جنوبهم تهز كياناتهم فتردهم إلى وراء أو تدفعهم إلى أمام . العواطف سيطرت على خطوهم ، والشاعر الجياشة كانت الفؤاد الذى يلعب بالقارب السارى في غمار العباب . والحزن الفاجع غشى عيونهم بدمع كشف على مآقيهم حتى أخفى عنهم المراثيات إلا ما تنقبت به من ضبابه . قد سكتوا إلا همسة ، وصمتوا إلا نفسا غير موصول ، فلا تنبى عن حياتهم سوى الزفرات التي تتردد عنهم . وألقوا السمع والبصر جميعاً إلى الجثة المسجاة التي غللها فوق وب دماؤها دمهم السيال . وألقوا الفؤاد أيضاً إلى ذلك الهوكل المطروح من

أسى إلى جوار عثمان . وأمسكوا أنفاسهم يرقبونه بإشفاق ، ذلك على قد غلبته
الفجائية وأودى به حزنه فقامت عينه ، وحمد حسه ، وراح في غمرة غشية عاتية
أحالاته صامتاً صمت الموات . . .

ومضت اللحظات بهم كأنها الدهر الخالد . أو كأن الفلك السيار قد توقف
عن دورته فجمد الزمان على حافته جمود الكان . . . وثقت عليهم نفوسهم
حتى غدت شيئاً يحسونه وينوءون تحت وقره ، وتأرجحت أنفاسهم في الجو
تردد ولا تتبدد . كلهم شغلتهم الواقعة وأذهلتهم عن كيانهم . وقاربت بينهم
وبين خمود العدم . وأوشكت أن تميد بهم فتطرحهم كصاحبهم الراقد إلى جوار
جثة الخليفة ، لولا مسكة من شعور أبقت عليهم فتعلقوا منها بالوعى بما يشبه
الخيوط الرقيق . ولم تزل دماؤهم تسير في عروقهم وانية كأنها تتردد بين التوقف
وبين التدفق ، حتى رأوا علواً يتحرك وينفض عنه غشيته فدبت فيهم الحياة . .

وتبعوه في وجوم وصمت وهو يقهر قدميه على السير . وكان ابناء واقفين
في صميم الشبان ، ناكسي الرؤوس حين جاء الخبر إليهم بمصرع الخليفة . .
فما أشرف عليهم ما حتى سارها إليه ، وخفت اللفظ الدائر على ألسنة القوم . ودار
على بنظرات غضي في وجوه الفتية . وتلهبت عيناه وانعقد ما بين حاجبيه في
عبسة يكاد أن ينبجس منها الدم . . . ثم أهوى بكف على وجه الحسن
وبالأخرى على وجه الحسين . وثار بأصحابهم يلحاهم فانطورا على أنفسهم
لا ينطقون هيبه منه لولا أن انبرى له طلحة يقول :

« مالك يا أبا الحسن تضرب وتشتتم ! . . . »

فصاح ولم تخف سورة غضبه :

« يقتل أمير المؤمنين وهم بالباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ »

« لو دفع مروان ما قتل . . . »

فصمت على . إنه لمعلم أن الخطر على الخليفة كان يحتم دائماً خلف أهل

بيته ، أولئك العصبة الأموية التي كان على رأسها مروان . فلقد أساءوا توجيه الشيخ ولم يخلصوا له النصيح ، وكانوا أقدر على تجنب الفاجعة لو سلكوا سبيل الرشاد . ولكن صلفهم أعماهم ، ومطامعهم الشخصية أبت عليهم إلا التضحية بكل شيء في سبيل مآربهم . حتى في هذه الأزمة الأخيرة كان في مقدورهم إنقاذ سيدهم ، ولكن حماقة مروان أرثت النار الهامدة في نفوس الثوار ، ولم يكفه أن كانت سياسته من البدء مدعاة لإثارة سخط الناس حتى صار كلما هم الخليفة بإصلاح الأمور يوسوس له فينقض وعوده ويعدل عن الخطوة المثلث التي كانت كفيلة بالتغافل القلوب عليه . فلما أن بلغ الحق في النفوس مداه ، وأيقن أن القوم غير تاركين عثمان حتى يعزل مشيره الخبيث ، تمجّل بنفسه الخائنة وقد سبق إلى وهمه أنه غالب عليهم ، وموطد سلطانه بقوة السلاح مادامت جيوش الأمداد قد باتت من المدينة على مسيرة ساعات . . .

ولكن تقديره خذله ، وانتهت دولته أسوأ انتهاء ، وبات وأهله لا يستطيعون أن يملكوا لأنفسهم نفعا ولا مضرة . ومن بقت بقلبه بقية جلد استخفى عن عيون الناس بعزل خشية أن يظفروا به فيقتلوه . ثم راحوا يتحينون السوايح للفرار من حاضرة الملك التي شهدت لهم صورا من السيطرة والطفيان ظلت مائلة في أذهان الشعب الموتور لا تريم .

واختلط الأمر بالمدينة ، وخرج لتوه من أيدي فريش التي قسمتها الأهواء ، فأصبحت مزرقة محولة بعد أن وحدها قصي من أجيال وجعلها كتلة ترهبها العرب فتمنوا لها الجباه . فما بقى منها اليوم قبيل يشعر بشعور أخيه ، أو يمد كفه ليأخذ بناصره ، بل تفرقوا جميعهم أمام القوى المتحدة من أهل الأمصار ، وراحت مظامعهم تتجمع لتأخذ لنفسها السلطان ، وكلما كانوا في حياة عثمان يعملون جهدهم لنزع أمره منه ، فقد راحوا الآن يدا بون على الحيلولة بين السلطة وبين كل من أحسوا أنه بسبيل الفوز بها لئزىة توشك

أن تؤهله للسيادة . ركبهم ثأفيه عصبية الجاهلية ، وغابتهم على حقهم المشترك بين قبائلهم تلك الرغبة الجامحة التي جاشك بنفوس كل فرع منهم للتفرد بالإمرة من بقية الفروع .

وساد الإرهاب بلدة الرسول ، لا يكاد أهلها أن ينبتوا أمام أصحاب الثورة برأى وإن كانوا قد أعافوهم على غايتهم ، فلم يكن نعمة في أيديهم سلاح يستطيعون به أن يملكوا الزمام ، ولم يكن بينهم رجل واحد يرضون جميعاً أن يلتفوا عليه بعد الخليفة القليل ، بل مزقت المطامع سم وحدثهم . حتى قوى الأمداد التي جاءت من الشام لنصرة عثمان لم تتحرك حين بلغها مقتل عثمان إلا لترتد على أعقابها كأمر معاوية هائدة إلى الشام ، فقد انتهى الآن واجبها الفعلي ، وأحسن القيام بدور الغائب الذي أرادها عليه إن وقع المصراع تحت سمع وبصرها ، لأنها ما بمثت لتنصر وإنما لتبدو فحسب في ثياب النصير ! ..

ودانت الرقاب لرجال الثورة ، وأصبح الحكم بحاضرة الإسلام في كنف العافق أمير المصريين يصرف الأمور ويؤم الناس في الصلاة ، ولم يكن هذا لأنه طمع في الخلافة ، ولكنه أيس من تقليدها رجالاً يرضاه ويرضاه الناس فلقد أباهها على وعزف عنها ، وظل يباعد القوم كلما جاءوا يعرضون البيعة ، ويأوذ بفضاء المدينة بعد أن هجر داره حتى لا يلقوا به ... كان يربأ أن يؤول إليه الأمر على يد الطائفة التي توسلت إلى غايتها بالمعدوان ، فلما أن طال احتجاجه عن الناس تفكرت طائفة من أهل البصرة أن تدلى بالبيعة إلى طلحة ، وأخرى من أهل الكوفة أن تدلى بها إلى الزبير . ومضت كل إلى صاحبها تحاول أن تقدم له هديتها ، ولكن غمرة الحماس كانت قد ولت مع الصباح ، وعادت إلى الهيمنة دولة العقل بعد دولة العواطف ، فما إن رأى القوم صاحبهما يضمهما المسجد حتى صاح فيهما من صاح :

«أيها الرجلان .. إنكما وقعتما في أمر عثمان نخلياً إذن عن أنفسكما، ودها الأمر! ..»

ولعلمها كانت دهوة من خير بخفايا الانقلاب أحب أن يبعد بالخلافة عن كل ذى مطمع ركبت به أهواؤه سبيل الحيف على الخليفة القليل ... ولعلمها من حكيم شاء أن ينهى عهد الطفيان بقطعه الطريق على ذينك اللذين أهما عليه ... ولعلمها من صاحب رأى فى الصاحبين يضمن بالإمرة على كايهما وهو مؤمن أنهما أهون شأنا من أن يصلحا لقيادة شعوب الإسلام ... على أى حال لقيت هذه الدعوة عند الجموع المزدخرة بالمسجد ذلك النهار هوى جعلها تتقبلها أحسن القبول . وتردها جامدة غير هازلة . وتطلق أحاديثها المتجاوبة فى أبهاء المكان تجبه الرجلين بأشنع اتهام ولا تتخرج أن تلتقى على رأسيهما تبعة قتل عثمان ...

وفزع طلحة فقد رأى الناس يشوبون إلى عقولهم بعد أن انجابت عنهم غمرة العواطف ، ويندمون أشد الندم على ما انتهى إليه مصير الخليفة الشهيد ، ويأسون لحاله أسى ودوا معه لو كانوا استطاعوا التريت به وإمهاله لعله ينزع عما عابوا عليه . وفى كل قاب منهم إذ ذاك نقمة من الزمن الذى جرى بهم شوطة إلى نهاية كريمة تعجلها فى البدء غضبهم ثم أنكرها وعيهم حين لم تعد نمة جدوى من الإنكار ... فزع طلحة من هول الاتهام الموجه إليه وتبين شناعة الصورة التى تجلت منه لأعين المسلمين ، فقام إلى المنبر لعله يستطيع أن يضى ظلالا كثيفة تحجب عن أذهان الناس مامثل فيها من صورته الشوها ...

قال بوضوح لهم حقيقة موقفه من عثمان :

« ... أما بعد ، أيها الناس ، إفا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله . »

وهب الزبير على الأثر يدفع عن نفسه ، ولكنه فى دفاعه كان أحكم من صاحبه ، وأعرف منه بالوسيلة تشغل عنه ظنون الناس لأنه كان أقدر على توجيه انتباههم إلى قضية آثر عندهم من قضية الاتهام ، هى الاستخلاف قال .

« أيها الناس ... إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى ،
وقد تشاورنا فريضنا علياً ، فبايعوه ... » .

وتهاشم القوم ، وتنقلت نظراتهم الدهشة بين الصاحبين ، قد أجمعا إذن
الرأى ، وخرجا من البيعة لمن رأياه أولى بها عند الاختبار فألقا بين تيارات
الأفكار المختلفة التى كانت تتفرق بها آراء أهل الأمصار ، لامدعة الآن إلى
الخلاف بين الكوفة والبصرة ومصر مادام الزعيم قد دانا فى النهاية وأقرا
بالإمرة للثالث العظيم .

وراح الزبير يتم حديثه عن عثمان والناس بحسبانى يشغلهم عن الإنصات
لخاتمة بيانه جلال ما أزعج إليهم فى مقدمته .

« ... أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحدانا ...
والله وليه فيما كان »

ولكن علياً لم يستجب لهم ، وظل مؤثرا الاعتزال ، يرد كل من جاءوه
منهم يعرضون البيعة ، ومضى يوم ، وتبعه آخرو الأمر على ما هو عليه ، لا يستبين
الناس لهم مخرجا من الحرج الذى أصبحوا فيه . وثقل على الثوار أن يسير فى
البلاد نبأ مقتل عثمان ولايسير معه نبأ اختيار خاف له على الأمة فتفسد الأمصار
ويتناحر أصحاب الهوى والأغراض فتفحل عرى الدولة . وكانت الحيل قد
أعيتهم من قبل دون حمل أحد من أصحاب رسول الله المقربين على قبول
الخلافة .

فلقد آثر سعد الحيدة ، وأبى ابن عمر إلا إعتزال السياسية والبعد بنفسه عن
خضمها الصخاب ، ووضح لهم موقف الزير وصاحبه وما بدا من تهيبها إدخال
أنفسهما فى أمر يرى الناس أنهما جنحوا فى سبيل الفوز به إلى اعدوان . ثقل
على رجال الثورة أن يذهب جدم هذا عبثاً فأجمعوا الرأى على سلوك طريق
العنف والإرهاب ، عساهم به يستطيعون توحيد الكلمة وإنهاء مشكلة الاختيار .
وتنادوا فيما بينهم ، وانطلقت رسائلهم بالمدينة إلى كل صوب يجمعون من

يلقون من أصحاب رسول الله ومن كبار المهاجرين والأنصار، ونشطت الرسل فيما طلب إليهم ، وأخذوا تبعاً يعودون بذوى الشأن في البلدة ومنهم من قد أوشك أن يرحلها إلى مكة أو استخفى فيها بمخاطط أو بناحية ... فلما حشدوهم جميعاً في مكان واحد ، وفيهم طلحة وسعد والزبير والكثرة الغالبة من الصحابة قام فيهم متحدث عن المصريين يقول :

«... يا أهل المدينة ، إنكم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فأنظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع » .
فتهاق الناس من كل جانب :

« على ... على بن طالب ... نحن به راضون . »

« فدوكم ، وإنا لؤجاوكم يومين اثنين ، فوالله لئن لم تفرغوا انفتان عدأً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين ! ... »

وشهد مسجد رسول الله لثالث مرة منذ وفاة محمد تلك الفئة الخالصة القلوب من الشوائب ، الذائدة عن الحق للحق ، تجتمع إعجاز بالدعوة التي أشربتها نفوسهم الصافية، وغلبهم الزمن عليها أعواماً حتى أوشكت أن يحتويها النسيان ، شهد المسجد أولئك نفر من أصحاب محمد الأوفين الذين لم تفسدهم الأهواء والطامع ، يقومون ثلاثة لنصرة القضية التي قاموا فيها ساعة استخلاف أبي بكر، ويوم اختيار عثمان ، ويرفعون أصواتهم في الملأ اليوم يطلبون بها النصف عند كل حريص على إقامة الحق ورفع دعائمه، لم ينقص مر الأعوم من شجاعتهم، ولا إخلاصهم لصاحبهم الذي آمنوا بحقه ومزايده ، ولم يفكّل عنهم واحد من جمهم القديم إلا من كان التراب قد طواه ، وإنا لنراهم الآن من خلال الماضي كما كانوا من قبل ، لولا أن الزمان جرى بهم أشواطاً طويلة في خريف العمر ، ولكنهم مع ذلك ظلوا ذوى قلوب فتيّة وأرواح قوية قوية . قد التأم جمهم القديم كسابق عهده لتحقيق هدفهم المرموق ، فيهم عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب

ورفاقة ، ومالك بن المجلان ومن لف لفهم من أصحاب علي الغيورين على حقه أشد من غيرته عليه .

التأم جمعهم بالمسجد ذلك النهار كاجتماعهم بفضاء بني بياضة تلك الليلة الأولى من عهد أبي بكر ، يندارسون الحال ، ويتذاكرون الوسيلة الكفيلة بإعادة الحق القديم إلى صاحبه وصاحبهم صفي حبيبهم رسول الله ، وكانت طوائف من أهل المدينة قد علمت بأمرهم فأقبلت عليهم ، ثم طفقت الجموع من بعد تفد فتمتلي بها رحبات بيت الله حتى ضاق المكان بمن فيه .
ووقف أخيراً فيهم عمار بقول :

« أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه . وأنتم اليوم على شرف من لوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته » .

فامتلاً المسجد بصوتهم الداوي ينطلق كمن فم رجل واحد :
« رضينا به » .

فالتفت صوب الحشد الزاخر وفيه كثيرون من المهاجرين وقال :
« أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله . وإن علياً من قد علمتم . وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به » .
فجاءه على الأثر من الجموع الحاشدة الجواب الذي أثلج صدره وطيب خاطره وباله :

« قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل » .

فانطلقت طوائفهم إلى علي وفيهم الزبير وطلحة تقبمها زمر من أهل المدينة ومن رجال الأمصار على السواء . وكان معتزلاً بداره فضربوا عليه باباً حتى أخرجوه وهو مستكره . والتفوا عليه من كل جانب يهتفون له ، ويهيبون به أن يقبل بيعتهم ، قالوا له :

« يا أبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل . ولا بد للناس من إمام . ولا نجد

اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله .
فأبى أن يستغل عاطفتهم الكريمة التي دفعتمهم الآن إليه . بل قبض دونهم
كفه ، وأجاب :

« لا تفعلوا ولا أفعل ، فأبى أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً » .
فمها تفوا به ثانية :

« أنت لنا رضى » .

فهم لهم رأسه إباء وقال :

« لا حاجة لى فى أمركم أيها الناس . أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به » .
وصاح به من بينهم الأشتر مالك بن الحرث أحد زعماء أهل الكوفة :
« والله تحمدن يدك نبأى بك أو لتعصرن عينك عليها ثلاثة ! » .

فاعلمه حسب أنه بصدد رجل يأسى على ما فات من نصيبه فى هذه الحياة ،
أو يعنى بعرض من عروضها جل أو هان .

ولكن عالياً لم يعجل به ، ولم يستسلم للغضب عليه ، بل قال فى هدوء
يخاطبه ويشرك القوم فى الخطاب .

« دعونى والتمسوا غيرى أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله
ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب » .

وأحسن الأشتر على الأثر بسوء ما كان منه . وشعر أنه حيال رجل ليس
كسواه بل من طراز فذ فى الرجال يستقبل الأمر بالنظرة الجادة التى تستطيع
النفاذ إلى أغواره واستكناه خفاياه ، ولئن كانت الخلافة هدفاً له منذ قديم
فإنها لم تكن مطلقاً كل هدفه ، ولم تكن غاية رنا إليها طموحه ، بل هى
وسيلة إلى غايات أعز عليه من السيادة وحكم الناس هى العمل لإعزاز الدين
والسمو بنفوس الناس ، أما مظهرها ، وجاهها الرفيع ، والمجد الذى قد تسبغه
على شاغل مقعدها ، فكلاهما هتات لا تملأ من قب ابن أبى طالب مثل
ما تملأ شعرة .

ورفع الأشر إلى وجهاً يفيض بالإكبار . وراح في توسل يهيب به باسم الإسلام واسم الأمة أن يستجيب لثقة الناس به فيقبل الواجب الذي لا يستطيع غيره اتيام به في هذه الغزالة التي توشك أن تدك صرح الدولة الفتية . . ثم أردف توسله في ختام حديثه بأن قال :

« نشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ . ألا ترى ما حدث في الإسلام ؟ .
ألا ترى الفتنة ؟ . ألا تخف الله ! . . »

وأنصت القوم من بعد صامتين ، وقد تعلقت عيونهم بشفتي الكهل الذي تجسمت فيه آمال أمته ، وانتهت إليه مشيئتها وقد أشفقوا أن يجيئهم جوابه بغير ما يشتهون . ولكنه قال بعد روية وتفكير :

« قد أجبتكم لما أرى منكم . . . ألا فاعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لن وليتموه أمركم » .

فصاحوا به هاتفين وقد تفرجت منهم الصدور :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبأيمدك » .

فابتسم لهم ابتسامة رفيقة ، وقال وهو لا ينسى خطئه في التزام مثله العليا حتى في هذه اللحظة التي أجمعوا فيها رأيهم على تقليده إمارتهم :

« إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد ، فإن ييمتي لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفي ملا وجماعة » .

واتعدوا الغد ، وتفرقوا عنه وكلهم راضى النفس يكاد أن يرى الخير في ركاب المستقبل ، فلما أشرق نهار الجمعة ساروا والشمس إلى قبلة أنظارهم ومهوى عواطفهم ، وطفقت جموعهم تزيد وتتكاثر حول داره حتى غص بها المضاء ، وخرج إليهم فتداكوا عليه تذاك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من فرط ازدحامهم عليه وشدة رغبتهم في الخلوص إليه كأنما لم يشاهدوه إلا اليوم . . . ثم انطلقوا وإياه إلى المسجد وأصواتهم لا تكف عن التهلل والتكبير .

وصعد المنبر ، وألقى بصره هنيئة على الجموع الزاخرة التي ضاق بها المكان فوقفت خارجة كأنها البنيان الرصوص ، ورفع صوته بالكلام ، فحبسوا الأنفاس .
قال بصوته الرصين :

« يا أيها الناس .. عن ملاً وإذن ؟ .. إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم فمدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » .

فزلت الأرض بالهتاف له ، ثم بان جوابهم الصريح كالهزيم :

« نعم .. نحن على ما فارقناك بالأمس » .
« ألا أنى كنت كارهاً لأمركم فأبينتم إلا أن أكون عليكم .. رضيتم ؟ »
« نبأيك على كتاب الله » .
« اللهم اشهد عليهم » .

فتدافموا إليه كالموج ، يلتفون بالمنبر وقد سبقهم نحوه كبار المهاجرين والأنصار ... كل يرجو أن يكون له شرف البدء بتحيته قبل غيره بسلام الخلافة .

ووقف حبيب بن ذؤيب على كשב منه ، وقد منعه تدافع القوم من الوصول إليه فأثر التريث حتى تبين له فرجة بين الجموع ، وراح يرقب البيعة ، ويتلهى بتصفح الوجوة التي اجتمعت حول المنبر وأصحابها يهيمون أن يعلنوا ولائهم للأمير الجديد . وأخذت نشوة الفرح بقلب الرجل . وطابت نفسه وهو يشهد وحدة قومه بعد تفرق ، لتكاد المدينة كلها أن يحتويها المكان . ولما وشك ألا ينقص الجمع الزاخر أحد من أصحاب رسول الله . بدت البيعة ذات جلال ، جامعة ، قويمة العمد إذ تستند إلى إرادة الشعب ، فلم يتخلف عنها السادة ولا الجمهور . وقاربت روعة هذا أن تنى عن عصر زاهر سعيد يلتئم فيه شمل الأمة ويعلو شأو الإسلام .

ولكن ابن ذؤيب قد عنه أمه ، وذبلت فرحته ، فإن هي إلا عين رفعها

إلى المنبر حتى غاص قلبه وأوشك أن يكف عن وجيبه ، إن هاتفاً راح يهمس له الآن في أذنيه ، تلك اللحظة التي رأى فيها طلحة يصعد درج المنبر إلى على ، هاتفاً عاتياً ، مدوى الصوت في سمع ضميره أخذ يلح عليه بوسوسته حتى ماملك أن طفق يردد لنفسه في ذهول :

« أخلق بها أن تنكث » .

ثم تاب . فلما أن وقعت عينه على المنبر ثانية ، ورأى هناك يد طلحة تمسك بكف الإمام ، أحسها تعصر قلبه في قبضتها ، وتستنزفه ما بقى فيه من قطرات أمانيه في العصر الزاهر السعيد المأمول ، وقال وقد غلب عليه التطير :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء ؟ . لا يتم إذن هذا الأمر » .

٢

ترك عثمان ترائفاً من العوسج في أيدي خلفه ؟ . . الأهواء تلعب بنفوس السادة حتى لا يتفق اثنان فيهم على رأى . والتذمر يأكل قلوب العامة وهم يرون الخاصة قد استلبوهم حقوق المساواة التي أقرها لهم الإسلام ، والفرقة تضرب بين أقطار الدولة حتى ليحسب كل قطراً أنه الجدير بالسيادة دون بقية الأقاليم .. حتى أولئك الذين هياهم الزمن منذ قديم لقيادة العرب كانوا قد مزقهم المطامع ، وأصبحوا الآن فرقا تعرف بأسرهم بمد أن كانوا كتلة تعرف بقبيلاتهم فترهبها بقية القبائل وتدين لها بالطاعة . فما عادت اليوم ثمة قريش التي عنت لها الجزيرة في الجاهلية وإبان الأيام الأولى من ازدهار الإسلام ، بل غدت بيوتاً محولة لا يؤلف بينها ذلك الهدف القديم الذي استوحته من ماضيها المجيد والتمزقه فسادت به على الرقاب . فلقد صحت أحقادها ثانية . ورجع إلى الحياة ما كان قد نام من أضغان بمضها على بعضها الآخر . وأصبح الرجل منها لا يأخذ نفسه

بانتهاج السياسة العامة لقريش في سيادة العرب بقدر ما يأخذها بانتهاج السبيل الذي يرفع شأن بيته وحده . ثم قد لا يتوانى عن طرح هذه السياسة الجزئية واعتناق أخرى فردية إن ظن هذه كافة له سيادته هو على بقية أهله وذويه . .

كذلك كانت الدولة الإسلامية حين تسلمتها يد ، على . وكذلك كانت النفوس فيها تتقاسمها التوازع والأهواء الشخصية ولا يربط بينها غرض عام ولئن بدا من بعد أن كثيراً من فروع قريش قد اصطلت جيشاً واحداً تناجز الفرع الهاشمي في شخص على ، فلغير مصلحة عامة كان هذا التجمع ، بل كانت جميعها تعمل وفي بالها أن تزيج من طريقها منافسها الخطار الذي لا تستطيع — متفرقة — أن تقدر عليه . فإذا فرغت منه فأيسر اليسر بعد هذا أن يستقيم الأمر لأحدها إن عرف كيف يخضد شوكة بقية لفروع . . .

هذا هو الطابع الذي وسم خطط منافسي على ووجد كتابهم على كثرة ما كان بينهم من اختلاف ، فلقد كان لكل فئة منهم هدفان : واحد عام يسدد خطوها وخطا زميلاتها جميعاً ، وآخر خاص تنفرد وحدها به ، وتعمل جاهدة لبلوغه بغير معونة سواها وإن وطئت في سبيله بقية الأحلاف . فليس عجباً إذن أن ينتظم معاوية والزبير وطالحة وابن العاص وغيرهم من حساد على عقد واحد ، يجمعهم كلهم حرباً عليه كي يكاثروه فيغلبوه ما دامت كل طائفة منهم ستجهد لتكون وحدها المنتصرة في نهاية المطاف . وما نحسب هذه الظاهرة إلا جليلة تمام الجلاء في تصرف الزبير وطالحة الذين نكثا ببيعة الإمام واعتسفا الأسباب للشغب عليه . فاقد واحد بينهما حسدها فقاما في جيش لجب يحاولان انتزاع الأمر من يد على ، وإنيهما ليختلفان في الطريق على أيهما تكون له الإمرة بعد الانتصار .

تراث من العوسج خلفه عثمان ! ولكن علياً لم يكن الرجل الذي يرهب الشدائد أو تنقصه القدرة على الكفاح . فنذ اللحظة الأولى نبين

خطر المهمة التي تنتظره . ولم يخف عنه شيء مما في نفوس القوم أو خلف الأحداث . بل استشف الحقيقة كلها فعلم أنه مقبل على أمر له وجوه وألوان لا تثبت عاينه العقول ولا تقوم له القلوب ، يوشك أن يفتتن فيه الناس ويبتغوا شيعاً شتى ، تتناحر فرقتهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ، لم يغب هذا عن عين بصيرته ، ولم يكتفه عن أمته بل طالعها به منذ اللحظة التي أدلت فيها إليه بالبيعة حتى لكانما كان يقرأ من كتاب مفتوح وهو يخاطب الناس فيقول :

« .. ألا إن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم ... والذي بعثه بالحق لتبليبن بليلة ، ولتغربن غربلة ، ولتسطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصرُوا ، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا ... والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد فبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... »

ولكنه قرن به واجب لزام عليه أن ينهض به . فليس بعفيه من التبعة أن ينسكل عما وكل إليه وإن استشف النتائج الكفيلة بتشبيط عزمه ... كلا . فإن هو إلا صاحب رسالة واجبة الأداء في دنياه لا يقاس فيها إخلاصه بالنتائج وإنما بالجهد المبذول في سبيل الوصول إلى الغاية التي من أجلها كافح كفاحه . ولخير له أن يناضل الباطل بلسانه وكفه وسيفه ثم يقع في الميدان من أن يبيع صامتاً دون أن يحرك جارحة ويني بالآمن والسلامة .

كلفه بالحق لذات الحق هو الذي قسره في النهاية على قبول الولاية . فلم يكن يعرف أحداً في الناس أصلح منه لقيادة شعبه ، ولا أقوى على حمل الأمانة التي تصعبها تبعات الحكم على كواهل الحكام ، ولا أعلم منه بمفاذ الطرق التي تؤدي به إلى العدالة الشاملة التي كانت الغاية من رسالة الإسلام . وقد كان هذا الشعور دائماً مفتاح صراحته وشفافية نفسه ، ومركبه إلى غاياته بغير مداورة ولا القواء ... سئل غيب مقتل عثمان عن رأيه فلم يكتم عن الناس ما يحسه . ولم يحد عن ديدنه في المجاهرة بما يرى في وضوح

لا يتلبس بمجاملة الشيخ القليل أو يتعلق الجماهير العادية عليه وإن كانت إذ ذاك صاحبة الكلمة العليا والجناب المهاب . بل قال :

« . . . أنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . والله حكم واقع في المستأثر والجازع . »

وتلك الصراحة السافرة التي ميزت أقواله قد وسمت بطابعها أيضاً فعاله . فكما جعلته من البدء يعلن على الملأ حين أرادوا بيعته أنه سيركب بهم ما يعلم ولا يصنى إلى قول قائل أو عتب عاتب ، فكذلك أتبع القول بالفعل حين يابعوه ولم يصبر عليهم بعض يوم حتى يادرهم بما يعلم ، وسار سراعاً إلى الخطوة التي آمن من قديم أنها الأقوم . . .

لم يصبر عليهم سوى بعض يوم تهيأ فيه لإلغاء النظام القائم منذ عهد عمر نحواً من عشرين سنة نحاته الرسوخ في الخواطر كرسوخ الإيمان فلو كان على ثقة من أن عمر ، حين أمر بتقسيم النخبة وفق أقدار الناس وقدمتهم ، قد استجاب لعاطفته أكثر مما استجاب لعقله . وأنه بنحوه ذاك في التقسيم قد استحدث نوعاً من العدالة الخاصة جنح به عن العدالة المطلقة . أما هو فقد أبى اليوم أن يقر السياسة العمرية ويسير عليها كما سار سلفه . لم يصدده عن إباته أن أصبح لها عمر الزمن مثل فداسة العقيدة في بعض الأذهان ، ولا القضية التي لا بد سيثيرها التغيير في قلوب أولئك الفئة التي ميزها بالعطاء عمر وعثمان إنه ليعلم أنهم سادة ، وأن خلفهم زمراً من الأهل والنصران يغضبون لهم ، وأن ملكه الجديد غير وطيد قد تعصف به أية معارضة يشنها عليه القوم . غير أنه وقد آمن أن طوائف الشعب كلها في الحق شرعاً سواء ، لم يروجها لتمييز الخاصة ، بل وضعهم مواضعهم حيثما وضعهم قبله النبي على ذات الدرجة التي تبوأتها العامة . وقام في المسجد ثانی أيام بيعته يدلي برأيه ، وييسط السياسة التي شاء كلفه بالعدالة المطلقة أن تكون قوام عهده وقال :

« . . . أيها الناس . . . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعلى ما عليكم . »

وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال . . . فإن الحق لا يبطله شيء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق في البلدان لرددته . فإن في المدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق . . . أيها الناس . . . ألا يقولن رجال منكم غداً — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : « حرمان ابن أبي طالب حقوقنا » . . . ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتناً ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله . . . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء . . . فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ، ولا يتخلفن أحد منكم ، عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء . . . »

وبهذا الوضوح رسم لهم سياسته القائمة على العدالة الشاملة التي تسع جميع الناس سواء بسواء ، ولا تضع حواجز من المزايا تفرق بينهم أدنى تفرق . وهدم بها ما كان قائماً حتى اليوم من شرعة عمر في التقسيم . بل هو في الحق حقق حلم عمر الذي كان يراوده في أيام عهده الأخيرة لما تبين أن سياسته في توزيع العطاء قد جرت إلى قيام حواجز مالية واجتماعية بين طبقات أمته كانت فيما بعد ذات أثر هدام في بناء الدولة الوطيد . . .

ونشط في إنفاذ ما عزم عليه فصادر ما أقطمه عثمان بمضى آله ورجاله من أراض وأموال . . . وتلقب كل درهم بذل في غير وجهه ولغير مستحقه فأعادته إلى بيت المال . . . وغدا الناس عليه في الوعد كما أمرهم فقال لكتابه ابن أبي رافع :

« ابدأ بالمهاجرين يا عبيد الله . . . »

وما زال قائماً معهم يفرق عاينهم أنصبتهم حتى أخذ كل رجل من المسلمين حقه كاملاً غير منقوص من العطاء ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين أصيل ودخيل ، ولا بين سوقة وخاصة ، بل استووا كلهم لديه وإن اختلفوا في الجنس والمقام ، فكذلك جعلهم الله في الشرع سواء .

فمن عجب أن تنكر عليه بعض النفوس هذه الدالة الجديرة بأن تلقى منهم أطيب الثناء . . . ولسكنهم كانوا فئة ألفوا أن يتميزوا على الناس وتكون لهم من دون الشعب طبقة رفيعة تزه بالمزايا المادية كما تزه بالمزايا المعنوية التي ورثتها في قطرات الدم الأصيل الذي تمتلئ به خدودهم المزهوة ، فما العرب كقريش ! وما المعجم كالعرب ! وما الدهماء الغموردون كالسادة الأمجاد ذوى الأنساب . . . ولقد بلغ من شدة إخلاص هذه الطائفة لتقاليدها الجاهلية أن نسيت أنها وقد اعتنقت الإسلام قد أقربت غيرها من المسلمين بحقوقهم مثلها في التمتع بقوانينه وإن فرقت بينهم وبينها فوارق من اختلاف اللون واللسان ، وغلب عاينها الصلف حتى حسبت أنها إذ تمشى إلى الإمام تبلغه إنكارها هذه السياسة الجديدة فإنه سيبادر مسرعاً إلى استرضائها وإعطاء الأمور على ما تريد .

وكذلك اجتمع له جمع منهم كانوا أحرص على دنياهم ، فلما أن سألهم عما جاءوا فيه ، ألبسوا مطالبهم ثوب النصح ، وراحوا يبدون كمن يخشى عليه الثورة التي توشك أن توجبها سياسته في نفوس من أودت بمزاياهم من علية القوم . . . فقال لهم وهو لا يخفى عنهم دهشته وإنكاره لما يطلبون :

(أقامروني أن أطالب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ . والله ما أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً ! . . . لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ . . . ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير ، وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة) .

أغاب عن هذه الطائفة إذ ذاك أنها كانت تتشبث بحق موهوم لا سند

له من دين الله أم هم يا ترى غضبوا للدنيا وحرصوا على عروض الحياة ؟
 أم المال كان فتنة طغت على الصفاء الروحي الذي كان قد أوشك الإسلام أن
 يهبهم إياه ؟ . لئن التمسنا لهؤلاء العذر في تحيفهم على الحق الأبلج وركوبهم
 هوامهم ، فهل ثمة عذر واحد نستطيع التماسه لصاحبي رسول الله — لطلحة
 والزبير — للذين اعانا الدين إبان محنته ، وناضلا عنه حتى انتشرت ألويته في
 الآفاق ، ولم يتوانيا في سبيله عن البذل بالدماء والأموال ، وعرفا قبل غيرها
 أنه شرعة إشار وتضحية وثاموس عدالة وتسوية ؟ . . . لقد يجهد المرء في
 البحث عن الأسباب التي حملتهما على معارضة الإمام في نظام التقسيم الجديد ،
 فلا يستطيع مع إحسان الظن بهما إلا أن يجدها سبباً واحداً ، هو الهوى
 الشخصي ، ذفهما إلى مناجزة على وهو على حقه ، وإلى اعتساف الدواعي التي
 تشغب عليه امره وتضع في سبيله العوائق والمراقيل .

ولكن أمير المؤمنين لم يثر بهما حين جاء يكشفان له عن أولى بوادر
 الخلاف التي أوشكا أن ينشباها في صرح حكمه . . . لاحا كأنما هما أن يشيرا
 عليه مشورة خير ويلقيا أمامه بالعقاب الناعم الذي يرجوان من ورائه استقامة
 الأمر له ، ولكنه كان على بينة من حقيقة المشاعر التي يخفيان . . . قال
 بصوت هادئ يسوق فيه العظة والملام في آن :

« أماما ذكرتما من أمر الأسوة يا إخوانه فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه
 برأيي ، ولا وليته هوى مني ، بل وجدت — أنا وأنتما — ما جاء به رسول
 الله قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما فرغ من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس
 لكما والله — ولا لغيركما — عندي في هذا عتبي » .

فلما أوشكا أن يبرحاعنه ، لم يفته أن يزجي إليهما التصح الواجب والحكمة
 البالغة ، وكلاهما يفصح عن موقفهما منه وموقفه منهما أتم إفصاح .

قال وهو يشيمهما إلى الباب :

« ألا رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فردّه وكان
 عوناً بالحق على صاحبه ! » .

ومع ذلك فقد مضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، ويتقنان منه أنه خالف سنة عمر في التقسيم ، كأن عمر حري بأن يصيب دون رسول الله ! . . . ولقد اقيمت دعوتهما صدى في النفوس الصاغية للدنيا فالتف بهما قوم ميزهم التوزيع العمرى ووضعهم العلوى حينما أرادت شرعة المساواة . . . ووقفوا جميعاً يتحिنون اللحظات عظام يستطيعون أن يديلوا دولة هذا الرجل الذى لا يأبه فى حكمه بعراقة الأنساب أو مفاخر الأحساب ! . . . والذى نزل بأقذارهم إلى مثل الدرك الذى كانت عليه أقدار الفرس والمصريين ونحوهم من الأجناس الدنيا حتى أمس القريب ! .

ولكنه لم يلق بالآإليهم ولا إلى ما لغطوا به ، فقد كانوا أهون عليه من أن يشير بينه وبينهم فتنة على خلاف لم يتعد بعد حيز الدعوة المخافتة التى تحيى عن رفع صوتها بين الناس ، وآثر أن يصبر عليهم ، فإن قاءوا إلى الرشد نخير ، وإن لجوا فى النى فليس يمي حقه أن يقوم لباطلهم ، وبحسبه أن ينهض اليوم لنشر رسالة الإسلام بالتمكين لتماميه فى القلوب قبل نشر بنوده وأعلامه فى أقطار الأرض ، وإنه لآخذ بهذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى بدأ بها حكمه ، عامل على إقرارها لأنها المبدأ الأسمى الذى بعث الله به رسوله وجعله الوسيلة إلى جمع العالم كله فى دولة ، الأجناس البشرية كافة فى وحدة إنسانية لا تفاوت بين طبقاتها وأفرادها رغم اختلاف الألوان ، إنها العالمية ، قبل أن تتحرك بها السنة الدعاة والمصلحين ، دعا بها محمد بين الناس ، والأخوة الشاملة لجميع الخلق ، رسم خطوطها القرآن وأقامها على عالم مرجو فاضل ، عماده المساواة فى الحقوق والواجبات ، قد جاء اليوم على ينفض عنها ما علق بجوهرها من آفات الأهواء ، وآخذ نفسه بالتمكين لها فى قلوب أنصارها الأولين ليكونوا لها دعاة هادين قدين يمثلهم العليا أقطار الأرض ، فلقد علمه الزمن أن الحياة بلا هدف سام عبث صرذول قآباء كل نفس مشرقة تؤمن بوجودها قبل أن تؤمن بوجود الأديان

ولقد كفى الإسلام هذه النفوس المشرقة مؤونة استقصاء الأهداف المثلى لأنه وضعها تحت بصائرهما صريحة واضحة في غير تلبس ولا إيهام ، وجمعها كلها في كلمة واحدة نمت عنها آيات كتابه ، وبدأت جليلة حتى في شعائره . . . ولعل ثمة شعيرة من شعائر الإسلام لا ننطق بالمساواة ولا تدعو إليها بأفصح لسان؟ .. إنا لنلمسها بينة في الصلاة يستوى فيها العزيز والدليل ويتفان موقفاً واحداً بمكان واحد ، ينطقان بنفس الألفاظ ، ويأتیان بنفس الحركات . ونلمسها في الزكاة التي تأخذ من الفنى بعض عروض الحياة لترده على الفقير حتى يشعر كلاهما - وإن باعدت بينهما الأنساب - بشمور الإخاء . ونلمسها في الحج تزدهم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء ، فلا يميز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التي قد عمل لها أهواء الإنسان ، بل نراهم عند القيام بمناسكه حفاة شبه عراة ، لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوى فيه كافة الناس ، أردية الأكفان ! . التسوية الحققة هي جماع الإسلام والغاية التي هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص في موقفهم أمام الله ، لأفضل لعربي على عجمي ، وللخاصة على عامة ، ولا لأمر سائد على عبد مملوك بل لعل أبلغ مظهر من مظاهر التسوية أن هداهم إلى رب واحد - وكانوا من قبل يتجهون إلى آلهة شتى - لتكون المساواة بين الخلق أجمعين تامة في كلا الروحانيات والماديات .

هذا هو الهدف الأمثل الذي عنى على بإخراجه من حيز الكلمات المنقوشة في الأسفار إلى الحياة العملية ، وأخذ نفسه من البدء بتطبيقه على شعوب دولته المترامية لتكون شعباً واحداً كرجل واحد ، فتنحقق به وحدة العالم الواسع الأطراف .

العالية كانت الغاية التي سعى إليها مهتدياً في طريقة بنواميس الشريعة وبما جبلت عليه طبيعته المنطوية على إنسان كامل يريد أن يطبع على شاكلته كل إنسان ، ولقد عاش عهده كله وهذا رائده ، فكان قوياً كالرمح ، عادلاً

كاليزان ، تستجيب له كل نفس كلفة بالمثل العليا كنفسه ، مؤمنة بحق
الإسانية الفاضلة عليها ، وبحق الأخلاق السلمية ، المتجردة من أوشاب
الأهواء ...

٣

كيف استقبلت قرهش بيعة الإمام ؟ ... ليؤكد أن يبرز وجه الماضي سافرا
من خلال الحاضر . فالحسد هو الحسد . والحق هو الحق . والوسائل الخفية
التي جشت من قبل الحرب بنى هاشم هي ذات الوسائل . ولو كان خلى بين
قرهش وبين الأمر لوسمها اصطفاغ الأساليب الكفيلة بإقصاء على عن الحكم
قبل أن يصل إليه ، ولكن الشعب وقف دونها هذه المرة ودون ماتريد ،
ومارس حقه الطبيعي في الدعوة للرجل الذي يرضاه مادام النظام السائد إذ
ذاك قصر حق الانتخاب على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار دون بقية
أهل الأمصار ، وتمت البيعة هكذا لعل لأنه كان أولى الناس بها من أعوام
ولأنه كان وحده الجدير بأن تلتف حوله إرادة الأمة الإسلامية بى ضمت من
أجفاس شتى ، آمنت كثرتها العظمى بأن إليه منتهى رجائها ، وعليه تنعقد الآمال
في أن يقودها إلى الأهداف المثلى التي لا ريب ستحقق لها ما تنشده من حياة
كريمة في أكناف الحرية والكرامة والمساواة

أرادت هذه الوفود القادمة من أطراف الدولة فاستجابت لها حاضرة
الإسلام ، وهتفت باسم على فرددت المدينة خلفها المتفاف ، أقبلت كلها
إلى الإمام في زمر متدفقة كالأمواج تدعوه أن يتسلم زمامها ويقودها إلى حيث
يريد ولم تسمح له بمجرّد التردد في القبول ، ولم توافقه على
أن يدع قيادة أمورها لغيره ، بل إن الحرية التي مارسها لأول مرة هذا
اليوم في الاختيار سلبته إياها ، إذ أبت عليه أن يكون هو حراً مثلها ، يرفض

البيعة إن شاء . . . قهرته على التسليم لها ، وأجبرته على الرضوخ لمشيئتها لأنها رأت فيه القائد الذي لا يصلح أمر الأمة بسواه .

وكانت قريش في الأيام القلائل السابقة للبيعة جالسة تنظر ، يمنحها الخوف أن تجهر بالرأى الذي تحب أن يصير إليه الإجماع ، ويملاها الأمل في أن تصدف الجماهير عن هذا الذي ظل يراوغها ويتماد عن طريقها لقفوته الإمرة .. فلما أن غلبت عليه إرادة الأمة وحملته على قبول ما تريد ، لم ترقريش بدا من مسaire الشعور العام خشية أن تشير على نفسها ثائرة الشعب ، وسارعت تباع علياً بالخلافة وهي تخفى بقلوبها غير ما تبديه .

ومع ذلك فأحسب أن ثمة طائفة منها ما لبث القدم أن راح ينهش قلبها غب يبعثها للإمام ، وأخذت تنجى باللائمة على أكفها أن امتدت نحوه بتحيةة الولاء ! . . . لو أنها صبرت لجنبت أنفسها مؤونة نكث العهد الذي لزم رقابها له ، ولكانت إذن حرية بأن تخالفه وتجار بخلافه إن شاءت وهي آمنة اتهام التاريخ . . . ولكن ما غلب على أذهانها من رهبة الجماهير أشاع في قلوبها خوفاً أركبها ما تكره ، وقهرها على البيعة دون بادرة واحدة من الشعب تحمل معنى الإقهار ، وجعلها من بمد تقف موقفاً — إن رضبته هي — فليس يرضاه لها الوفاء ، فما كان على بالرجل الذي يأخذ لنفسه البيعة من امرىء أباه عليه وإن كان ذلك الإباء وليد موجدة قديمة أو سوء إدراك للحقائق الأمور . . . ولقد جرى له باين أبى وقاص وإنه لمتوقف عن الدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لغير سبب معقول سوى قوله :

« لا أباع حتى يبايع الناس . . . والله ما عليك منى بأس »

فلم يثربه . بل سمع منه حجته الواهية ثم قال للناس :

« خلوا سبيله . . . »

وأباحه الأمن والطمانينة كمن والاه . . .

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن عمر ذلك النهار ، فلم يكرهه على البيعة

بل أخذ موثقته ألا يشغب عليه . وطالبه أن يختار له من بين القوم رجلاً يضمن
الترامه هذا الموثق وعدم خلفه . . . وقال له :

« اثنتى بحميل . . . »

فأدار بن عمر عينه لحظة في الجمع الصاخب عليه ، ثم ردها بغير عناء إلى
على تلقى عليه نظرة وسنى . . . وقال بصوت لعله اشتمل نبرة تحذ إلى جوار
قلة المبالاة :

« لا أرى لى حميلاً . . . »

فالتهمت عايله موجدة القوم . وضافت صدورهم بموقفه ، فلو شاء لفاء إلى
الحق وله معدى عن تجاوزه بما لقيه من أناة الإمام وترفته به ، ولكنه كان
قد عقد الفية على الخلاف لغير سبب يوجب عليه هذا الخلاف .

وصاح الأشتر وهو بآدى النيفظ وقد رفع فى يده سيفه :

« خل عنى أضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! . . . »

فاستمسك الإمام جهده ، لقد أبى أن يستجيب للغضب الذى جاش
بصدره ، وداور نفسه ، حتى إذا سل منها سخطها على غريمه وأبدلها مكانه
الصفح عنه . . قال :

« بل دعوه . . . أنا حميله . . . »

وقيل له بعدها عن نفي قلائل من اهل المدينة احتجبوا عن يومته وأبوا
الظهور للناس حتى لا يذمهم إليه . . . فلقد أراد أعوانه أن يأتوا بهم إليه
راضخين مقهورين ليرى فيهم رأيه ويبايعوه ، فذمهم وقال :

« لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فيها . . . »

أحسب هذه الصور الشتى من ترفق الإمام بمخالفيه قد تبدت الآن
أمام أعين بضعة من قریش كانت سارعت فبايعته وهى تحنى له غير ما تبديه .
وأحسبهم وقد شهدوها ودوا لو كانوا صورة منها فلم تسبقهم إليه أكنهم
بالولاء . . . أما وقد عاهدوه على الطاعة ، وعقدوا فى رقابهم بيعته ، فقد
يأتوا يعدون اللحظات ويتمجلونها أن تسرع بهم عسى يستطيعون اعتساف

الدواعى التى تحررهم من عهدهم وتردهم إلى الموقف الجدير بهم والذي هم به جديرون وهل ثمة أليق بقريش من مسابقة مشاعرها القديمة على بنى هاشم ، لا ينجو من عنفها سليل هاشمى حتى تربص بسليل بين كل جيل وجيل ؟!

تكتلت إذن الأحقاد العصبية ثانية . وتوحدت بيوتات قريش — المتنافسة فيما بينها — أمام سليل سيدهم القديم . فالغاية اليوم أن تطيح به ثم تفرغ بعده للفتاب على السلطان ، يستوى فى هذا من بايع له ومن قعد عنه ، ومن قام من بداية الأمر يفتأجزه ويحرض عليه الناس ، فمن عجب أنهم نسوا جميعاً الدواعى التى تفرقهم عن بعضهم بعض — على كثرتها — وذكروا سبباً واحداً التفوا عليه هو الحسد الذى لم تحرر نفوسهم من برائته بعد . وقاموا يدعون علانية وخفية لفض المسلمين عنه . ويمتسحون العلل الكفيلة بتأييد دعوتهم وترسيخ هواهم فى نفوس القوم ولو بالإهانات والتضليل دون التدعيم والتدليل ، ويتذرعون بكافة الذرائع التى يكون من ورائها بث العوائق والعراقيل فى سبيل الإمام . لا غاية لهم إلا الشعب عليه وإفساد أمره ، وإظهاره للملأ آونة فى مظهر العاجز الضعيف وثانية كالمستغنى بقوة عن كل قوة ، وثالثة كالمشاغل عن إقامة حدود الدين ، وأخرى كالشديد فى غير هوادة والعنيف فى غير لين ، إلى غير هذا وذاك من أوصاف متقاربة ، تضل بين أطرافها المتباعدة أنواع الاتهام ، ثم لاتكون فى رأى الحقيقة إلا حجة له تدفع باتهامها كل أولئك الأخصام .

ثم لاتكاد تنطوى من دورة الزمان إلا أيام حتى يبادر جمعهم إلى الشعب على الإمام لكل فريق منهم طريقة فى النيل منه تختلف والأخريات وإن التقت وإياها فى نهاية المطاف ، فابن أبى وقاص الذى وعد من نفسه إحسان السلوك لم تسكن نفسه وإن سكن جسمه . ولم يضع قلبه وإن أغمد سيفه . بل لاثلبث حتى نراه قد أرسل إلى ابن العاص كتاباً يصف الأحداث حسبما

رأى هواء ، ويكشف عن خفايا دخليته ببيانه مالم يكشفه بمنطق لسانه ، قال في الخطاب :

« ... إنك سألتني عن قتل عثمان . فاعلم أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحه ، وسمه ابن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا لدفنا عنه » .

هذه الرسالة تلقى ضوءاً على جانب من حلقة الواقع التي حدثت أثناء تلك النازلة التي دهمت الإسلام ، وتسكاد في مجموعها تكون صورة صادقة لموقف قریش . رسمتها ريشة رجل منها يستبعد منه أن يتجنى عليها ويظهرها أمام التاريخ ، ومع ذلك فلسنا نرى فيها إلا تحييفاً ظاهراً على علي ، مرده فيما نحسب إلى تلك العاطفة التي ما فتئت تشور بجوانح سعد وأمثاله ممن جرت في عروقهم الدماء الفرشية . فليست الحقائق السافرة هي وحدها التي أنطقت قلمه وأرسلته يرسم هذه الصورة الفذة لأبطال تلك الحقبة المليئة باصطراع الأهواء . فإنا نرى قریش هي التي سلت السيف وصقلته وسمته ثم دفعت به في نهاية المرحلة الفاصلة إلى أيدي العادين ليضربوا به الضربة التي خجلت هي أن تضربها . وامتلأ نفوسها بالمطامع هو الذي دفع بها إلى ذلك السبيل . وتفرق هذه المطامع بينها هو الذي ضرب بعضها ببعض ، وردها آخر الأمر إلى فرق تنفازع السيادة وتندرع بكافة الذرائع للفوز بما تريد . وما كانت حين نعمت من عثمان فماله بالغاظبة للحق بقدر ما كانت موكولة بتحقيق مراميها من حب السطوة ومظهر السلطان .

ولقد كانت منها فئة قليلة آثرت اعتزال الصراع الناشب بين بقيتها وبين الخليفة القليل . وجلست صامئة ترقب الأحداث التي أخذت تتجمع رويداً رويداً كسحب الغيث قبل حلول أوان العاصفة المحتاجة ... وكان سعد من هذه الفئة المنتظرة ، فعمد يشهد ما يدور حوله ولا يمد يده إلى شيء منه . لقد فاء من نفسه إلى همه فترت بمد طول نشاطه وخذت جذوتها بعد وفرة تسمر . لم يتحرك مطلقاً لنصرة حق أو لدفع باطل ، كأنما الأمر لا يعنيه فلما

بدا له الختام الحزين الذي أسفرت عنه الوقائع ، ملكه القدم على ما سلف منه إلى جوار شعوره بالنقمة على قومه الذين أعانوا بالفعل واللسان على تفويض دولة ابن عفان . وأبى عليه إحساسه القديم ، الذي هو صدى الشاعر القرشية تجاه البيت الهاشمي ، إلا أن يتحيف على علي . . . وإلا فكيف نسبغ هذا الحكم من رجل فعد وأثر السلامة على رجل طالب ناضل وكافح من أجل عثمان كما لم يفعل مطلقاً سواء من الخلفاء والأعوان ؟ أم ترى لسان ابن أبي وقاس أرفع صوتاً وأعلى جرساً من حديث الحقائق الواضحة والواقع الهابت الذي لا يفيد في نقضه وانتقاصه سوق اتهام وإزجاء إيهام ! ؟ .

ولكنه كان واحداً من بين بقية أهل الشورى الباقية في الأحياء ، والتي لم ينس لهم موقفهم من ابن طالب حين كان في مقدورهم ترجيح كفته لو شاءوا السير على المنهج القويم . بل لعله اليوم أرفق بالحق منهم وإن لم يكن الصق به . . . بل هو أقدرهم على امتلاك ناصية مشاعره القرشية حين أفلت منهم زمامها ولم يسمعهم كبجها بعدان . ولقد يكون مرجعه إلى عقدة نفسية غرسها في واعيته فشله مرتين في إحسان القيام بمنصب الحكم اللذين وكلا إليه : مرة في عهد الخطاب وأخرى على أيام عثمان ، ولقد يكون مرجعه إلى غير هذا أو ذاك من أسباب ، ولكنه في الحق لم يسلس القياد لهواه كما فعل أصحابه بل لعله في عين كل منصف يقدر سطوة الدوافع النفسية ولا يفوته إدخالها في الحساب ، لم يستجب لمعاطفته إلا بمقدار قد يغفر له ولا يلام عاينه إلا أيسر الملام . . . أما الآخرون فكانوا على النقيض تجمعت فيهما شهوة النفس وشهوة الحس حتى أصبعا على غير ما يجمل بخدينين مثلهما من خيرة صحب رسول الله . مال بهما الهوى القديم وغاب حبهما الدنيا على حبهما الحق ، وهو واضح أمامهما ، مشرق ، سافر الوجه ، لا يخفيه عن أعينهما إلا الكلف الذات كلفاً تمشى به الفواظر وتطمس العقول والبصائر ، ولسنا بهذا نتناول على مقام الشيخين أدنى مطاولة ، ولكننا نثبت الحالة النفسية التي كانت لهما في ذلك الزمان

والتي لم يستطيعا أن يتحررا من قبضتها الحديدية إلا إن استطاع أن يتحرر من خفق فؤاده كائن حي ثم لا يهجره بعده عامل الحياة ! فقد تأصلت فيهما عاطفة الميل عن علي كما تأصلت في الأسلاف القرشيين من عدة أحقاب وجرت في عروقهم كجري الدماء . ولكنهما بغير شك كانا أدنى مرتبة من صاحبهما سعد بمقدار وأحرص منه على عروض الدنيا . ووسعه هو ما لم يسهما . فحكم عاطفته وبالغاها في إسلاس القياد .

وجرى ابن عمر أيضاً على سياسة ابن أبي وقاص ، فلم يصح لهواه كل الإصغاء . وجانب الفريقين المختلفين طوال مدة الخلاف وإن كان الأولى بمن هو مثله أن يظهر الحق ويتبعه حيثما يسير . ولكنه هو الآخر صورة قرشية ، فمد عن نصرة الحق لما وجدته في جانب ابن أبي طالب ، أفقر آراء في قومه أكان يتوانى لحظة عن القيام فيه ..

لقد يمي المرء أن يستقصي أسماء أولئك السادة الذين بادروا علياً بالسيف واللسان يضربونه على حقه بباطلهم ، ويحشدون له صفوفاً من التعلات تغري به جهال الناس ، ولكننا نعلم أن هذه التعلات لم تكن وفقاً على طائفة منهم دون طائفة ، بل اشتركوا جميعاً في صوغها على الشاكلة التي تستهوى ضعاف القلوب . وأن المدينة لم تكن وحدها مباءة أولئك المناوئين ، بل انتشروا بكل مكان كان فيه مقام لنفس مريضة أو لضمير مفلوم ، أو لعل أكبر هذه الباءات وأفسحها رقعة بلاد الشام ، تلك التي غدت مسرحاً . يمثل عليه مأساة هاشم وأمية كرة ثانية : الإمام علي والنهضة معاوية ! ..

{

بالشعب وللشعب .

ما من خطة احتذاها على في حياته السياسية إلا كانت تسير وفق هذا

الشعار . حتى من اللحظة الأولى التي تقلد فيها البيعة وحتى في أحلك ساعات تاريخه القصير ظلمة . . دفعه إلى هذا تكوينه الخلقى وسجاياه . ثم ظروف الأحوال التي أحاطت به وسيرته يوماً فيوماً .

هذه حقيقة ثابتة يستطيع المرء أن يستشفها من خلال حياة الإمام . . وإن عرضاً موجزاً لقصته لكفيل بأن يرينا كيف كان للأحداث أثرها البالغ في طبع نفسه بالنزعة الشعبية التي هي صورة صادقة لمشاعر الشعب كالحال في الأصل والخيال . . . ففي طفولته الباكورة لا نحسبه أحسن مطلقاً كما يحس أمثاله من أبناء الأشراف . فقد فتح عينيه على عيش ضيق أوفر كاهل أبى طالب حتى دفعه إلى توزيع أولاده على طائفة من أهله ليحملوا عنه بعض عبئه . وخرج على من دار أبيه إلى دار محمد وإن بقلبه لشعور الطفل الذي لم يرتو بعد من عطف أبويه . وإذا كانت الأيام ما لبثت أن كشفت له عن فيض من حسان الأبوة والأمومة لا يتسع لثله قلبان ، فإنه بداره الجديدة لم يعرف العيش المترفع الذي كانت تحياه السادة في ذلك العصر ، بل هو في أغلب الأحيان كان أدنى إلى حياة الخشونة من أفراد الطبقة الفقيرة ، إذ عاش في كنف رجل لم يلق بالله إلى نعيم دنياه ، وإنما راح يهيئ نفسه وآل بيته لرسالة سامية ارتفعت ألويتها بأيدي المحرومين ، لأنها جاءت لتنشلهم من وهدة الهوان النفسى الذى خلقته الحاجة ، لتكسر الحواجز القائمة بينهم وبين ذوى الثروات وأبناء البيوتات ، ولتقيم للناس عالماً جديداً على أساس مغاير هو صفاء الروح . بعد أن كان عالمهم قائماً على المادة الصماء .

وجلى بعد هذا أن سنى الطفولة طبعته على الفرار الذى شهدناه في صباه وفي بدء شبابه . وأن هذا الدرس الأول كان له في نفسه أثر خالد . فلما سارت به الأيام في طريق العمر أخذت تبدو أمام ناظره عوامل أقدر على تشكيل الخلق من النظرة العابرة التي تلقبها على الدنيا عينا حدث . وبدأت مقومات شخصيته تتجمع مما استخلصه من سيرة محمد قبيل وفي

مستهل الدعوة السماوية . فلقد كان النبي وحده مثله الأهل ، وكانت أعماله كلها هي النبراس الذي سار على ضوئه ، سواء في هذا ما اتصل منها بمظاهر الحياة العادية كالمشي والأكل واللباس وما كان يتم عن اتجاه خلق معين أو نزعة نفسية ذات طابع خاص .

لقد اتسع دائمتاً قلب محمد للرحمة . والرحمة لا تبذل إلا للمحروم . والحرمان كلمة نستطيع أن تشمل كل شقاء بشرية ، فالضعيف حرم القوة والحول ، والمريض حرم نعمة العافية ، والمظلوم حرم حماية العدالة ، وكل أولئك وأمثالهم ألوان من إنسان يحى حياة لم تكتمل لها بعد أركان الإنسانية الصحيحة ، قد سلبه المجتمع بعض حقه عليه . . .

هذه صور حية للحرمان الذي يعيش عادة في وكر الفاقة ويمتص غذاءه من دم انفقير . لا تتمدد مثيلاتها إلا في الطبقات الدنيا التي تؤلف الكثرة الغالبة في كل مجتمع آدمي . ولا تلقى الرحمة إلا من قلب انسعت جوانبه لمشاعر الإنسانية وما انطوت عليه من آلام . واقد عاشر على أرحب قلب أنجبته البشرية ، وعرف آيات صفائه وعطفه . فإذا الرحمة التي أضفاها محمد تجدد لها صدى في قلبه . وإذا الألم لهم يهز كيانه ويملاً نفسه بالأمل في تخفيف ويلاتهم حين يستطيع ، مرة ليستجيب للشعور الكامن في أعماقه ، وأخرى ليضيف إلى مقومات شخصيته دعامة أخرى من خالق الرجل الكامل الذي أصبح له مثلاً أعلى في هذه الحياة .

ثم جاءت رسالة الإسلام . ومضت دعوتها نشق طريقها جاهدة إلى أرواح الناس . وتفتح بها وعى على ، وآمن بها قلبه ، وصفت لها روحه صفاء لم يعد له في غيرها صفاء . فما تكشفت له عن تشريع وتقنين بقدر ما تكشفت عن رحمة سابغة تستوعب كل الرحمت وتتناول الشقوة الإنسانية بالدواء الذي يحسم أدواء البشر في كل زمان ومكان . فإما الدين هدى . والهدى رحمة تمحو ظلمة الجهالة التي رانت على بصيرة الإنسان . والجهالة في نهاية الأمر حرمان من النور الروحي أيما حرمان . . .

جلاء الروح كان الغاية المنشودة في الدعوة المحمدية لأنه الطريق الوحيد إلى إسماعد البشرية . وأيما تشريع نزل به القرآن فهو وسيلة لتنظيم المسائل المنبثقة عنه انبثاق الفروع عن أصل الدوحة . أو هو رياضة دائمة للنفس حتى يتمكن فيها الصفاء كما يمكن الري للبذرة في النماء . وقد حرص الإسلام على أن يرفع ظل الحرمان عن الأرض فدعا إلى التحرر من عبودية الدنيا . . دعا إلى السمو عنها ، والارتفاع بالنفس إلى آفاق يتضاءل فيها جبروت المادة فلا يكون لها ثمة سلطان . بل تنقلب في النهاية مطية طيعة للانسان الكامل الذي نهم أن تصوغه الدعوة الجديدة .

الرسالة السماوية رسمت إذن للناس النهج الأمثل . ونادت بنصوص آياتها وروح معانيها بالتزامه لتصل البشرية إلى الخير المطلق — أو الخير الممكن ما دامت لا تتوفر العصمة لإنسان . وكان جماع مبادئها حرب الحرمان في كافة صوره ، وغايتها محو آثاره عن هذه الدنيا التي أخذ منها مباءة . وما دام الصفاء قد شمل روح البشر فقد أنجلت البصائر ، وصفت الأذهان ، وخلصت النفوس من شوائب الهوى التي هي ركام المادة . وأيسر اليسر بعد هذا أن تتوحد مشاعر الناس من كل جنس وفي كل عصر . فوحدة الشعور هي الخطوة الأولى اللازمة لبناء البشرية على أساس سليم . أو هي في الحق كل الخطوات . والأعمال المنبثقة عن إحساس واحد متسقة بدون ريب ، لا تفاوت بينها ولا اختلاف ، لأنها صادرة عن نبع واحد كما ينثب القلب الدم إلى الجسد ، لا يؤثر عضواً ولا يحرم آخر لأن البلاء في التمييز وفي الحرمان على سواء .

جاء محمد رحمة للناس من لدن رحيم . في يمينه تنزيل يبدد ظلمة الجهالة ، وينير بصائر الخلق للحق . ومن استوعب لب الإسلام ففسد عرفه دعوة صريحة لسيادة الصفاء على النفس الإنسانية ، وتبييناً للأساليب التي تمكن له ، وتنظيماً للأعمال التي تليق عنه . إنه هداية إلى حقيقة الصلة بين الخالق والخلق ، وبين الخلق بعضهم حيال بعض ، وما يتبع هذا كله من حقوق

وواجبات . وهو في مجموعه عرض يشمل كل مشا كل المجتمع البشرى ما بقيت على الأرض حياة إنسان . ويصف لكل منها العلاج الذي تستطاب به .

وما من امرى عني باستقصاء أصول هذه الأدوية الناجمة إلا وجدها مشتقة من الرحمة . وهـل ثمة عاطفة أولى منها بتوحيد شعور بني الإنسان ، وأجسدى في النهاية على آحادهم ومجموعهم ماداموا بها وحدها يرون أنفسهم أعضاء في بدن واحد ليس يصح كله إلا بصحة أفراده ؟ .

ما من ريب في أن سعادة البشرية وقف على وحدة الشعور ، وأن هذه الوحدة بدورها وقف على نجلاء الروح الذي هدفت إليه تعاليم الإسلام . ولقد استطالت الأعصر بعد محمد ونوالت على الأرض . وتعددت مآسى البشر وويلاتهم وفق تعارض ما يمتدل بنفوسهم من أهواء ، ثم حفزت البلائيا طوائف من دعاة الإصلاح إلى اصطناع الأساليب التي عساها تحسم عن الإنسان ما يقاسيه ، فآزى عقولهم أسفقتهم بوصف حلول تحوم كلها حول ما فصله القرآن . ولقد استيقن على قبل مئات الأعوام جدوى تعاليم الإسلام وتشريعاته في شفاء الشقاء البشرى فكان أحرص الناس على تطبيقها في مجتمعه ، في البدء يبذل الرأى لذوى الأمر ، ومن بعد بقيادة أمته على هذا النهج الأقوم إذ علمه السبيل الوحيد لاستكمال جوانب الإنسانية . ولم يخف اتجاهه هذا عن الميئون من قبل أن يلى السلطان . بل كان باديا منه هذا الحرص لكل صحبه ولجمهور الناس حتى قال صر فيه إنه أحرص قادة الأمة الإسلامية بأن يحملها على الحق الواضع والمحجة البيضاء .

ولم يكن إيمان على بالرسالة الإسلامية إيمان انقياد وتسليم ، وإنما كان وليد بحث ودراسة عميقة . وإذا كنا في البدء رأينا يبادر إلى اعتناق الدين الجديد وهو في سن لعلها لا تصاحب النضج الفكرى التام ، فإن قسوة التجارب التي مرت بها الدعوة في أعوامها الأولى كانت كافية لتصلل ذهننا كذهنه دل دائماً على التبكير في النضج . وكانت الشاهدة من بعد كفيلة بأن تزيه جدوى الإسلام على النفوس التي تفتحت له — على هذه

الحففات القلائل من الرجال والنساء الذين اعتنقوه فهدبهم إيماناً تهذيب حتى بدوا بين قومهم الجاهليين كما تبدو الزهور النضرة بين الأوحال ! ومع ما لقيت هذه الفئة الصغيرة من نكال وتعذيب ، فإنها استمسكت دائماً بعروة الدين لأنها استغمرت معه سعادة لم تذوق مثل حلاوتها في حياة الرذيلة والأناية وقلة المبالاة التي كانت تحيها من قبل . فلا أول مرة أحست بإنسانيتها الكاملة لأنها ربطت هناة كل فرد منها بهناة الآخرين .

نضج تفكير على بالمشاهدة ونضج أيضاً بمباشرة لصاحب أنضج تفكير أتاحت له الحياة في هذا الكون . ثم انطلق على الأيام يشبع ميله إلى نهل الحكمة من نبعها الأول : كتاب الله . فما استظهره كما كان يفعل الرواة والحفاظ ، بل استوعبه استيعاب تأمل واستقصاء . وراح يستشف ما وراء ظاهر النصوص ، وقيس الآية فيه بمثلاتها ليستخلص أتم الأحكام . وبلغ في هذا غاية الشأو حتى أصبح عند أهل زمانه صاحب الرأي الأخير في التفسير ، وصاحب الحكم القاطع في الفقه والشريعة . وبقيت من بعده آراؤه ودراساته أصولاً ثابتة للعلوم الإسلامية في كل الأجيال .

وبقدر إيمانه بكمال الشرائع التي تضمنها الإسلام ، وكفايتها لتنظيم المجتمع الإنساني على أساس سليم ، فكذلك كان إيمانه بسنة الرسول . فإن هي إلا تبع للأصل ، وتفصيل لما أجمله القرآن . وإن طاقة العقول البشرية بعد هذين النبعين المحدودتين ، وجهدها في اصطناع الأساليب التي تستطيع إصلاح العالم لقاصر أيمانها قصور . فائمة أحد أرحم الناس من الله ، ولا شريعة أكمل من شريعته ، ولا علم بأحوال خلقه كمله .

كذلك أخذت نظرة على إلى مجتمعه تفعكس من نظراته العميقة إلى لب الدين . وإذا كانت الرحمة هي الوسيلة الوحيدة لتوثيق الصلة بين المجموعة البشرية ، فهي نور يهب المعرفة ، ومعرفة تبصر الإنسان بأوصابه وأوصاب إخوانه من بني الإنسان . وعاطفة نبيلة لاتنبعث إلا عن نبيل وبكل نبيل من الخصال والفعال . وأولى العالم بها مجتمع ضعف شعور أفراد إنسانيتهم

فقلب عليه الحرمان من العلم أو العدالة أو أمثال ذلك من ألوان الحرمان

وطبيعى أن تتعلق رحمة على بأوساط العامة لأنهم أدنى طوائف المجتمعات إلى الحرمان ، فحيثما كانت الفساقة نبتت مآبى البشر ، وحيثما استشرى النقر فسدت المجموعة الإنسانية التى تحتويه ، لا لأن الفقر فى ذاته رذيلة ، ولكن لأنه مظهر من مظاهر فساد خلقى جدير بالكفاح ، هو انعدام العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن مرد هذا بلا ريب إلى انعدام وحدة الشعور .

على أن الرحمة التى استشعرها على حيال الطبقات الدنيا لم تكن وحدها ما يعلل قلبه ، بل جاورها إعجابه بنبلهم ، وإكباره لما بدت عليه نفوسهم من صفاء . لكان الحاجة صهرت قلوبهم وطهرتها مما يعلق عادة بالقلوب من أدران . . . لكان حسهم أرهفته قسوة الآلام التى أذاقهم إيها المجتمع الظالم وجلت عنه ركام الهوى والمطامع . . . فهذه الفئة المحرومة التى كانت إذ ذاك نقاية الطبقات كانت أول طوائف العرب إلى تقبل الهداية ، وأسرعها إلى تلبية دعوة السماء حين جاءها محمد برسالة الإسلام ، ولقد شهد لها على ألواناً من الإخلاص لم تطف ظلالها بنفوس السادة والأثرياء ، ورآها دائماً أقرب إلى الرسول من برده ، تلتف به ، وتفقدية ماوسمها الفداء ، وتبذل فى سبيل رفع لواء دينه كل ما استطاعته من جهود وتضحيات ، بينما وقف الخاصة يناجزونه وقد حسبوا أنهم قادرون على النيل منه والقضاء على رسالة الهدى والنور .

قد كان لهذه العوامل وأمثالها أثر فعال فى صبغ على بصهفته الشعبية ، وفى توجيهه وجهته إلى أحضان الشعب ، حتى من قبل أن يصلب عوده ويعرف لنفسه حقها فى زعامة الأمة . ثم تلتها من بعد أمور وطدت له إيمانه بالشعب وزادته اقتراباً من الطبقات الفقيرة التى تؤلف الجانب الأكبر منه ، فلقد لقي بعد وفاة محمد عنناً من قومه أبحا عفت ، وغلبته أهواؤهم الجاهلة على حقه الواضح لأنهم تقسوا عليه أن يفوز هاشمى مثله بالخلافة ،

وعملوا جاهدين على ابتزاز سلطانه كلما آن له أن يلى هذا السلطان . . وما من مرة مد بصره إلى صفوف مناوئيه إلا شهدها قد انتظمت أبناء الطبقات المربقة وذوى الأحساب والشرف العريض ، يقفون منه كوقفهم من محمد فى أمسهم القريب . . وما من مرة رد طرفه إلى من وقفوا خلفه يظهرونه ويرتجون نصره إلا وجدهم من ذات الفئة المستضعفة التى صهرت نفوسهم نار الحرمان — أولئك الذين سارعوا إلى الهداية ، ونشروا الإسلام باستمساكهم به وثباتهم على عقيدته قبل أن ينصروه بأسنة الحراب ورموا بأوطار الدنيا وآرابها دبر ظهورهم إذ لا غاية لهم من هذه الحياة فى مال أو جاه .

ومضت هذه الفترات التى كرثته فيها الحوادث ، والتى عنت فيها رقاب أولئك السادة لشريعة الحسد والأحقاد ، وانطوت فى الزمن السيار كانطواء الغل فى قلوب أهله . . ثم انتشرت على أثرها صحيفة جديدة من تاريخ الإسلام كانت حرية بأن تكون ألمع صفحاته إذ انتهت مقاليد الأمر إلى أولى الناس به وأصلحهم له بعد رسول الله ، فابغىب عنا حين نستذكر بيعة الإمام ، ونستعرض العوامل التى أدت إليها ، أن نرى كيف كانت مشيئة طبقات العامة هى الغالبة ذلك اليوم ، وكيف قامت دولة على وحكمه على اكتاف جمهرة الشعب الإسلامى فى كل الأقطار وإن كرهت الخاصة وكره الأشراف .

بالشعب وللشعب .

شعار دائم لم يتغير . وعلم ظاهر على سياسة الإمام لم تبدله الأحداث . وخطة واضحة استمدت وحياها من الماضى بتجاربه ومشاهداته ؛ ومن الدين بتماليه وروح آياته ، ومن الحاضر بتبعاته والتزاماته . وبحسبنا أن نصحب أعمال الرجل الذى سوده شعبه لفرف إلى أى مدى كان مخلصاً للبدا الذى اختلط بدمه وأصبح جزءاً من كيانه . . . حتى من أول خطوة حين قوض التقسيم القديم القائم على التفرقة على توزيع الأعطيات على

الطبقات ، ورده إلى نظام المساواة ليقوم صرح للمعدالة الاجتماعية التي استهدفها الاسلام . . . وحتى في ثأني خطوة حين استجاب لشكوى المحكومين من الحكم فراح يعمل على بناء حكم صالح لا يقوم بعير صلاح الحاكم ورضا المحكوم .. وحتى في كل خطوة بعد هذه وتلك سارها إبان عهده القصير الذي اصطلحت عليه الفتن والخلافات ، وغالته المحن والشدائد فلم تصب أيها منى جلال صاحبه ولا من رعاية قلبه واتساعه لأمته ، ولا من صفاء روحه الذي عاش ومات وهو يجهد أن يطبع الناس على غراره النبيل ..

٥

كاد الناس أن يتبينوا في أفق الحاضر سمات الانقلاب الذي يوشك أن يتولى الأوضاع المألوفة ، فما غابت عنهم نظرة الخليفة الجديد ، ولا آراؤه في الحالة القائمة بكافة أركانها في السياسة والاجتماع والاقتصاد . ولا حتى ما تميزت به أخلاقه من نزعة مثالية لا تنهدأ إلى ما كانت عليه الأخلاق العامة من رخاوة حين ذاك . ولأولى بمن كان على شاكلة ألا يصبر يوماً وبمض يوم على هذا الانحراف الخلقى وهو يعلم أن دعامة الأمم الأخلاق .

ولقد بادر الإمام بتنفيذ خطته المثلى في ذات اللحظة التي رقى فيها منبر الخلافة أول أيام عهده . وجأ القوم بسرعة البت في الأمور وحسمها على النسق الذي يؤمن به ويرضاه . ولم يكن ثمة قانون يلزمه سوى تشريع الله وسنة الرسول لأنهما غاية ما تستطيع أن ترقى إليه العقول . فهما نهجه الواضح ، والقيس الذي يضئ أمامه الطريق إلى بلوغ السكال . وهو ينصوصهما والروح التي انطوت عليه جد عليم . ليس ينقصه بحث ولا دراسة ليتبين الوسائل التي تنفع الإصلاح المنشود .

استدشف القوم بشارت الانقلاب الشامل الذي آذن به اختيار على لولاية أمر الدولة الاسلامية واختلفت نظراتهم إليه بين إكبار وإنكار . فلقد

كان جمهور الأمة يتوقع الخير من خلافته لأنه آمن بأن الإمام رئيس أمة قبل أن يكون حاكم دولة . يعنى بشئون الناس كعنايته بشأن أسرة . ويستلهم مصالحهم العام بوصفهم مجموعة بشرية لها مشاعرهما ، ولها حقوق حياله قبل أن يتقاضاها ما عليها من التزامات . وكان الكيان السياسى فى نظر على تيمماً للكيان الإنسانى ، ونتيجة مترتبة عليه . وكانت وحدة الشعور وحدها بين أبناء المجتمع الواحد هى الكفيلة بضمان الوحدة السياسية ، ولن تجد دولة تستطيع أن تمر وتسود إن لم تسد بين أفرادها شريعة الإخاء .

وبقدرما استقبل العامة عهد الإمام بالترحيب فقد عبت له طبقة الأشراف ، وساء لهم منه أن يبدأ بتقويض الزايا السادية التى كسبوها فى عهدى سلفيه . وبأنزاهم عن المكانة الاجتماعية العليا التى كان التقسيم العمرى أحد مظاهرها . وكفى بهم حنقاً عليه أن قد سوى بينهم — هم السادة ذوى الأحساب — بالدهاء والأوشاب . ووصمهم وإياهم أمامه بمنزلة واحدة كما هم فى حقيقة الأمر أمام الله . .

لا ريب أن مبعث غضب الخاصة على الامام كان نظامه الجديد فى التقسيم ، أو عوده — بأدق تعبير إلى ذات النظام الذى أسننه رسول الله . فلقد استيقنوا أنه خطوة لن تلبث أن تتلوها خطوات تحرمهم بأنفسهم وما كانوا عليه من تقوؤ وجاء . وإذا كانوا قد ارتضوه خليفة وبايعوه على ملا من الناس فمن غير طواعية اختاروه ، بل انقياداً لسطوة الشعور العام . أما وقد افتتت فورة النفوس الآن ، وأوشكوا أن يطمئنوا إلى هدوء الحال ، فخيرهم إذن معقود يث المراقيل فى سبيله . أو على أقل القليل — ييذلهم الجهد للبقاء على بعض الأوضاع التى كانوا يعلمون أن الامام سوف يتناولها بالتغيير . .

بغير هذا لا يساغ فهم موقف المغيرة بن شعبه حيال مشيئة على فى تغيير ولاية عثمان . فلم يكن المغيرة من أنصار الامام . ولم يعلم عنه أنه أضمر له شعور الولاء . بل هو لم يبايع له وإن بايع له كثير غيره من الكارهين .

فمن سبب أن يتكاف — رغم هذا — بذل النصيح لعلى ويبدو كالشير الأمين حين لا تكون المشورة من مثله إلا إغراء مستتراً على ارتكاب الأخطاء . . . قال الداهية وهو يدهن الإمام :

« إن النصيح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وإن رأى اليوم تحرز به ما فى غد ، والضياع اليوم تضيع به ما فى غد » .
وأملك برهة ليرى مدى تأثير قوله . فلما رأى علياً جانحاً إلى السكون عاد قاستأنف الحديث :

« . . . إني مشير عليك أن ترسل إلى عمال عثمان بمهودم . أقرر معاوية على عمله . وأقرر ابن طامر على عمله . وأقرر العمال على أعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ، ويهدثون البلاد ، ويسكنون الناس » .

فيأدركه الامام برأيه القاطع فى أولئك الولاة :
— والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيت . ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يولى .

— .. اكتب إليهم بإثباتهم ، فإذا أنتك يمينهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

فجاءه الجواب الحاسم ، الولي به خلق على :
— لا أدهن فى ديني ، ولا أعطى الدنيا فى أمرى .
ولكن الفيرة لم يئأس بعد ، هل حسب أنه مستطيع أن ينفذ بعض مشيئته بشكل من الأشكال . . فقال :

— فإن أبيت فأنزع من شئت وأقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يسمع منه . ولك حجة فى إثباته ، إذ كان صر بن الخطاب قد ولاء . . .

— لا والله . . لا أستعمل معاوية يومين أبداً .
نخرج الفيرة مغلوباً على دهائه .
خير أنه — كغيره من الوصوليين — رأى أن يأخذ بالشمال ما لم يستطع

أخذه باليمين . فما هي إلا ليلة حتى عاد ثانية إلى مجلس الامام يعتذر مما سلف منه بالأمس . ويعلم أن رأيه الذي ناضل عنه طويلاً وأراد به إقرار ولاية عثمان كان بعيداً أيما بعد عن الصواب . . . لقد آثر الداهية أن يبدو في ثياب المؤيد لسياسة أمير المؤمنين وإن لم يكن في صفوف أعوانه ومناصريه ، وكفاه أن يقف موقفاً لا يشير عليه نقمة الامام ولا يبعده عن عطف أعدائه ليستطيع حين تسنح الفرصة أن يكون صديقاً لا تقفل في وجهه أبواب الفريق الغالب ! .

فما كان أرخص دهاءه ، وأفضح رياءه . . . ومع ذلك فقد استمع له على حتى أتم اعتذاره ثم شيعه إلى الباب ببسمة ساخرة فيها رثاء بين للحالة التي تددت إليها رجولة الرجال . . . وتلاقى الفيرة حين خروجه بابن عباس وقد عاد لقومه من الحج حيث كان أميراً من قبل عثمان . وتبادلا التحية ثم مضى أولهما لشأنه ودخل الثاني على الخليفة الجديد .

وقال ابن عباس ولم يخف عنه أن الداهية الذاهب إنما كان بمجلس الامام لأمر له فيه شأن .

— يا أمير المؤمنين . . ما قال لك هذا الخارج من عندك الآن ؟ . .

قابتم على . وفصل له ما كان .

— يا أمير المؤمنين . . أما في الأولى فقد نصحتك ، وأما في الثانية فقد

خشك . .

— نصحتني ؟ .

— نعم . وإنك لتعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتى تثبتهم لا يبالوا

بمن ولي هذا الأمر . .

— ويحك يا ابن عباس ! . . إن الذي يلزمني من الحق والمعرفة بمال

عثمان لا يجعلني أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا

بذلت لهم السيف .

فكأنما لم تلق هذه الكلمات مسمماً لدى الشباب ، لأنه عاد يقول :

— .. أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية ، فإذا بايع لك فعلى أن أقلعه من

منزله — . .

— لا والله .. لا أعطيه إلا السيف ! .

— يا أمير المؤمنين ، أت رجل شجاع لست بأرب الحرب . أما سمعت

رسول الله يقول الحرب خدعة ؟

— بلى .

— فوالله لئن أطمعني لأصدرن بهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون في دبر

الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك . ولا إثم لك .

فلم يزد على — بعد هذا الرأي العجيب الذي أبداه ابن عباس وكاد أن

يكون صورة من نصيحة الغيرة — لم يزد على أن أجاب بحزم وفي إيجاز :

— يا ابن عباس ، لست من هنيئاتك وهنيآت معاوية في شيء .. تشير

على وأرى ، فإذا عصيتك فأطعني .

— أفعل . إن أيسر مالك هندی الطاعة .

قد كان معاوية وأصحابه من ولاية عثمان أهل دقيا في نظر الناس ، أفكان

على كذلك ياترى في نظر ابن عباس ؟ .. بل التوفيق جانب الشاب الهاشمي

هذه المرة نتيجة لشدة حرصه على توطيد إمرة ابن عمه ، ونتيجة أيضاً للأثر

الذي تركه في نفسه رأى الغيرة الذي كان موسوماً بالدهاء إذ ذاك . وأوشك

الفتي ، مقوداً بهذه المؤثرات ، أن يتخذ من المقاييس الخلقية المنحرفة وسيلة

لقياس أخلاق الامام كأنه أنسى أي طراز من الرجال كان . .

ولكن النهج الواضح الذي اختطه على نفسه لم يكن بحاجة إلى رأى

مشير لايضاحه أو لادخال تعديل عليه هنا أو هناك ، فما كان يصدر في

أعماله إلا عن دستور قويم واحد ، لا يمكن أن يتناوله التحريف ، هو

الدستور الالهى الذي نزل به القرآن وكانت غايته إصلاح المجتمع الانسانى

كله بإصلاح الأخلاق . ومن العيب أن تأخذ الفروع بالعلاج وأنت تدع

الأصل فريسة للداء . وكان الأصل في الدولة الإسلامية أولئك المولاة الذين أشفت البلاد تحت إشرافهم على حافة انهيار روى يوشك أن يكون فاتحة كل انهيار . فما كان حكمهم قائماً إلا على استثارة النزعات النفسية الوضيعة في المحكومين تارة بالترغيب وتارة بالإرهاب ، حتى وصلت بهم الحال إلى سلطان هو الطغيان . فقد ضمهم الشعور بقوة المبادئ السامية والمثل العليا وأوشك على الزمن أن يموت . وإذا فتر هذا الإحساس فإنهم أقرب إلى تضارب الأهواء منهم إلى توحد الغاية ، وانطلق كل في طريقه نحو هدف خاص يشغله عن الهدف الأمثل الذي يجدر أن يلتزمه مجموع الأمة الإسلامية التي أرادها دين الله على قيادة البشرية كلها إليه .

المثل السامية التي دعا إليها القرآن كان أثرها وشيك الزوال إذ ذاك من قلوب الناس . وكان عثمان عن هذا أول المسؤولين . فهو الذي مكن لتفانهم في النفوس بسياسته الرخوة ، وأقام ملكه على اكتاف عمال أهلهم للولاية قرابتهم دون كفايتهم . وكان ضعيف الرقابة عليهم . بل هو في الحق كان يطلق أيديهم في العمل كما يشاءون ، فانتهجوا من الأساليب كل ما يحفظ عليهم سلطانهم ويوفر لهم مظاهر السطوة والجاه ، وإن طرقت هذه الأساليب لب الإسلام ، واتخذوا من بعض رعاياهم أعواناً على البعض ، فقدموا فئة وأخروا ثانية ، وميزوا بالهبات والمناصب رجالاً لا يفوقون بقية الأمة إن سلكوا وإياها في عقد الموازنة ، بل هم أولى بأن يتخلفوا إلى ما وراء الصفوف ، وبعد أن كان العمل وحده هو أساس التفضيل والتقديم ، اصطنع أولئك المولاة أسساً شتى لاجتباء الأعوان : فيها صلة القرابة ، وشرف الأنساب ، والزلفى إليهم بكل طرائق المداينة والرياء . وبعد أن كانت المساواة هي النبع الذي تستقي منه العدالة ، وكان الناس سواء كما وضعهم الله ، أصبحوا في نظرة الحكام طوائف وطبقات ، وبات التمييز لطبقة دون غيرها هو العدالة السائدة . وكذلك نبت الجور على حقوق أغلبية الشعب من أجل تمييز قلة فيه . ولم تعد

هناك حاجة بالولادة لأخذ الأمة جمعاء بشريعة المساواة مادام اختيارهم هم أنفسهم للقيام بشئون الولايات لم يكن مردده إلى هذه الشريعة التي لا تعرف المحاباة .

كانت القرائن كلها تدل دلالة بيّنة على انحراف السياسة العامة عن الجادة التي أوضعها الله . وكان كل عمل يستلهم في تفكيره روح الإسلام يرى — دون تردد — وجوب تغيير هذه السياسة . وهدم النظام الفاسد الذي أقامته وأملت له في البقاء . ولم يكن على بعرف هذا فحسب ، بل آمن به تمام الإيمان . وحزم أمره على تجييش كافة قواة الذهنية والمادية لإقامة صرح دولته على ذات الأساس الوطيد الذي انطوت عليه نصوص رسالة السماء . لقد بدا جلياً تعذر التعاون بينه وبين عمال عثمان لاتساع ما بينه وبينهم من هوة فكوية ، ولاختلاف مبدئه ومبادئهم اختلاف النقيض والنقيض . وهل كان بمقدوره أن يكل إليهم إقناذ نهجه الجديد وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به ؟ ... وكف يسه أن يأغتهم على سياسة قوامها نبذ الأهواء وإنكار الذات هم الذينة، أشربوا الهوى واستعبدتهم حب القبات ؟ . . فإذا استطاع — رغم هذا — أن يتقبل مشورة النيرة ، وينزل على رأى ابن عباس في إقرار أولئك الولاية مع ما عرفه من كراهة رعاياهم لهم وثوراتهم المتوارة التي انتهت بمقتل عثمان ، أفكان إذن يأمن الا يلتفض عليه أمره بهذا الإقرار في كافة الأقطار ؟ ..

لا حافز غير الحرص على توطيد دعامة الحق دفع علياً إلى الاستمساك برأيه في إقصاء المال الذين ولاهم سلفه . ولا هدف رى إليه سوى إعادة سلطان الأخلاق إلى مكانه في قلوب الناس كما كان على عهد رسول الله . ولئن وجب عليه أن يقصى ابنه أبي سرح وابن أبي عامر عن أريكة الحكم استجابة لرغبة المحكومين، فقد وجب أن يقصى قهلهما معاوية وإن دانت لطاعته الشام . فما من ريب في أن هذا الرجل كان لا يستلهم في كل أعماله غير ذاته ومنافسه الشخصية ، وكان لا يتجه إلا حيناً ناداه طموحه ، ولا يتوسل لهدفه إلا بالوسائل التي يراها ذات جدوى في مجتمع رانت عليه الأطماع وغلب فيه

سلطان المادة . ذلك أن الشام كانت أدنى أرض المسلمين إلى الأمبراطورية الرومانية التي اضعفت شوكتها وأخذ كيائها السياسى ينهار نتيجة لانحلال الأخلاق . وكانت بقربها هذا مرتعاً خصباً لكافة الآفات الخلقية التى تصيب النفس الإنسانية . وإذا كان نعمة حاكم إسلامى قد أفاد من وراء هذا الانحلال الخلقى فمعاوية ذلك الحاكم لأنه وجده أداة طيعة يستطيع أن يصل بها إلى السيادة بأيسر مجهود . وما عليه إلا أن يعرف جوانب الضعف فى نفوس رعاياه ثم يستعبدهم بنوع الإغراء الذى يستجيبون له . أما استكمال هذه الجوانب وسد ثغرات النقص الخلقى بالوسائل التى أوضحها الإسلام فذلك كان أبعد عن استعداده وأعسر على نفسه الموكولة بتحقيق أهدافها الشخصية دون التقيد بالتزام سبيل الهدف الإسلامى العام . ولعله من فسوة القدر على الدولة الفتية أن عنت جبهتها ذات يوم لمعاوية . ودانت لحكمه رقاعها المدودة لأنه — وإن نشر ظلها على أقاليم جديدة من الأرض — قد قلص فى نفوس أبنائها سطوة الكمال الخلقى الذى كان الغاية الأولى لدعوة الإسلام ...

على إذن كان منطلق النظرة إلى بعيد . أرسلها تحترق الحاجز إلى المستقبل وتسبق التاريخ قبل أن رسم أحداثه ، وتستشف من هذه الأحداث التى لم تكن قد كتبت بمد صدق رأيه فى الرجال الذين أبى أن يدع فى أيديهم مصائر الأمة الإسلامية ، ومصائر السمو البشرى الذى كان الهدف الأسمى للرسالة الحمديدية . وكانت نظرتة أصدق ما تكون فى معاوية . وكانت سريعة كآثها الفكرة الملهممة لم يموزه لصوغها كثير تدبير . وبقدر ما حوت من الغيرة على مصير الشريعة الهادية فإنها لم تخل من غيرة على مصير الكيان السياسى الذى أصبح هو الآن رجله الأول . فما غاب عنه أن فى إقرار ولاية عثمان ضياع الدولة الناشئة وتفتيت وحدتها . ما دام بقاؤهم فى أعمالهم سيلاقى حتما بثورة رعاياهم عليهم وعليه . وأولى به إذن أن يجاؤهم عن مناصب الحكم ، لخير الحق ولخير الخلق .

لذلك لم يتلبث أقل القليل ليحسم الأمور ، بل بادر فكتب إلى أمير الشام :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

« أما بعد - فقد علمت إعداري فيكم ، وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أهدر ما أدير ، وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك . وأقبل إلى في وفد من أصحابك . . . »

وطوت الدابة رقعة الصحراء بغير إبطاء . وقطعت الطريق من الجنوب المجدب إلى الشمال الأخضر النضير ، ثم اجتازت أسوار دمشق إلى القصر الباذخ . وأجال الراكب عيناً حائرة في الغرف الذي طالعه من كل مكان فائس له شبيه في حاضرة الإسلام ، حتى إذا انفرجت له صفوف الحراس في ثيابهم الأنيقة ، وبأسلحتهم الشاكية البراقة ، قيد من باب الدار إلى ردهات خلص منها إلى قاعة الإمارة . فإذا ثمة بطانة كبيرة من رجال وعبيد . وإذا بصدر المكان وسادات من حرير اتكأ عليها معاوية تحفه مظاهر الجلال والخيلاء ، تعيد هيئته إلى الأذهان ما تسامت به الأذن من ملك الروم .

وقدم الرسول كتاب الإمام . وقض الأمير الخاتم ثم ألقى على السطور نظرة ووجهه جامد لا ينبىء عما بقلبه من شعور . ولكنه إذ غاب القادم عن عينيه بمد قليل ، استطاع أن يتشم في ازدراء . وفي انشاد وهدوء وضع رسالة أمير المؤمنين بجواره . ومد يده فالتقط أخرى كانت غير بعيد ، نشرها تحت بصره ؛ وراح يقرأها وشفته لا تكفان عن ذات البسمة التي لو أنها ظلة المبالاة .

« من عمرو بن العاص ، إلى معاوية بن أبي سفيان :

« أما بعد ... ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل

مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها ! . . »

وصدق ابن النابغة . فهذه الأخبار قد جاءت بما انتواه على من مصادرة

القطائم والأموال التي بعثها عثمان .

الشام غضبي . . . حديث القلوب فيها لوعة ، وحديث الأعين دموع ،
 يوشك رجالها أن يجردوا السيوف ، ويتدققوا عبر الصحراء كالسيل صوب
 الجنوب . . . ولكن زمام عواطفهم كان بالقصر — في يد الأمير الشحيم ،
 المندحق البطن الواسع البلموم ! . . . فهو وحده يستطيع أن يسير آلة الحقد
 المضخمة التي يؤلفون أجزاءها ، يدفعها إن شاء ويوقفها إن شاء ، أصابعه فيها
 الحركة وفيها السكون ، كأنها أذرع الأخطبوط تتحرك إلى كل جهة وهو
 ثابت في مكانه .

كان تاجر أهواء . كل نزوة نفسية لها في قائمته ثمن معلوم ، وكل هوى
 يلقي في سوقه من الرواج بقدر ما يجره عليه من الريح . يستعرض العواطف
 كما يستعرض السلع ، وينتقى منها أجداها عليه ، ومن وراء أسوار قصره
 المنيف كان يلعب بأحاسيس الناس . ويربط بين قلوبهم وأطماعه كما تربط
 الدهى بأصابع مهرج قابع خلف ستار . . . وكان حاذقاً يجيد التمثيل ، يكاد أن
 يرى الأثر الذي ينشده من الإلهيبه آخذاً سبيله في النفوس ، بالغاً منها
 أعماق أغوارها وإن بقي هو ساكناً إلى وصاداته ، ساجي الطرف ، يشبع نهمه
 من الأطعمة الشهية التي كانت — بعد أطماعه السياسية — أحب هوية إليه
 في الحياة .

أصابعه الماهرة استطاعت أن تحرك الجماهير . وتلعب على أعصابهم حتى
 ملكتهم العواطف الجياشة وأشفت بهم على حافة الجوح . ولم يكن يخشى
 أن يفلت منه الزمام فما للدهى مشيئة سوى مشيئته هو الذي يمسك الخيوط .
 ولم يخش أيضاً فتور المشاعر المشبوبة ، فقد أحسن إمدادها بالوقود . ولن يفتأ
 الناس كل مطلع شمس أن تضطرم في قلوبهم نار اللوعة حين يدخلون مسجد دمشق ،
 ثم تعصف بهم ثورة الغضب حين يبرحون أبوابه ولن يكف شعورهم عن التذبذب

بين هاتين العاطفتين بضع مرات في اليوم بحد الصلوات . فثمة على المنبر مشهد تغل له دماء الرجال ، وتقد نخوتهم . وما دامت فيهم عين نرى فلن تهدأ لهم نائرة قط . فهذه بقايا المأساة التي شهدتها المدينة قائمة أمامهم تتلقفها الأبصار كلما تولت شطر القبلة . إنها شعيرات من لحية عثمان تجمد عليها دمه ، وقيصه قد بدت في ديباجته الدامية تلك الخروق التي تغذت منها أسنة الثوار إلى قلبه وحملت إليه الموت ، وسلاميات أصابع جافة برزت من بين ألفافها كأنها تهيب برجولة أهل الشام أن يبادروا للانتقام ! .

إثارة النزعات النفسية كانت تجارة معاوية سليل التجار ! ... وقد أثارها كما شاء وملأ بها قلوب رعاياه حتى لم يمد نعمة رجل منهم إلا يتحفز للثأر ممن أشعلوا نار الفتنة على عثمان . وبحسبهم أن تطالعهم آثار المأساة في كل ساعة من الليل والنهار لتظل موجدتهم مشبوبة لا يخمد لها ضرام . فما استطاعوا أبدا أن يعرفوا الأسباب الحقيقية للثورة ، ولا مدى المسؤولية التي كانت واقعة على الخليفة تجاه أمنه وأدى نهاؤه في الاضطلاع بها إلى اندلاع لهيب العصيان . ولكنهم ألقوها نظرة عابرة على حادث المصرع كشفت لهم من الناحية السطحية منه - الناحية الحزينة العاطفية التي يبدو من خلالها شيخ واهن ، أمقله العمر ، قد اقتحمت عليه مأمنه فئة باغية لم تأخذها فيه شفقة وراحت تستمتع باعتصار بقايا الحياة من جسده الضعيف .

بذلك القميص الذي مزقته الأسنة ، وبالسلاميات الجافة ، وبالشعيرات اللاصقة بمنبر دمشق استطاع معاوية أن يصل من قلوب رعاياه إلى ما لا تستطيع بلوغه أبلع خطب التحريض وأشدّها حرارة . الآثار الثلاثة كانت باعث غضب جامع محتاج عصف بالنفوس كأنها الخرقة الحمراء حين يلوح بها أمام ثورا ... غير أن حاكم الشام لم يحن من وراء عرضها إثارة سورة الغضب الهاج فحسب ، بل وسمه أن يبدو بها بطلا ماجدا في عيون شعبه لا يقعد عن الثأر لضعيف مظلوم .

بدا في ثوب الدقم على قتلة الخليفة ، الحزين غاية الحزن لمصرعه . ولكنه إلى هذه اللحظة لم يكشف عن خطته ولا عن الطريق الذي يريد أن يوجه فيه نقمة هذه النفوس الغضبي . لم يكن قد أكمل نسج شباكه فأثر انتريث ، غريزته التجارية دلته على أن التمهّل أجدى على أهدافه المريضة وأدعى إلى تحقيقها على الوجه الذي يرتضيه . ولئن لاح سخطه واضحاً على مثيري الفتنة التي سالت فيها دماء عثمان فإنه لم يبين « من » هو أولاهم بتحمل تبعة هذه الدماء المهرقة . واكتفى بأن ظل ينفخ في النار التي أججها بصدور أهل إقليمي . عساه يستطيع — إن أسعفته الظروف — أن يدفعهم عبر الصحراء صوب الجنوب ! .

ثم أخذ رويدا رويدا يتبين السبيل الذي يصل به في نهاية الشوط إلى مراميه . وراحت الأخبار تترى عليه من كل جانب فزيده استمساكاً بأطماعه ، وأملا في فرب تحقيقها على النحو الذي يريد . وكانت عينه دائماً على المدينة . ترقب كل ما يحدث فيها . وعلى الجالس الآن بمسجدها يحاول أن يوجه سياسة الدولة المترامية التي آل حكمها أخيراً إليه . ولم يفته اضطراب الأحوال بالحاضرة الإسلامية غب مقتل عثمان . ولا القوة التي ظلت في أيدي الثوار كالسيف المصلت على الرقاب . فقد بقيت لهم شوكتهم عزيزة مرهوبة بعد أن حققوا بالأسنة ما أعيامهم تحقيقه بالوسائل السلمية . وبات لهم في النفوس رهبة ، إذ ظلوا على اجتماعهم ولم يتفرقوا إلى أمصارهم كما كان المتوقع منهم بعد إنفاذ مشيئتهم . وكان من العبث أن يقهروا على الخروج وهم يملكون من السلاح والعتاد ما لو شاءوا لكرؤا به ثانية على أهل البلدة العزل الآمنين .

ومن حق غالبية الثوار أن تنصفهم أمام التاريخ . فلم يلجئوا إلى الثورة حباً في الفتنة والعصيان ، ولكنهم كانوا في الحقيقة أفراداً أثارهم الظلم الذي وقع على مجتمعهم بأيدي ولاية عثمان وبأسباب نظمه السائدة التي دب إليها الفساد في أخريات أيامه . فلما أن ثقلت عايهم وطأة العنت هبوا يلتصون

عنده الخلاص . وساروا إليه حيث كان محاصرة الدولة يحملون ظلاماتهم عسى أن يرفق بهم وينزع عن سياسة الوعود التتالية التي لا يفرغ لها معين . ولم يكن لهم مطلب قبله سوى أن يوفر لهم الحياة الإنسانية الكريمة التي وعدهم إياها الإسلام . ولكن السبائية انتهزوا الفرصة السانحة فأشعلوها فتنة مشبوبة تحقق لهم أغراضهم الهدامة وترد الدولة الفتية مزقا محلولة كما كانت قبل الرسالة ، واستطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يوجهوا الوفود الساذجة النازحة من البلدان وفق هواهم ، وبتخذوا منها آلة هدم وتقويض . حتى إذا انتهت الفتنة ، ورأوا دماء الخليفة الصريع تبال أيديهم ، خشوا إن هم انقضت عنهم جموع أهل الأمصار أن يسهل تناولهم بالقصاص ، فراحوا يوقعون في روع كل رجل شرك في الثورة أن أمنه رهين بأمنهم ، وسلامته موقوفة على بقائهم في الحياة .

وكذلك تماسكت هذه الوفود ، ووحدت بين أفرادها خشية النهاية كما جمعتهم في بادئ الأمر وحدة الغاية ، ووقفوا عن كذب يرقبون نظرة أهل الحاضرة ونظرة الخليفة الجديد فيهم ، وكانت طوائف كثيرة من موالى المدينة وعبدانها قد انحازت إليهم إبان الثورة وظلت بعدها لا تميل عنهم ، بل ساكنتهم معسكراتهم المنتشرة على أطراف البلدة .

على أن اضطراب الأحوال ، وتقلقل الأمن بالمدينة لم تكن وحدها ما يبهج خاطر حاكم الشام ، فقد علم أنها عارض عابر كتلك الاضطرابات التي تجيء عادة في أعقاب الثورات وتهدأ حداثها على الزمن . وعلم أيضاً أنها عائق — كبقية المراقيل الطارئة — كفيلة أقدام ابن أبي طالب أن تسحقه لو أمهل له في تناولها بمحنكته وتدييره ، ولكنه رأى بشاقب نظره من خلالها أحداثاً شتى تهم أن تسير سيرها وتفسد على الأمير الجديد أمره إن وجدت اليد التي نعرف كيف تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وكان قدر معاوية في عونه ، والظروف إذ ذاك تتواتر وفق رغباته في ذلك الوسط الذي كانت الكلمة العليا فيه للأهواء والمطامع ، حتى لكأنما كل شيء كان

يتحرك بإملائه ، فما عدم قط اليد المحركة وإن لم يدفعها هو إلى الحركة ، ولم
تم عينه البقضى عن تتبع أصابعها التي كانت تعمل دائبة في السر والعلانية من
أول يوم تسم على فيه مقعد الخلافة . وكان الرجل بمجلسه في قصر دمشق
وهو يرقب الحوادث دائم الرضا عن زمانه ، موفور الثقة في المستقبل الحبيب
القريب ، يكاد يتبين حلمه القديم بنفلت من ألفاف الماضي — من قبر أمية
وحفرة ابن حرب — ويشب قائماً على قدميه ينفض ثائر أكتافه . . . ويوم
أناء كتاب عمرو بن العاص ، لمت في أفقه بوارق آمال رأى على أضواؤها كافة
العوامل التي يسمه تجنيدها لتنتقل به نحو النصر ! .

إن نمة رجالا شردتهم الثورة قد ضربوا واجفى القلوب في زوايا الأرض
وما زالوا يحلمون بقبوؤ مراكرهم تحت الشمس ، ونمة آخرون من أقرباء
الخليفة القليل وخلصائه ينقمون اليوم من على قراره بحرمانهم الهبات والقطائع
التي منحهم إياها عثمان ، ونمة طوائف الأشراف والسادة الذين أخذت من
زهوهم شرعة المساواة الشاملة ونزلت بهم إلى صفوف أبناء الشعب ، وهؤلاء
جميعاً ينتظرون ساعتهم ، ويستطيع معاوية أن يلحقهم به ويؤلف منهم كتلة
الخصيان التي تناهض الحاكم الشرعى للدولة ، ولم يكن ينقصه لنسج خيوطه
وحبك مؤامراته إلا أن يبدو بطلا أمام التاريخ أو على الأقل بطلا في عين رعاياه
وأعين سواهم من سذج البلاد الإسلامية ليمهدوا له طريقه إلى تحقيق حلمه
القديم في السيادة

كان ينقصه العلم الذي يلتف حوله أنصاره — الفكرة السامية التي
تظهره مناضلاً من أجلها ، بأفلا في سبيلها وحدها الجهد والدم والأموال ،
لا في سبيل منفعة الشخصية أو مأربه الخاص ، ، فما أتبع قط لحركة أن تنجح
إلا إذا هدفت لغرض نبيل أو تظاهرت بأنها قامت تهدف إليه .

وقد وسمه أن يستخلص الغرض الذي يبدو في مسوح النبيل لكل
مفتون بظواهر الأمور لا يعنى بتقصي جواهرها ولا بالغوص إلى ما عساها
تطوى عليه ، وكان هذا الغرض هو الغضبة لعثمان ، والأبى على مصيره ،

وما يتبع هذا وذاك من لزوم السعى للأخذ بثأره والاقتصاص من قاتليه العتاة .
فيه لاح موكولا بمحاربة البغي الذي وقع الشيخ المهيض فريسة لعدوانه ، وكان
هو ولي دم القتييل ، فهو إذن أولى الناس بالانتصاف له ، وإذا كان أقوى أهله
وأبلغهم سطوة ، فإنه أقدرهم على بلوغ هذا الهدف الإنساني النبيل ، وكان في
حاجة إلى معونة الجمهور أكثر من حاجته إلى معونة أصحاب المطامع الذاتية ،
الذين لا بد سيحتويهم وإياه نفس الطريق المؤدية إلى مناجزة الإمام . فلما أثار
في الأول حمية النخوة ، ولوح للآخر بالمنافع المنتظرة ، كان قد استطاع أن
يخضع لأهوائه أنبل المواطف البشرية وأخسها في آن .

من قصر دمشق امتدت عينه ترقب حوادث المدينة فلم يفته منها شيء ،
وإذا كان عمرو بن العاص قد نصب من نفسه هادياً بوضح الأمور له ويدعوه
للمبادرة إلى العمل المنتج الفعال ، فهذه منة لعلها تستحق أن يذكرها سليل
الأمويين بالشكر وعرفان الجليل . ولكننا لا نحسب معاوية إلا مزج الشكر
بالسخرة . وافترت شفتاه عن بسمه ما كرة صفراء لما خفيت عنه نفس صاحبه
القابع هناك بمحدود فلسطين يشم الريح كما تفعل الضبع في وكرها ، إذ ترهف
أنفها لتتعرف إلى أين تدب لتستمتع بأشلاء جيفة ! . . . الوصول الثاني في
الإسلام كان هو الآخر يخضع قلبه وعقله لقواعد الحساب . ولا يبذل الحركة
والكلمة إلا بضمن معلوم ، وإنها لناحية من نفسه مكشوفة بغير شك لعين
معاوية سيد الوصوليين ! .

كأنهما شقي رحي ، أحدهما كفء الآخر ، قد جمع بينهما نفس المحور ،
بل هما جدولان أمحدرا من ذات النبع ، لا يتميز المرء منهما علامة خلاف ،
ولقد بلغ من استمساكهما معاً بشرعة المنافع وتقديعها على ما وضعت الإنسانية
من اعتبارات أدبية ومقاييس خلقية أن قرنا في الصف الأول من عباد
المادة وأسرى الطبيعة الآدمية التي كبلتها قيود الفرائز البدائية ، وكانا
شكليين ، عطف قلبيهما الأهواء الدنيوية ، ومازجت بينهما حتى لاحا في

الناحية النفسية كتوأمين . فما نلوم بمد هذا من رد نسبهما إلى صلب واحد خرجا به إلى هذه الحياة ! . . . وعة صحيفة من صحائف فخور الجاهلية تنتشر عن النابغة أم عمرو كامرأة تلقتها آونة مضاجع الرجال ، فلما خرج ابنها إلى النور تهاست الألسن عن أبيه ، وتاهت حقيقة نسبه بين بضعة نفر من سادة العرب إذ ذاك ، منهم العاص ، ومنهم أبوسفیان . . . ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرفيقين ، إذ كان أوفر النفر ثروة ، وأسخاها عليها في الاتفاق ، فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل في تغليب المادة على أوثق العلاقات ، وإنه لمبدأ رضعه من ثديها ، وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد ، حتى غاب جثمانه في التراب ! ..

على أن معاوية رأى في ابن العاص نموذجاً للرجال الذين يؤيدون له فضيخته حين تدعوه الحاجة إلى حشد جيوش الأباطيل . وكان لم يزل بعد في دور الإعداد فادخره إلى ساعته . واكتفى بأن يرقب الحوادث السيارة بقلب الدولة ، ويجهد قدر وسعه للإفادة منها وتحويلها إلى صالحه الخاص . كان شديد الحذر كدأبه ، لا يكشف عن غاياته إلا إذا حان الوقت المرقوب . لذلك لم يبادر الإمام بالخصام حين أتاه كتابه ، بل آثر التريث فلم يستجب لدعوته ولم يجاهره بالعداء . وإنما ظل ساكناً يداور الرسول الذي ينتظر ببلاطه بضعة أشهر دون أن يفوز منه بالرد المطلوب . فلهذا خشي أن هو أظهر الخلاف أن تستقيم الأحوال لعل فيستطيع أن يهدم تحت إمارته الشام فضلاً عن تقويضه صروح آماله العريضة في حكم دولة الإسلام . وبقي رابضاً بقصره يلتق سمه وبصره كليهما على المدينة ويدبر خططه حسبما يأتيه من الأنباء .

ولم يطل به الانتظار فإن الهوى ابنتى عروشا في قلوب كثيرة سوى قلبه . ولكن خبراً واحداً كان له في نفسه فعل الحمر . أحس على أثره بنشوة فتحت له باب أحلامه على مصراعيه . . . لقد أوشك الزير وطلحة أن يتمردا ويرفما
هلم العصيان . . .

اثنان من أهل الشورى ! . . أئمة من هو خير منهما بين صحب رسول الله ؟ . . . بل الثالث الباقي على قيد الحياة لم يبايع هو الآخر ! . . بل عائشة أيضاً تلك المؤلّبة الأولى ضد عثمان ، النادية بالثورة عايه بصوتها الجهير ، الداعية إلى قتله بكل مكان ، قد أصبحت اليوم تذرف الدمع ، ورأيت باطلا ما رآته حقاً بالأمس ، ثم مضت تسير على رأس فتنة جديدة لن يصل ناراها سوى الإمام ! . .

ماذا فعل على ليبيوء بنقمة هذه الصفوة المختارة من بناء الإسلام ؟ . . . التاريخ لا يعلم . . صحائفه في هذه الناحية بيضاء ، ليس بها نقطة واحدة تشين الخليفة الجديد . ولكن سفر النفوس الناقية كان شديد السواد ، ملأته أحقاد الماضي إلى دفتيه . والناس في كل زمان ومكان هم الناس ، أسرى ماضيهم . تجرهم خلفها الأهواء المنبعثة عنه دون أن ينبنوا إلى أين تسير . .

كل ما بدا من أسي عائشة لمصير عثمان ليس بغير . بل هو أدنى إلى الرقة التي ينطوى عليها قلب المرأة ويتفجر نبعها إذا ما جرحته الملمات . وقد كانت عائشة — فيما يلوح — امرأة فوارة الأحاسيس . لا تعرف القصد في عواطفها ، بل تطلقها إلى أقاصيها . فلما غضبت على عثمان استرسلت على سجيئتها إلى ذروة الغضب فدعت إلى قتله . حتى إذا جاءها نبأ مصيره الفاجع لان قلبها ، وعطفها عليه رحمة دافقة فياضة مسحت غضبها القديم منه ودفعتها إلى المبالغة في الغضب له . وإذا كانت بهذا الشعور الجديد قد استجابت لرفتها كامرأة ، فإن موقفها من علي في ذات اللحظة يبدى أنها وثقة لأنوثتها غاية الوفاء ! قد ملكتها غريزتها الأنثوية حتى انسأقت في حقدتها عليه إلى مدى لم تسيطر عليه حكمة ولم يحده عقل .

لعلها قلبت سفر الماضي ، ذلك اليوم من ذي الحجة ، وركبها المنطلق إلى المدينة قد وقف بالطريق ينتظر أمرها بالسير . والذكريات ماثلة أبدأ لأواحية اليقظي ؟ والمشاعر التي تبعثها تنبثق عنها كما ينبثق النور عن ومض البرق ، سريعاً ، لا تستغرق من الزمن إلا لحظة من لحظة . . . فما إن سمعت

أن البيعة انمقدت لابن أبي طالب حتى حضرها كل ماضيها وانكشف أمام عينيها كلوحة مرسومة . . .

وصاحت بالركب الواقف ودماء وجهها من بغتة الخبر تكاد أن تفيض :
« ردوني ! . . . ردوني ! . . . »

واستدار الركب . وراحت القافلة تضرب في عكس اتجاهها الأول ، عائدة صوب مكة التي لم تكن برحمتها إلا منذ قليل — تماماً كما انطلقت الآن مشاعر السيدة إلى عكس مسلكها السالف . فما أعجب أن تكون أحاسيسها طيبة هكذا في يديها ، تحركها في ذات اللحظة من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ! غير أنها طبيعة أنثوية دافقة ، لا سلطان للمقل على عواطفها الجياشة . وما كانت عائشة لتستطيع أن تملك نفسها في تلك اللحظة إلا أن استطعت أن تمنع بكفيك انحدار سيل . . .

وهتفت وهي حاتقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لابن أبي طالب ! . . .
قتل عثمان والله مظلوماً . . . والله لأطلبن بدمه »

فحركت كلماتها فضول من سمعها ، فإذا رجل منهم يقول لها في استنكار :
— ولم ؟ .. فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! .. ولقد كنت تقولين
اقتلوا نعلنا فقد فجر . . .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من
قولي الأول .

ولسكنها حجة لا يبررها ما سلف به لسانها في حق عثمان ، كما لا يبررها
عوده عن صائر أهل الأمصار وإصراره على إبقاء ظلاماتهم معلقة بدون
علاج . وعائشة ! أنكرت هذا منه وظلت نائمة عليه حتى لقد أبت أن تبقى
بالمدينة لتكشف عنه الناس حين حصروه بداره ومنعوه الماء . بل وددت
لو ألقته بيدها في البحر لتخلص الأمة من عهده ! وتمضى على الأثر إلى مكة

فلا يمنمها خروجها لأداء واجب ديني مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ
وبث كراهيته في قفوس الحجيج القادمين من كافة الأقطار . ولولا أن أبى
عليها ابن عباس أن يكون لسانها الداعى بدعوتها لشهدت البلدة الحرام
ناحية أخرى من نواحي حقد ها على عثمان . . . ثم راحت وهى بموطن الإحرام
لاتنى تستنبيء كل قادم وتنسم أخبار المدينة بلهفة عسى أن تعلم ما يهدىء
خاطر ها ويجنبها قلق الانتظار . فلما أن ألقى إليها ذات يوم نبأ مكذوب
نم عن انتصار الشيخ على خصومه وقتله المصريين صاحت فى غضب واستنكار:
« . . . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ . . . والله
لا نرضى بهذا . . . »

فأكان أعجب غضبها له بعد قليل ! . . . ومع ذلك فهل اقتنعت هى حقاً
أنه تاب ؟ . . . وهل التوبة عن حيف يكفى أن تكون بلفظة لسان دون تغيير
الحواف ؟ . . . وإلى أى مدى نزع عثمان عما أثار عليه سخط عائشة وسخط
الناس ؟ . . . وماذا يارى منها من النهوض لنصرته حين كان فى حاجة إليها
وهى بالمدينة ما دامت قد آمنت بصدق توبته ؟ . . . وكيف وسعها البقاء بمكة
دون أن تستعدى أهلها على الثوار لصالح هذا التائب الذى تركته فى مأزق
لا يرجى له منه خلاص ؟ . . .

لا حجة لها فى الدفاع اليوم عن عثمان سوى حقد ها على الإمام . فما زالت
تتسا مقروحة منه . وما زالت مشاعر ها ، بكل ما تنضج به النفسية الأنثوية
التي تجمع النقائص ، تزدر بالكره له . فهى امرأة قبل أن تكون عائشة ،
لها خلائق المرأة ، ولها طبيعتها . وهى جائعة الأحاسيس تفقاد لشعورها حتى
غلايتها ولا تملك أن تحمد من غلوائه . وقد زودها الماسخى بذخر من البغض
ادخرته لابن أبى طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها
حين حاك حولها الألسن الباغية حديث الإفك . وهى أيضاً مشبوبة
الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر .

وكأية أنثى كان صدرها يجيش بمواطف أمومة مخترنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتجبر بها صغيراً تسعد به ، فلم يسعها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة . لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلاً من دمها ومن صلبه يضمنى عليه فيض حنانه ، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذرايه ! . . . ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان . وما أحسبها إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تفعل بصرها فتري زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء . ويوليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاد طفلة تمتزج في عروقها دماء الزوجين . غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة . وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى ، التي عاشت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ! وتزوجها وهو شاب وهي في طريقها إلى الكهولة فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعده ! خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نهله وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ ونهبه من الولد وهي عجوز ما عجزت عنه الجميلة الصغيرة ؟ وتبقى هلى الدوام ماثلة في خاطره بعد موتها لأنها لم تبرح أيداً قلبه ! وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم . . . ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقي إذ تقول :

« ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة . . . وما رأيتهما ، ولكن كان النبي يذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة . فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة . . . فيقول إنها كانت . . . وكانت . . . وكان لي منها ولد » .

فهى باقية وإن ذهبت . تعيش اليوم في خاطر محمد كما عاشت بالأمس في دنياه . وتكاد أن تغلغل عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ،

ولا حسنها ، ولا صباها . باقية أبداً في الزهراء الرقيقة ، وفي الحب الأبوى
الكريم الذي يفيض به قلب رسول الله . باقية أيضاً في خلجات نفس عائشة
بقاء شعور الغيرة المجيب الذي لا يني براودها في كل لحظة . وهل آلم على
نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت . . . وضعفها أمام
شبح يطل على بيتها من خلل الماضي ويأتي ظللاً مائة على سماتها الزوجية . .
الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف ، أو يحجب عنها صورة ضررتها
الخطرة وراء ستر النسيان . بل قد حالف خديجة ، ومضى يميدها إلى الحياة
مرات ومرات . ويكررها في أحفادها كما كررها في بناتها وأولادها . فإذا
هي صور شتى تطالع عائشة كل يوم ، وتطوف عليها بيتها فتملاً سمعها
وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش في وهم الذهن . فأى خليط
من المشاعر كان يحتاج نفسها كلما ألفت العين على محمد وهو يداعب أحفاده
ويولبهم حنان قلبه الرحيب ! أهو الغيرة على الزوج الأولى التي صارت اليوم
في أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى ! . أم الحسرة
على حرمانها الولد الذي حلمت أن يكون نسلها من رسول الله تعيش خلاله
على مدى الزمن السيار ! . أم الحقد على غريمها ابن أبي طالب وقد تفرد وحده
بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب ! . .

كانت أنثى كأية أنثى ، تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه . فما خالفت طبيعة
المرأة حين غارت ، وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت . فإن هي إلا
واعيتها التي تكلمت — برغما — وتمحرت ، ودفعتها إلى موقفها العبدان
للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت العقل
المهادى . الخفيض في ضوضاء المشاعر الصخبية . . .

جاز ركب عائشة دروب مكة فاجتذب إليه الأنظار . وملكته المهشة نفوس الناس حين رأوها تعود ثانية ولما تبرحهم إلا من قليل . فمهدم بها قد خرجت روم المدينة بمدآن قضت عمرتها . ولسكنها الآن قد غيرت وجهتها ، وسار ركبها والألسن تلعط حوله . ويتحدث كل امرئ بظنه عن السبب الذي عادت من أجله أم المؤمنين . ولم تفصح هي عن شيء . بل جنحت إلى الصمت . وكانت الأعين قد انتبهت إلى الموكب فتبعته الأقدام وسارت خلفه إلى باب المسجد . وأنزلت السيدة بغيرها ، وترجلت ، ثم انطلقت إلى الحجر فاستقرت فيه ، ومن ورائه قامت مخاطب الجموع :

« يا أيها الناس . . »

فألقوا إليها الأسماع . وهل عساها تعود فتخطبهم إلا في أمر خطير عظيم ؟ .
« . . . إن الفوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الفوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب ، واستمال من حدث سنه ، وقد استعمل أسفاهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجذوا حجة ولا عذراً خلعوا ، وبادروا بالعدوان ، وقبوا فعلهم عن قولهم ، فسفكروا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ! . . . فنجاة من اجتمعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، وبشرد من بعدهم . والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما نخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دونه إذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء . . . »

ونفرق الناس بعد حديثها هذا شيعاً ، وكان أولى بهم أن تتوحد كلمتهم في هذه المحنة الحازبة التي أصابت الإسلام . فقيم ندعهم اليوم أم المؤمنين ؟

وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ؟ ...؟ لحرب الغوغاء ؟ ...؟ للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعى للبلاد ؟ ...؟ قدأوشكت كلماتها أن تشكك الناس في مسلك على حيال أصحاب الفتنة إن لم تكن قد ألفت فملا ظلالا سوداء على نواياه وهى بعد فى قلب الغيب . وراحت البلدة الحرام — وهى مباءة فريش نطن بالضوضاء حول اسمه طنين الحلية .

وتلقف القوم خطاب عائشة فلا كوه فى أفواههم وخرجوا منه ما شاءوا من أقاويل ، فكذلك وجههم كلمات الذائدة اليوم عن دم عثمان . وهل عساهم يستخلصون من حديثها ومن عودتها المفاجئة حين علمت ببيعة ابن أبى طالب إلا أنها — لأمر لا بد بتصل بدعوتها الجديدة من قريب أو من بعيد — قد آثرت أن تتجنبه وتلجأ فى الانتصاف للخليفة الشهيد المظلوم إلى غيره من الناس ...

وكانت مكة إذ ذاك تعج برجال الحكم المهدوم من ولاية عثمان وخلصائه وأقربائه . فأسرت إلى أسماعهم صيحة أم المؤمنين حتى رأوا فيها القشة التى قد تنقذ مجدهم الفريق . وأسرعوا جميعاً إليها . يلتفون حولها ، ويضعون أنفسهم فى خدمة الغرض الذى قامت فيه . ولو أنها دقت نظرتها لوأتهم أجمين أقبلوا لخدمة مآربهم وإنقاذ سلطانهم القديم أن يضيع . والتحقت بها أيضاً طوائف كثيرة من الأهلين الذين استهوتهم من دعوتها ناحية المروءة فيها ودفاعها عن مظلوم ، واستهوتهم أيضاً شخصية عائشة وما لها من مكانة عالية فى القلوب . وكان بنو أمية لأريب أول من لحقوا بها ، وانضوا تحت رايتها . فإن هى إلا ساعات حتى اجتمعت بها رؤوسهم للذين شردتهم الثورة ، فيهم سميد ابن العاص ، والوليد بن عقبة ، ومن كانت مكة موئلاهم فى ذلك الحين ، وهم على شبه يقين أن دولتهم لن تلبث حتى تعود ثانية إلى الحياة .

وانطلق إليها الحضرمى أمير البلدة الحرام من قبل عثمان يسألها ويقول :

« ما ردك يا أم المؤمنين ؟ »

فأجابت وقد ملكتها غلواء عاطفتها حتى ما درت أنها بهذا الجواب

تخالف موقفها الذي وقفته من عثمان من بضعة أيام ، وتنتقل به من النقيض إلى النقيض :

— ردنى أن عثمان قتل مظلوماً .

— فما ترين ؟

— أرى أن الأمر لا يستقيم ولهذا الغوغاء أمر . فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام ...

فما أبرا مظهرها من كلمات في باطنها فتنة مشبوبة . . إنها بها قد هدمت أول دعائم الحكم الشرعى فى الدولة بأن اغتصبت حق توجيه الولاية ، وإلقاء الأمر إليهم دون تفويض بهذا ممن له وحده حق التوجيه . واستغلت قدرها عند الناس فى امتلاك نصية سلطان ليس لها وليست تقدر عليه . فما أوتيت العلم بأمور السياسة . ولغير هذا أهلها طبعها الحاد الذى يقفز بها دائماً إلى أقاصى الغايات دون إفساح الطريق لحكمة العقل . وكفناها خطأ أن غضبت لفتنة أوشكت أن تخمد فقامت تعالجها بفتنة جديدة لن تلبث أن تتأجج نارها وتندلع ألسنتها المحرقة حتى تعم الدولة الإسلامية كلها وتلهبها بسياطها فى كل مكان .

ويعجب المرء لهذه المهمة الفائقة التى راحت عائشة تبذلها لجمع الناس تحت رايها . ولهذا النشاط البالغ الذى وسعها أن نبديه فى هذه الآونة العصيبة ؛ هى التى ظلت طوال عمرها قعيدة دارها تكاد لا تساهم فى الحياة العامة بأى نصيب . فما زاد دورها من قبل عن خبرة بالشئون الدينية ترشد بها من أراد علماً ومعرفة . وقد انقضى عليها بعد وفاة رسول الله نحو ربع قرن من الزمان كان أثرها خلاله مجهولاً تماماً عن صحائف التاريخ لولا ما يدر من نعمتها على عثمان فى أواخر أعوام عهده . حتى هذه النعمة لم تنفرد بها ولم تثرها وحدها عليه . بل سائرت فيها الشعور العام الذى أجمع عليه جمهور الأمة الإسلامية . أما هذه الدغوة الجريئة الجديدة فقد بدت وثبة عالية إلى النشاط السياسى غير متوقعة منها ، يكاد المرء أن يتساءل معها محيراً :

أكانت ابنة الصديق تقفزها لو أن الجالس على مقعد الخلافة كان رجلاً آخر سوى الإمام ؟ . . .

غير أنها كانت وثبة على أى حال . . . وثبة موفقة في نظر الشاعر التي اضطربت بنفسها على الأمير الجديد ، ذلك الرجل الذي امتلأ قلبها بالبغضاء له وناصبته العدا ، لأنه ذات يوم لم ينصرها على الشبهات التي التفت بها وإن يكن لم يرمها أيضاً بكلمة اتهام . ولكنها طبيعتها الجامحة مع العواطف التي دفنتها إلى هذا الموقف تقودها إليه عوامل شتى من السخط والغيرة والحسرة ، حتى انتهت الفتنة التي أشعلتها بالحوادث إلى أسوأ انتهاء . فما يمكن أن ينسى أثر موقفها في المصير المحزن الذي اختتم به عهد الإمام ، بل اختتم به عهد السلطان الروحي الذي كان يرجى من ورائه كل خير للدولة الإسلامية الناشئة لو كان أجله قد امتد بضع سنين . وهل من ريب في أن فتنها كانت سلاحاً حاداً في أيدي الأهواء والمطامع ، تلقفه بنو أمية وغيرهم من الوصوليين ليلغوا مآربهم ، وقيموا دولة زمنية على أنقاض الحكم المثالي الذي قصد إليه الاسلام ؟ .

كانت دعوتها نداءً عالياً أيقظ في النفوس أهواءها الناعمة ، وكانت أيضاً دعوة إلى التمرد على الحاكم الجديد ، وإلى تهوين شأنه عند رعاياه ، وعند الولاة القاعين على الولايات حينذاك ، فقد لاح طلبها بدم عثمان في بادئ الأمر دعوة إنسانية بريئة ، ولكنه في حقيقته كان خطة سياسية بعيدة الغور تحمل في قاعها الانتقاص من قدر على بوصفه الأمير الأول الذي يجب أن توجه بلسانه أمثال هذه الدعوات ، وعليه دون غيره الانتصاف لكل مظلوم من ظالميه ، وله وحده الكلمة النافذة عند شعبه وعماله . وقيام عائشة بدورها هذا جعل كثيراً من الناس يحسبونها ما قامت قومتها إلا لأن أمير المؤمنين قد أبى أن يبدأ القيام ، أو فترت همته دون إيقاع القصاص بقتلة عثمان ، بل إن منهم من رأوا فيه رجلاً قعد عن نصرة حق وجب أن ينصر لأن له مأرباً من وراء هذا القعود ، وجرت ألسنتهم فيه بالظنون الظالمة حتى أظهروه في أحاديثهم

شربكا للثوار نفع على رأسه مثلهم دماء القتيل ، وكان هذا أرهف سلاح أمدت عائشة به معاوية وأنصاره ، فما زالوا يشهرونه في يد باطلهم حتى نالت الأقدار من على نيلها وغيبته عن ميدان الصراع .

ولم تكن دعوة عائشة ذات أثر فحسب على نفوس ذوي الأطماع الذين رأوا في قيام حكم علوي ما يبدد أحلامهم في النفوذ السياسي ، بل تجاوزتها إلى كل من رنا إلى هدف شخصي ومضى نفسه ينوغه ، وإلى طائفة من ضعاف العزائم الذين لا يثبتون عند رأى ويميلون مع النزعات التضاربية كل ميل ، وإلى السذج الذين يسهويهم في الأفكار المبثوثة زخرف سطحها دون قيمة جوهرها . وإلى المغلوبين على مشيئتهم ممن بايعوا علياً انسياقا مع الرأى العام دون رغبة حقة في تنصيبه للخلافة . . فكل أولئك جرفهم دعوة عائشة في غمارها فانطلقوا معها إلى آخر الشوط ، واستجاب لهم من كانوا على شاكلتهم بغير مكة ، كما سرت أنباء صحيحة أم المؤمنين إلى بلاد الدولة الإسلامية مع الركبان ، وكانت مدينة الرسول أول بلدة صك سمعها صوت الفتنة إذ جاءها على السنة العائدين من زيارة بيت الله الحرام ، فما نشب أن وقع فيها خلاف بين على في ناحية وبين طلحة والزبير في الأخرى ، أدى في النهاية إلى ضياع ما قاما فيه وحاربا عليه من أيديهما ، ووقوعه طعمة سائفة لابن أبي سفيان .

يكاد المرء كلما أجال ذهنه في شأن الصاحبين أن يجزم بأنهما لم يخلصا النية حين بايعا الإمام . هاجقا تقدما إليه صفوف الناس ، وبادرا فسلا عليه بتحية الخلافة قبل أن تمتد إليه كف أخرى ، ولكنها - مع ذلك - لانراهما قولا هذا انسياقا لشعورها الخالص بقدر ما فملاء مجارة للشعور العام . ولقد يبدو أنهما رأيا السلامة في البيعة له ، وخشيا على نفسيهما من غضب الجمهور إن جاهرا بالامتناع ، فأثرا إعلان غير ما يحسان . ولكنها أبطاً خشية معزوة إلى الوهم واضطراب الخيال . وليست إلى الحقيقة التي أثبتتها من

قبل ومن بعد قرائن الأحوال فما علم قط عن علي أنه دفع الناس للتحزب له أثناء الأزمة التي انتهت بمقتل عثمان ، ولا اتخذ دعاء يروجون لتوليته ويأخذون معارضتهم بالعنف كي يناصروه . بل الثابت أنه كان أبعد الزعماء عن ميدان التنافس على السلطان ، وأزهدهم جميعاً في السعى إلى الخلافة ، وأكثرهم اعتزالاً للجواهر التي ظلت بضمه أيام تهتف باسمه ، حتى إذا قهرته على الاستجابة لمشيئتها لم يقبل منها البيعة إلا أن تكون بالمسجد ، على مسمع ومرأى من الخاص والعام ، ليرى الكافة رأيهم فيه قبل أن تسند إليه الإمرة ، راجعاً من وراء هذا أن يوفر حرية الرأي للجميع على السواء ، يؤيده من شاء ويرفضه من شاء . وتمت له بيعته على النحو الذي أراد . فما علمنا أن أحداً خالعه قد أخذ بالعنف الذي يؤخذ به العصاة ، بل تركهم أحراراً وبالغ في الترفق بهم وإن واجهوه بالرفض والإباء .

ومع ذلك فقد لاح أن الندم لم يكف عن الطواف بقلبي طلحة والزبير منذ اللحظة التي أدليا فيها بالبيعة إلى الإمام . فما غادرا المسجد ذلك اليوم حتى تبينا إلى أن مدى غمط كلاهما حق نفسه حين مسحاً بكفيهما على يد الرجل الذي أصبح على الأثر أميراً للمؤمنين . وبدالهما أنهما قدماه بغير موجب وآثراه بأمرهما أولى به . فما سمى سميتهما إلى الخلافة ، ولا نشط كدشائهما في تأليب الناس على عثمان وتحريض الثوار حتى حصروه وقتلوه ، بل قد كانت حياة الخليفة القليل أدنى إلى النجاة لو أنه استمع لرأى على واستجاب لإرشاده . وكانت خطط الصاحبين وتديبرهما لبلوغ السلطان أقرب إلى المشل لو أقره عثمان على قتال الثوار وأخذهم بالعنف قبل اشتداد ضغطهم عليه .

وفي الحق لسنا نرى إلا أن الندم هو أولى الاتصالات وأجدرها بسكنى هاتين النفسين بعد الذي أصاباه من خيبة الرجاء . فقد ذهباً يدأبان لا يتراز سلطان عثمان فما أفادها الدأب . بل سقطت الثمرة المشتهاة في حجر علي وهو ساكن لا يرفع إليها بنانه . وعجيب أن يهدم القدر صروح

أملهما المشهود في اللحظة الأخيرة ، ولكن الأعجب منه أن يتخذ منهما معول هدم . . . منيا النفس طويلا بخلافة يشتركان بها في حكم الدولة الإسلامية المريضة ، أو لعلهما اتفقا على قسمتها دولتين تدين كل منهما لأحدهما وحده ، أو ربما استنبطا نظاماً جديداً من الحكم ادخرا ليووم النصر ، ولكنهما أحالا النصر المرقوب إلى خذلان لم يدر ببال ، ومزقا بكفهم ستر الحلم الجليل ، الذي ظلا طويلا برنوان نحوه ، فاهتكت عن حقيقة شوها طالمتها من خلاله .

كانت فرصة ذهبية ، أتاحها لها الظروف المواتية في الوقت الحاسم ، فضيماها . كانت فرصة العمر كله ، جاءتهما ذلولا وقدم على لم تثبت بمدى درج النبر ... في هذه اللحظة الفاصلة كانا أدنى إلى إمرة المسلمين منه ، وأقرب إليها كما لم يكونا مطلقا من قبل . وأوشكت أن تنعقد البيعة لأحدهما أو كليهما حين خيرهما ابن أبي طالب بين أن يبايع لها أو يبايعاه . . . بل قد مد إليهما كفه يكاد أن يحبيهما بتحية الخلافة . وكانت البيعة إذ ذاك حرية أن تتم بيده لو قبلها . حرية أيضاً أن تلقى رضاه الشعب الذي كان يلتق السمع والطاعة إليه . فلو قبلها ...

ولكن الخشية التي نزلت بقلبيهما في تلك اللحظة أضاعت الفرصة ، وفلبت النصر هزيمة ، وما أمر الخذلان ساعة ارتقاب الفوز ! . الخشية من الجماهير الفتونة بحب على دفعتهما إلى التردد في قبول عرضه السخي الكريم . ثم إلى الإحجام عن قبوله ، ثم إلى رفضه بمنطق اللسان وإعلان غير ما يحسان . وما نحسب طلحة إلا يذكر تلك اللحظة وهو آسف محسور ، ويجيل بذهنه مادار فيها من حديث قصير ونفسه تقطر ندماً .

يقول له على :

« أبسط يدك يا طلحة لأبايعك »

فتندفع الكلمات إلى طرف لسانه بالجواب غير المرقوب :

« بل أنت أحق بها ... أمت أمير المؤمنين فأبسط يدك ... »

فلعله نطق بها دون أن يريد : ولعله لم ينتبه إلى خطرها على آماله إلا بعد أن انقلبت من بين شفتيه وسمعها كأنها آتية من غيرفه ! ... ولكنها كانت قاطعة كالسيف . ما أسرع أن قررت مصيره وقصفت عود أطاعه في الخلافة بعد أن ظل يتعهد بضرته وأزهاره منذ عهد الصديق . ومضت تلك الساعة خاطفة ، لا تستأني ، ولا تهمله ليصلح سقطه لسانه ! .. وراحت حوادثها تهرق كالسهم ، وتتدفق كالسيل المتحدر من شواهد الجبال . ولو استطاع الرجل لجهد ليسترد كلمته ثم يخفيها عن الناس في قرار سحيق ! ... لكنها كانت شيئاً كالحظات العمر ، يذهب إلى غير مآب . يملكها صاحبها مرة واحدة إذا هي هامة الحس خلف شفتيه ، فإذا عرفت اليقظة فإنها كفيلة بأن تملكه على مدى الدهر مرات تزيد وتتجدد يقدر الأصماع التي تستقبلها ، ما دامت قد تحررت من أسر الصمت وسرت مع أنقاسه إلى فضاء الانطلاق .

ما وئت هذه الصورة تبدو لطلحة وزميله وتقصد عايبهما صفو الأيام ، وتعكس في نفسيهما ظلالاً قاعة من حسرة هي نتاج الندم المر الذي أصاباه . وهل ألم على المرء من أن يمكن لغريمه في أسباب التفوق عليه ، والفوز دونه بالنجاح المأمول ؟ ..

ولكنهما جاهدتا الحسرة ، وأحالا طاقتها المستعرة إلى نقمة حاقدة تطوف بالإمام ، وكلتا عادت بهما الذكرى — فما بعد — إلى ذلك اليوم الذي ضيعت فيه كلمة عجلى غرس الأعوام ، راحا يهربان من عتبي النفس ، ويحاولان التأسى على ما فات باعتساف سبب من الأسباب يمزوان إليه ضياع الثمرة للشهوة ... وما كان أكثر تحدثهما بهذا السبب الموهوم ، في كل زمان ومكان ، جهرة وفي الخفاء ، كلما سثلا في قصة البيعة ... كانا دائماً يقولان :

« .. إنا صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، لقد عرفنا أنه لم يكن لينايعنا ! ... »

ولقد سبق إلى يقينهما عقب انعقاد الأمر لعل أنه لن يكون لهما في

عنده شأن معلوم ، ولن يصبحا كبيرى أثر فى توجيهه إلى معالجة الأمور كما يريان ، لأنهما يعرفان اعتداده بقدر نفسه ، وشدة وتوقه فى صدق نظراته ورجاحة رأيه ، وعسير عليهما إذن أن يجدا عنده غير مايلقاه سواهما من أصحاب رسول الله ، فإهو بمنهافت الإرادة فيستعير منهما العزم ، ولا باللبان فيسألها الشجاعة ، ولا بالغر فيطلب منهما المشورة ، وليس ثمة ثغرة فى شخصيته يمكن أن تسدها ميزة يملكها دونه أحد الصاحبين ، بل هو أدنى الناس — بعد محمد — إلى السكال بألوانه العديدة ، وأقربهم إلى التزام منهاجه . . عزفا هذا فى خلقه ، وفى علمه ، وفى سداد رأيه ، وفى كل صفاته ومزاياه ، فعلمنا من أول لحظة أنه مستغن عنهما بما زودته به طبيعته وفطره عليه تكوينه ، وأيقنا بضالة الأثر الذى سيكون لهما فى نظام هو القائم عليه ، وما يتبع هذا من ضعف تقوذهما فى دولته ضعفاً أفصح عنه طلحة فأحسن الإفصاح حين قال :

« مالنا فى هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب ! » .

فهذه مشاهد من تقسيهما تضاف إلى ذلك المشهد القديم الذى يطالما من خلال الماضى وتنطق خطوطه وألوانه بالحسد للإمام ، والغيرة على المكانة التى بلغها بسجاياء وميزاته من قلب محمد وبرز بها على كافة قادة الإسلام . وهى تفسر لنا كل ما يصندر عن هذين الصاحبين من تصرفات كانت فى الواقع صدى لمشاعرهما التى ظلت آوثة محتبسة فى صدريهما من خشية . . فلما أن رأيا من على ترفقاً بمن رفضوا بيعته ، وجاءت على الأثر صيحة عائشة تحمل فى طواياها الانتقاص من قدره ، اتقدت فى قلبيهما جذوة النعمة ، ومضيا يهدفان — علانية وخفية — إلى النيل منه . فإتركا أبداً موقف التربص به الذى يحتمل جاهداً أن يتصيد له الهنات ، بل راحا ينتهزان كل فرصة حابرة لإظهار معارضتهما له ، التى قصدا فى الواقع أن تكون خطوتيهما إلى العصيان وإعلان الترد عليه . وما تراهما كأنهما مدفوعين بدوافع صادقة تستلزم سياسة الشغب التى اتفجها حياله ، ولو أننا

استعرضنا محاور الخلاف بينهما وبينه لم نجد فيها واحداً يدعو إلى الخصام بالكلام فضلاً عن امتشاق الخصام ، ولكنهما سارا كما قادها السخط ، وكما دعمهما الفتنة التي انطلقت من مكة ، فاندفعوا بغير تبصر في سبيل العداء ، حتى لبدو لكل عين أن إفساد أمره عليه كان وحده الغاية التي يبغيان .

على أن من حق الشيخين علينا أن ننصفهما فنقول إنهما ذهبا إلى الإمام يندرانه قبل أن يجاهراه بكل هذا العداء ... أجل قد فعلا . وانطلقا إليه بعد اليهمة يحدثانه بغير استحياء ويكشفان طوية نفسيهما في وضوح وجلاء .. قالاه :

« أتدرى يا أمير المؤمنين علام بايعناك ؟ . . »

فأجابهما بالجواب الذي ليس ثمة سواء :

— على السمع والطاعة وما بايعتم به أبا بكر . .

— كلا ... ولكن بايعناك على أننا نشارك في هذا الأمر ..

شريكان ؟ ... فهذا نوع جديد إذن من المساومة على اقتسام السلطان ! .. وطبيعي أنه رفض ما عرضاه . وطبيعي أنهما أيضاً ثارا لرفضه الذي انقطع به كل أمل لهما في السيادة ، فانطلقا يعلنان سخطهما ، ويقولان فيه بغير تبصر وإن حمل في ألفافه معاني الاتهام لهما دون اتهام الخليفة . . بل لعل حديثها ذاك كان خير شهادة منهما بنقاء صحيفة على مما أعلقوه بشوبه — فيما بعد — من قطرات دماء عثمان ...

... وقف الزبير في حشد من قریش يشكو إليهم عسف الإمام ، وقلة بره به فقال بصوت ممرور :

« هذا جزاؤنا منه . . . قناله في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسيناله القتل ، وهو جالس في بيته قد كفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد نجعل دوننا غيرنا ... »

ونفض طلحة على أثره فقال :

« ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى . كرهه أحدنا ، وبايعناه
وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . . »
وما كان لهما من رجاء بعد أن أبى عليهما هذه الخلافة المشتركة إلا أن يبعثهما
واليين على بعض الأقاليم ! فما زال لهما حزبان بالبصرة والكوفة وشيعة عسى
أن يمسربا بها ذات يوم إلى احتلاب النفوذ كله في الدولة الإسلامية . ولكنه
بعث دونهما ولاية آخرين فحق إذن أن يلحياه ! . .

وشاعت مقالاتهما هذه في الناس حتى بلغت مسامع الإمام . ولعل شيوعها
كان بعض خطبهما عسى أن يغنا من ورائه ما كانا يطعمان فيه . ولكن
علياً ظل ثابتاً على رأيه فيهما ولم يزد على أن أرسل إلى ابن عباس يستشير
فيما كان ...

قال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم يا أمير المؤمنين .

— فاذا ترى ؟

« أرى أنهما أحبا الولاية . فوالبصرة الزبير ووالطلحة الكوفة ،
فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان . . »

فضحك على وأجاب بهدوء :

« ويحك يا ابن عباس ! . . إن العرافين بهما الرجال والأموال . ومتى
تملكا وقاب الناس استمالا السفه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا
على القوى بالسلطان . . ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونقمه لاستعملت
معاوية على الشام . . »

٨

الوقت عليهما ثقیل ، لا يكاد يتقاص ظله . فى حسابان الشهور عاشا أحقابا طویلة تحت راية هذا العهد الذى أبغضاه ، وتحت حكم هذا الرجل الذى سادها فى غفلة منهما ودون انتباه . . . وفى حسابان الزمن ما عاشا سوى ليلة أولیلتین كل لحظة فیهما كانت الدهر بطوله .

ولكن اللیلة الواحدة تستطيع أن تتسع لشغب العمر ، وتفيض خلالها نقمة الصدور القروحة فى دفعة . فما يطيقان التریث ولو إلى غد ، ويرميان بصرهما إلى المستقبل الفسیح أمام كل نفس تتعلق بالفرد القابل بعد أن تودع. الأمس الراحل فیريانه أضيق من ~~كف~~ بخيل . . . بل لعلهما لم يریاه على الإطلاق ، وحسب الشمس سـكـف بعد لحظتهما هذه عن البزوغ . وأن الكون سیسكن ویقف وقفة الأبد . . . وإن فى قلبیهما لسخطا فیاضا ماله حدود ، قد یستغرق الزمن بأكمله إن أطلقاه رويداً رويداً على مدار الأيام . فأولى إذن بهما أن ینقضاه الآن .

الآن ؟ ... إنها الكلمة !... وهى الزمن كله وليس بعدها آتات أخرى ولا أزمان ! ... وهى الجمعة التى تتسع لحشد كل ما یحسان ! وهذا شعورها: فى النفوس عذاب ، وفى القلب نار حامية ذات لهب مشبوب . كلما أكلت من القلب ذكت وعلا ضرامها الطاغى فالتهم التبصر وحكمة العقل ، ودفع الصاحبین المعنین فى الخسومة إلى غمار الخلاف كما یندفع المحروق إلى الخلاء على غیر هدى وإن علم قبل أن تعلق بأذياله النيران أن لفتح الهواء یسرع به إلى مهاوى الهلاك .

ولم یكن قد فات سوى یومین على البیعة — على العهد الذى ارتبطا به أمام الله وأمام الناس . ومع ذلك فلم یكف عن معارضته والشغب علیه . وأطاعا النفس الحاقدة فى عصیان من وجهت له علیهما الطاعة . بادراهما

بالخلاف من أول لحظة ، ولو أتاحت لها الفرصة المواتية لبادر به أثناء
البيعة ... فكأنى بهما — وهو على المنبر — قد أخذ يده ليقطعها لا ليشدا
عليها ويصالحها برهاناً على الولاء .

ولكنها نزوة تملك نفس طلحة ، وأعدت الزبير بمدواها . وسقطة وقع
فيها الأول بدافع شهوة الحكم التي نمت بقلبه أعواماً طويلة ، واساق إليها الثاني
بدافع حسده للإمام المعروف عنه منذ عهد الشباب ، وبدافع الإغراء أيضاً الذي
زينه له ابنه عبد الله — ابن أسماء بنت أبي بكر وريب عائشة أم المؤمنين .
فأعجب بها من زمرة تنتهي في النهاية إلى أصل واحد هو أول الخلفاء — أول
منازعى على تراث رسول الله — وتتصل به صلة قرى من بعيد ومن قريب ! .
هذا حزب من تيم ! ... اجتمع فيه طلحة ابن عم الصديق ، وعائشة ،
وأختها أسماء ، وزوج هذه وابنها الزبير وعبد الله . قد ربطت بينهم عصبية
الأسرة قبل أن تربط بينهم غاية مشتركة . ثم قرنتهم الموحدة على الإمام في
سلك واحد لأنه من بيت يطولهم إن ذكرت مفاخر الجاهلية ، وأجناد الإسلام
ثم ألف قلوبهم على منازعته أنه نازعهم ذات يوم سيادة كانت له وابتزها منه
شيخهم الأول . ثم لعبت بأحدهم شهوة الحكم حتى رأى نفسه أولى بالإمرة
من كل أمير . وجنحت واحدة لوحى قلبها المليء بالفيرة على غريها القديم .
ومال الفتى كميل خالته التي رعته كابنها وقد حرمت الولد فكره مثلها ذلك
الغريم ، وهفا إلى المجد إذ كان حفيد خليفة رسول الله وفرع أسرة أصبح لها
اليوم في أعين الناس مكان مرموق ، وأطوع المجد إليه هو ما يأتيه من خلال
أبيه : ابن ممة محمد وصهر الصديق ، وأحد أصحاب الشورى المرشحين للخلافة ،
فهلا يستجيب الزبير لإغراء ولده ، ولدعوته إلى الكفاح من أجل السيطرة إذا دعاه
وفي نفسه بضعة من حسد لابن أبي طالب راسبة منذ عهد الشباب .

يقول على :

« ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشثوم عبد الله ... »

وقد صدق الإمام . وجاءت الحوادث من بعد فأيدت حديثه . وبدأت خلالها أصبح الفتى توجه الرجل إلى كل خلاف . وتسكاد في كثير من الأحيان أن تصفو نفس الأب فيهرع الولد إلى تعكير صفوها بتحريك النزوات التي رسبت وكادت تستقر في القاع لتطفو على الصفحة وتعود ثانية إلى الظهور .

كأما عوامل شخصية تلك التي حملت الزبير وطلحة على مخالفة على وإبداء العداء له ... مشاعر ذات ألوان ، لها على النفوس سطوة عانية ... نعمة أسرة !... وقد استجاب صاحبان لها ، وانساقا أمام التيار النفسي بغير روية يحاولان هدم الإمام وتقويض أمرته تحته . ولغير غاية عامة اطلقنا مسرعين في هذه الطريق المحفوفة بالأغراض والطامع . فكأنما رانت الأهواء على بصائرهما فلم يميزا بين الخطأ وبين الصواب ، بل راحا يعارضان الإمام في كل عمل قام به أو أوشك على إنقاده حين كان يجدر بهما أن يؤيداه ويشدوا أزره . وليس أبلغ في الدلالة على انسياقهما مع الضغن من تمهريضهما الناس عليه لما سوى في القسمة وهما يعلمان تمام العلم أنه لم يأت ببذعة من لدنه وإنما أقر نفس النظام الذي سنه رسول الله .

ومع ذلك فقد أغضى كريماً عن هذا الاجترار ، واكتفى بأن قابلهما بحجته القاطنة ومنطقه الدامغ . ولكنهما لم يكفيا عنه ، ولم يقعدهما عن دعوة الفرقة والشغب وضوح حقه . بل انطلقا يؤلبان عليه أصحاب الأقياء الممتازة والأعطيات السخية من ذوى الأنساب العريقة — أولئك الذين تقموا منه نسويته إياهم ببقية أبناء الشعب . فهل ترى غاب عنهما أنهم جميعاً كانوا أنصار قضية يخذلها الحق ترضيهم أمام عيون التاريخ في صف الباطل ...

نوشك أن نهم ذكاء الرجائين لو حسبنا فطنتهما إلى هذا الحد من القصور . ونوشك أيضاً أن نعمطهما القدرة على استحداث كل أساليب الفتنة والخلاف التي حذق استحداثها طلحة على أهون تقدير . وتنطق

الحوادث نفسها بغير هذا الافتراض الذى يتقصر من مهارة الشيخين وتشهد لها تبين الثبة وإتقان التعبير . فقد كانا أبرع من أن يرميا بسهم واحد ولا يرميان بآخر على أثره حين أرادا إصابة الهدف المطلوب . . . وكل ما جرى فى الفترة القصيرة التى قضياها معه بالمدينة يكاد ينبىء عن سياسة مرسومة جماعها إحكام التصويب وكيال الضربات المتتالية إلى الرجل الذى ناجزاه . فما انطوى من عهده سوى يومين اثنين حتى طالما بما يكفل - فى وهما - تقويض أمرته . كأنهما استبطئا ألا تنشب عليه الشررة بعد انقضاء فترة كرهه - طويلة ممطوطة ! - وهو ما زال فى مقعد الحكم !

يومان اثنان انفضيا على البيعة ، وعلى مجاهرتهم بالولاء للإمام تحت رأى العيون وسمع الآذان فى أقدس موضع تتجه فيه القلوب إلى الله . يومان اثنان فى حساب الزمن ولكنهما فى حساب المشاعر المنبعثة عن الأنفس المليئة بالحقد والضعيفة أطول من الدهر الخالد والأبد الآبد . فإن هو إلا أن حل ثالث نهار بعد بيعته حتى انطلقا إليه ، كأول مرة ، فى ثلة من كبار أهل المدينة وأصحاب الكلمة المسموعة بين الناس . . . انطلقا وفى وقاضهما بذور فتنة جديدة ، الأرض التى تصلح لاستباطها هذه المرة هى نفوس العامة ونفوس الخاصة بهذه البلدة وغيرها على سواء . .

فكانما كان حديثهما صدى لصيحة عائشة بمكة ، يكاد ينقل دهورها فى أمانة وحرص . . . قالا له ، وشاركهما فى بث مكنون الصدور بقيمة الرغد الأمين الذى رأساه :

« يا هلى . . . إنا قد اشترطنا إقامة الحدود . وهؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل . وأحلوا بأنفسهم . . . »

فبدت له الفتنة الناعمة تنفض عن نفسها غطاء الركود ، وتتحرك على أطراف ألسنتهم ثم تهم بالانطلاق واتسعت حدقتاه كمن بوغت بسلاح يعتد إلى صدره من خلال الظلام . ثم ألقى بصره إلى الخارج : إلى طرقات المدينة التى كانت تعج إذ ذاك بطوائف الثوار من أهل الأمصار ،

وبأصحابهم من موالى البلدة وعبيدها الذين آزرهم أثناء الثورة ، وبالأعراب وأهل المياه الذين انحدروا من أراضيتهم على الحدود وكان لهم في الفتنة نصيب... كل أولئك مشلوا في خاطره تلك اللحظة وإن لم تطف بهم نظرات عينية . ومثل غيرهم كثيرون منهم كانوا قد انبثت معسكراتهم على تخوم المدينة وأقاموا حولها في شبه حصار ...

وكما أغضى عن الخلاف الذى أنشبه الصاحيان عليه بالأمس حين جاءه يمارضانه في السياسة التي رسمها للتقسيم ، فكذلك آثر أن يفضى اليوم ويبدو كأنه يعلم عنهما سلامة الطوية وبعدهما عن إرادة تدبير فتنة جديدة عاتية هوجاء ... وراح يتذرع بالهدوء والصبر وهو يقول :

« يا إخوتاه ... إني لست أجهل ما تعلمون . ولكن ... كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. »

ومد يده يشير بها إلى ناحية الطرقات والدروب ، وإن بصوته لرنه سخرية وهو يعاود الكلام :

« ... ها هم هؤلاء .. قد ثاوت بهم عبدانكم . والتفت إليهم أعرابكم . وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟ .. »

ورآن الصمت على المجلس هنيهة كأنهم يدبرون في أنفسهم ما قال ، ويستوعبون منطقته الذي لا تنفذ إليه كلمة اعتراض . ولكنه لم يعدم أن يسمع صوتاً من بينهم يقول :

« ... فلو عاقبت قوماً ممن أجاب على عثمان ... »

كأنما أخذ بعض الثوار بالمقاب دون البقية الآخرين فيه علاج الحال ...

وأسرع إليهم بالجواب الصواب ، يبين لهم ثانية حقيقة الداء ويصف أنجع دواء ... قال بلهجة حاسمة ، وصوت تبدو من خلاله نبرات الحزم والتصميم :

« ... إن هؤلاء القوم مادة . والناس من هذا الأمر — إذا حرك —

على أمور : فرقه ترى ماترون ، وفرقه ترى مالاترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . فاهدأو عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط مئة ، وتورث وهذا وذلة . »

على أن هذا الحديث الواضح المبين ، وهذا التحليل الدقيق لموقف الشعب خيال الثوار ، وهذا العرض الأمين لحقيقة الحال ، كلها لم تقنع المخالفين ، ولم تستطع أن تهدئهم عنه . فبالرغم من أن الجمهور كان ينقسم فرقاً بعضها يعطف على رجال الثورة ويرى فيهم مجاهدين خلصوا الأمة من شر مستطير ، وبعضها الآخر يراهم عصاة خارجين على القانون . . . وبالرغم من تجمع قوى الثوار بالمدينة وعلى حدودها الدائية ، وامتلاكهم ناصية الحال فيها بقوة السلاح فوق ما لهم في نفوس أهلها من قوة الرهبة ، وبالرغم من أن الزمن هو الكفيل وحده بنهضة الخواطر المبدلة في كلا الثائرين والأهلين ، ويجمل الفرق المختلفة أدنى إلى تكوين رأى صحيح عن الثورة ورجالها بعيد عن التأثير بالعطف أو بالخوف . . . وبالرغم من هذا كله يبدو أن الوفد لم يستجب لنداء على لهم أن يمهأوه ثم يحكموا بعد قليل على ما يأتى منه . بل والوا الضغط عليه . وظلوا يضغطون عسى أن يقطع في الأمر بقرار ، ويخطو خطوة حاسمة في سبيل تنفذه ما جاءوه فيه وإن كان الوقت لم يحسن بعد للحسم . وإن كان الحسم في غير أوانه كفيلاً بزيادة الموقف تعقيداً واستمصاء على الحلول .

لاح هذا لأنا لا نلبث أن نشهد الإمام في ذات اليوم يخرج إلى المسجد وحوله أولئك الصحاب ، فيقف في الناس يخطبهم ثم يهب بهم في حرارة وابتهاال ، فيقول في ختام الكلام :

« . . . أيها الناس ، برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . . . أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب . . . يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم . . . »

فإذا المهمة تسير في أفواه الجماهير ، وإذا البغلة تنين على الوجوه ،

وإذا السبائية يلمحون في الأفق نذراً لا تطمئن نفوسهم إليها . وإن هي إلا لحظة حتى تنادوا من كل جانب ، وأحدثت الأصول والذبول . وأبى أى رجل من الجمع أن يطيع النداء لا فرق في ذلك بين طوائف العبيد أو السبائين أو الأعراب .

فكانها دعوة إلى لم الشمل ، وتكتل القوى التي أراد أن يفرقها أصحاب الوفد وعلى رأسهم طلحة والزبير ! وألقى على نظرة حاتقة على الصاحبين ومن معهما . فهذه هي النتيجة التي خشىها منذ البدء وحاول جاهداً أن يتجنبها ... ومضى غاضباً إلى داره وهؤلاء حلقه يسرون ناكسي الرؤوس كأنما أخزام سوء ما أسفرت عنه مشورتهم الهوجاء ... وفي غيظ مكظوم ، وبهدوء قاس تكاد أن تجمد له الدماء في العروق قال لهم وأصبعه تشير إلى الجماهير التي تنكتل في جموع :

« دونكم ثأركم فقتلوه ! ... »

فما تحرك في أفواههم لسان ، بل غلب الحزى عليهم حتى سكنوا في مواقفهم كأنهم ظلال ... وعاد هو ثانية يجيل فيهم عينيه ، ويلقى نظراته الغضبي على وجوههم التي تقطر جموداً . ثم هز رأسه ، وقال بصوت ممرور :

ولو أن قومي طاوعتني سرائهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

فكانت ما وجداً مخرجاً لما أصبحا فيه . أو بأصدق تعبير وجداً وسيلة إلى تحقيق مأربهما القديم ... تقدم إليه طلحة وهمس له في هدوء كمن يشير بالدواء الذي يبت الدواء :

« يا أمير المؤمنين . دعني آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل ... »

وأسرع الزبير يهمس كصاحبه ، وبذات كلماته :

« ... دعني آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا ... »

البصرة لطلحة ، والكوفة للزبير حيث أعوان كليهما الداعون لها بالخلافة

منذ أيام ؟ ...

ولكن الإمام قال دون تردد وهو يبدى لها غاية ما يستطيع إبداءه من
قلة المبالاة :

« حتى أنظر في ذلك » .

وقطع جوابه عليهما سبيل الأحلام ! . .

٩

قويت شوكة أصحاب الثورة ، وازدادوا اتفاقاً حول أنفسهم ، وحرصاً
على لم قواهم وحشدها بمكان واحد بعد الذي لمسوه من انقلاب الأفكار عليهم
وسيرها في اتجاه عدائى سافر . ولم يكونوا في البدء يوجسون خيفة ولكنهم
اليوم وقد لمحوا نذر النعمة عليهم تتجمع في النفوس وتوشك أن تنطلق
كإعصار ، لم يروا معدى من التزام الحيلة ، وإرهاق حواسهم كلها خوفاً على
سلامتهم العامة . وبقيت جموعهم حيث هى بالمدينة وعلى نخومها ، متراسة
لا تفرح ، لأن هلاكها المحتوم فى التفرق .

كان هذا هو الشعور الذى سادهم ، وطبع حركاتهم بالنفور من كل هيئة
نظامية يوشك أن يكون لها سلطان عليهم ، من كل حكومة تستند إلى غير
سواعدهم . . . وفى اليومين السالفين كانت لهم آمال كبار علقوها على الخلافة
العلوية لأنها — فى ظنهم — حصاد ثورتهم . ولعل كثيرين منهم حسبوا أن
هذه الدولة الجديدة دولتهم ، وأن علياً يدين لهم بالإمرة التى أفلتت من يديه
بضعة وعشرين عاماً غبرت وكانت موشكة أن تفلت بضعة أخرى قد تمتد إلى
انتهاء عمره لولا الضربة التى وجهوها لعثمان . ولكن هذه الآمال كانت
قصيرة الأجل ، لم يعهّلها القدر لتعيش وتثمر ، بل انقضت أعوادها فى ذات
الساعة التى بزغت فيها شمس العهد الجديد . وتلفت أصحابها فإذا الإمام ليس
كما ظنوه ، وإذا أول عمل سياسى يأتیه هو إغفال شأن الثوار ، والانطواء عنهم ،
والضن على زعمائهم بأن يكونوا من أعوانه المختارين لإقامة حكمه أو تدعيمه فى
الأمصار .

بدأ هذا حينما أرسل عمالا من لدنه إلى البلاد يخلفون ولاية عثمان فما بث قط برجل شرك في الثورة أو عرف بأنه أيد أصحابها وظاهرهم وإن كان دونهم نقي الذيل لم تعلق به قطرة واحدة من دماء الخليفة الشهيد . ومع ما كان معلوما من ولاء أكثرهم له ، وشغفهم ببذل كل مايسعهم في سبيله ، وإيثارهم إياه على نفوسهم بغاية ما تطيقه نفس بشرية ، فإنه لم يستعمل أحداً منهم في حمل من أعمال الدولة كأعما تعتمد أن يحول بينهم وبين النفوذ . بل قد كان في سياسته هذه جانحاً إلى الغلو الشديد ، حتى إنه ولي قيس بن سعد إمارة مصر وقبضها عن محمد بن أبي بكر الذي اختاره أهلها وكاد يصبح عاملاً عليها قهيل مصرع عثمان . ولم يكن محمد ممن وقعت على رؤوسهم دماء القتييل ، بل لم تعلق به من هذه الناحية شبهة ، ولم تضطرب حوله الروايات ، وإعلاء ثبتت براءته ثبوتاً قاطعاً بشهادة نائلة . ومع هذا فإن علياً لم يدفع به إلى عمل رسمي يتولاه من قبله . وضمن عليه بالمنصب الذي كان من حقه أن يناله برضاء زعماء الرأي في مصر لأنه رآه ضالماً منذ البدء مع الثوار ، فرأى توليته — في هذه الآونة الحرجة التي تفتحت فيها الأذهان لاستقبال الظنون — كفيلاً بأن تطلق السنة خصوم الإمام بالتقولات الظالمة في نظام يريد له أن يكون فوق الشبهات .

كانت كبرى السائل الشائكة التي اعترضت سبيل علي من اليوم الأول لخلافته مسألة رجال الثورة المسلحين الجائعين بمدينة الرسول . وقد أوعن الفطر في الأمر وقلبه على وجوهه فوجد من الحكمة إرجاء البت في شأنهم بقرار حاسم خشية أن تنقسم الأمة حيالهم إلى معسكرين : بين مؤيدين ومعارضين ، يجر تناحرهما إلى حرب أهلية قد تودي في التمهيه بقوة الدولة . وما من ريب في أنه توخى بهذا الرأي الصالح العام ، وجنب الإسلام نيران فتنة عاتية كانت حرية بأن تندلع في كل الأمصار ، بل كانت حرية بأن تجمل الطوائف الثائرة تقهض بيد من حديد على صولجان الساطة بالحاضرة الإسلامية في بضعة أيام ما دامت تملك — دون الحكومة الشرعية —

السلاح والعتاد . فمن هذا المصير المخوف كان يحذر طلحة والزبير ، ويدعوها إلى الاصطبار حتى تهدأ النفوس المهلبة ويقر اضطراب الخواطر فلا تستعصى الأزمة . بعدها على الحلول . ولهذا جنح أيضاً إلى الغلو الشديد عند اختياره رجاله ، فلم يستعن في شئونه بأحد من الثوار . وبالغ في اجتنابهم توفياً لمظنات خصومه وأقواياهم المجترئة التي أوشكت أن تنطلق فتسلك ظلماً في عقد أعداء عمان .

وهكذا أوجس رجال الثورة خيفة من علي ، وباتوا على حذر منه . وضاعف من خوفهم على سلامتهم أن الأنباء راحت تترى بالنكر لهم في كل مكان .. في مكة ، وفي الشام ، وفي مصر أيضاً نبئت فيها نابتهم . وامتدت منها فروعها إلى بقية الأقاليم . حتى طلحة أيضاً تنكر لهم وقاب جلده الأملس .. ولو أن ثمة رجلاً كان يجدر به أن يستمسك بهم ، ويوليهم من صفوه وتأييده لوجب أن يكون طلحة الرئيس المقنع لحركاتهم الثورية ! .. ولكنه اليوم غيره بالأمس قد أفلته الهدف الذي ركبهم إليه ، فراح يلتمس مطية أخرى لعلها تصل به إلى أغراضه من طريق سوى الطريق ! ..

غير طلحة إذن إهابه ، وأبدى لأصدقائه القدامى ما كان يديه من قبل لعنان . ففي جوار الحرم الآن أصدقاء آخرون — مطايا أخرى تعدها له داعيته ! .. هناك عائشة قد استبدلت بعلمها القديم آخر راحت تاف حوله الجوع ، وترفعه عالياً فوق رأسها يرفرف كألسنة النار .. وإذا كانت لا تهتف اليوم صراحة باسم طلحة ، ولا تدعو إلى تنصيبه خليفة للمسلمين يتبوا مقعد غريمها الجديد كما دعت منذ قريب أن يتبوا مقعد غريمها القديم .. إذا كانت قد أكبت الآن صيحتها رنة تفجع على الأمير القليل بعد أن كانت نداء مدوياً للخلاص منه ، فإن الغاية التي لا بد ستنتهي إليها هذه السياسة ذات الوجهين لن تعدو أن تكون ملكاً لقيم يتسهم عرشه رجل لا تحس السيدة التيمية نحوه بمثل البغضاء التي تحسها حيال الإمام .

ولا تنى الأحداث تطالعنا بالأسانيد التي تثبت أن الطالب يدم عمان

ما كان إلا أفصوصة اشترك في صوغها كل منافس لعل ، حاقده عليه قدره وسلطانه . . . فلم تكن فط دعوى جدية ، أو هي في القليل لم تسر في طريقها إلى هدفها الذي رمت إليه . بل تراها في تبدل وتغير بين يوم ويوم حتى تفقد روحها ولا يبقى منها سوى ألفاظ جوفاء . وقد وسعت كل شيء ، ووصلت إلى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ المقتول . ولكنها في عين خصوم الإمام كانت مبدأ أخاذاً يعينهم على حشد الأنصار ، وعلماً خفياً يستهوي بعض النفوس البريئة الكافئة بالمرءة ، وكل النفوس الزائفة المفقونة بنصرة الأباطيل !

ولم تبق دعوة طائفة محصورة بخكة ، بل سرت مع الركبان إلى بلدة الرسول ووجدت بها أذاناً صاغية . وكان أول من استجاب لها بنو أمية وأحلافهم ، فتسللوا واحداً في أثر الآخر وهم يرجون أن يستردوا من ورائها ملكهم المفقود . وتبعهم طوائف شتى من الأشرار القرشيين . أولئك الذين أضافت إمرة على إلى قلوبهم ضغناً جديداً يجاور الأحقاد القديمة . وكانت تدفعهم أيضاً إلى الخروج لمكة خشيتهم جرم الثوار الذين يمثلون على وجه من انوجوه سلطان الطبقة الفقيرة ، واليقظة القومية في الشعوب الدخيلة .

وبدأت رقعة المتاعب تتسع أمام أمير المؤمنين . فقد كانت هذه الهجرة مشكلة لا بد من تفهم عنها ضياع هيبة الدولة عند رجال الثورة ، ولتوشك أن تكون لهم في حاضرة الإسلام الكلمة المسموعة النافذة واليد المحركة للسياسة العامة إن خلا الميدان من العناصر العربية الصميمة التي تشدد من أزره عند الحاجة ، وتضمن تكافؤ الأصلاء والدخلاء إلى حد معقول . ولو حدثت هذه الهجرة في ظروف عادية لما تبرم بها ، ولو سمى أن يقبلها راضياً لأن جميع طبقات شعبه في نظره سواء . ولكنها وقعت في أعقاب فتنة ، وفي وقت يخشى فيه طغيان الثوار على النظام العام إن رأوا منه الميل إلى كبح جماحهم عند حد محدود ، وإلى بلدة تنهأ هي الأخرى لفتنة إطلاق

حرية الهجرة إليها بغير قيود كأنه وقود جاف يلقى في قلب حريق .

لذلك بادر على إلى حسم الشر قبل استفحاله . فحرم على فريش الخروج وحبسها في أسوار المدينة كما فعل قبله ابن الخطاب . واشتد في هذا الأمر غاية الشدة حرصاً على سلامة الدولة ، وعلى وحدة أمته أن تتمزق . فكانه إذ ذاك عمر قد عاد كرة ثانية إلى الوجود وراح يردد قوله المأثور :

« . . . إني قائم دون شعب الحرة . آخذ بحلّاقيم قریش وحجزها أن يتهافتوا في النار . . »

ولكن قریشاً أبت اليوم إلا أن تضر الخلف للامام، وتبديه كلما وجدت سبيلا إلى المجاهرة بالمعداء . فما عادت تقف منه موقفها السالف من عمر ، ولا رأت فيه رجلا يجدر بها طاعته والحرص على إنفاذ مشيئاته ، وإعما ظلت تنظر إليه بنفس عيون أسلافها القدامى ترى فيه هاشماً آخر أولى بها أن تحسده على سطوته الزمنية وقد حسدته من قبل على سطوته الأدبية . لذلك جهدت في استنباط كل وسيلة تؤدي إلى عصيانه . وإلى إهدار هيئته بين رعاياه كما كم يجب الاثبات بأوامره والانهاء عند نواهيهِ . ولم يكن دورها الطبيعي في الدولة الإسلامية كبقية أبناء الأمة من المحكومين . ولكنها كانت ذات كيان خاص له أثره في توجيه السياسة العامة للدولة يكاد سادتها أن يكونوا نوعاً ما من مجلس نيابي أو هيئة استشارية تعاون الخليفة بما تبذل له من آراء كلما دعت الحاجة إلى التماس المشورة . فهي إذ تنتقض على هيئته فإنما يحمل انتقاضها معنى من معاني انتقاض بعض الهيئة الحاكمة على بعضها الآخر ، وتضرب للشعب أسوأ مثل للقمرد على السلطة الشرعية .

ومع ذلك فلم تر حرجاً في إفساد الأمر على الإمام بين كل يوم ويوم . ومضت تسعحدث الأسباب التي تنتقض على هيئته في تقوس أمته ، وتكيل الضربات إلى النظام الرسمي الذي كان يجدر بها معاوته والتكئين لسلطانه حرصاً على الصالح العام ، فأخذت تتسلل من المدينة وتلحق بأصحاب الفتنة

التي أرثتها عائشة في ابلدة الحرام . ثم لا تني تبث في الطريق وفي الأسواق دعوة التآليب عليه . ومن مكة التي كانت مركزاً تتفرع الدروب منه إلى الشمال والجنوب انطلق بهتانها إلى بقية البلاد فبني في كل منها عشاً للفتنة .

أما الذين حالت الحوائل دون خروجهم عن الحاضرة الاسلامية فلم يقعدهم عن ثابه قريتهم منه ، بل ملأوا أوقات فراغهم بالطمع عليه والديس له بين الناس يحرفون كله ، ويفسرون مقاصده دائماً بالنقيض ، ويتربصون بأعماله عساً هم يقعون فيها على هنة يحسمونها أمام العيون ، فإذا أعوزهم الكيد له في هذه الناحية راحوا يخالفونه جهرة في أمور جليلة لا يختلف فيها إثنان . وما دام الناس لا يشهدون مجالس النقاش الذي يدور بينه وبين خصومه بل يسمعون فقط بنتائجه وهي في الصيغة التي تروق أولئك الخصوم ، فإن تواتر الخلافات إذن كفيلاً في نهاية الأمر بأن يشكك فيه الجماهير .

كان طلحة دائماً على رأس هذه الفئة التي أصبحت شوكة مسنونة تدمي جنب الإمام . وكان الزبير يقفوه كظله ، ويتبعه إلى حيث يريد . فقد توحدت خطاه الرجلين . واتجها معاً إلى غاية مشتركة لا يبلغانها إلا بعزل على من الخلافة . وهل ثمة غاية هدفاً إليها سوى ابتزاز الحكم من بين يديه واحتجازه لهما معاً يتصور أن مقعده الأثير الخلاب ؟ .

ولكننا إذ نأتي البصر إلى الأحداث لا نشك لحظة واحدة في أن الزبير كان ضحية لأطماع طلحة . وكان أيضاً مطيته . . . فما نحسب صاحب التيمم كان مقاسماً زميله السلطان لو نجحت خططه وآلت إليه مقاليد الخلافة الاسلامية ، بل هو أقرب إلى التفرد بها دونه واحتجازها لنفسه لأن هذا أشكل بطبعه وأدنى لشغفه البالغ بامتلاك نواصي النفوذ . وهل تراه يكافح أعراما طويلة لتحقيق أطماعه ثم يقتسم الثمرة الشهية وآخر في نهاية المطاف ؟ . ونسكاد أيضاً نرى الزبير مغلوباً على رأيه ، قد خرج حشف أفعه على ابن خاله ، وسار خلف طلحة على طريق الشغب وكأنه مسحور ، فما نحسبه نسي كاف صاحبه السلطان . ولئن نسيه فالعهد غير بعيد بكلمات عائشة ودعوتها السافرة

إلى عزل الخليفة القائم على الحكم إذ ذاك وتنصيب قريبها مكانه . وهل مضت سوى أيام قلائل على قولها لابن عباس :

« . . . قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر . . . »

الزبير بلا ريب مغبون الصفقة . ضياعه في مأدبة السطوة أمر محتوم . . وما تزال كلمات عائشة هذه تذكره بدوره . وترسم لنا صورة منه . ولكنه — فيما يبدو — رضى متهوراً بنصيبه في الفتنة . وفتح ببوارق الآمال التي لوحوا بها أمام عينيه وإن أيقن في صميم قلبه أن ليس له إلى تحقيقها سبيل . ثم انطلق في ركاب طلحة ، مشدوداً إليه بأهواء أسرة ! .

وتعاضى الأيام والصاحبان يجهدان في إثارة خلاف جديد مع الامام ، فلا تسعفهما الظروف به ، ولا تدع أعمال ابن أبي طالب ثغرة واحدة ينفذان منها إلى الطامن عليه . وقد لاح لهما في البدء أن معارضتهما إياه في التقسيم بالسوية كفيلة بأن تثير عليه العناصر المريقة ذات النفوذ في الأمة . فاذا بهما اليوم قد رأيا قريشا تفر وتدعهما منفردين في الميدان . . . وكان حتما عليهما - في شرعة الشغب - أن يبدلا من هذا الركود الذي ساد الجو السياسي بالحاضرة ، ويمددا الناس بمادة جديدة للخلاف بينهما وبين الامام تسبح فيها الشائعات والأقاويل فذهبا إليه يجادلانه في أمر لم يتمخض الزمن بعد عن دواعيه . . . ذهبا يعتبان عليه أنه لا يستعين بهما على مشكلاته ولا يشاورهما في أموره وإن علما أن العون والمشورة كليهما رهينان بنشوء مسائل تقتضيها ولم تنشأ بعد ، أو على الأقل نشأ منها ما لم تدع الحاجة علما إلى التماس معونة أحد أو رأي في علاجه . وقد بدا من حديثهما أنهما لا يعنيان أمراً بعينه ولم يحددا مسألة واحدة وجب أن يطلب على رأيهما فيها ثم أهمل في استنباطهما الرأي المطلوب . بل ألقيا إليه العتبي مطلقة بنير تحديد ، وبدون إشارة إلى أمر واحد دفعهما إلى إز جاء هذا العتاب . . . فما سمع مقالتهما حتى بادرها

بالجواب الكفيل بأن يسد عليهما باب التعلات والجدال . . . قال :

« . . . ألا تخبراني أى شئ لكما فيه حق دفعتمكما عنه ؟ . . . وأى قسم استأثرت عليكما به ؟ . . . أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه ؟ أم جهلته ؟ أم أخطأت به ؟ » .

فما أظنهما فى هذه اللحظة إلا أدارا الذهن فيما عرفاه من أعماله ثم عاد إليهما الذهن كليلا لا يحمل فى وفاضه أمراً واحداً يستطيعان به أن يردا عليه حججه الغلبة . ولعلهما آثرا الصمت ، ولعلهما قد أصاب كايهما الحسر أمامه فلم ينطقا بحرف . ولكنه قرأ من مكنون القاميين ماسترته قسما وجهيهما الصامته . فان هو إلا الهوى قد دفعهما لمثل هذا الموقف . وإن هى إلا المطامع والآراب فى ابتزاز الحكم من يديه تسرقهما دائما إلى ممرضته والشغب عليه . وقد ألم حديثه بطرف من هذا ، ولمس لمسات خفيفة مشاعرها نحوه حين عاد يستأنف الكلام :

« . . . والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية أربة . ولكنكم دعوتموني إليها وهاستموني عليها . فلما أفصت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبي فاقتيته . فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين . ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . »

لم تكن له فى الخلافة رغبة ، أفما كانت لهما رغبة فيها دفعتمهما إلى اعتصاف كل هذه التعلات ؟ .

يستجاب السيف . وينتهك السر . وتبدو خفايا النفوس واضحة للأعين بغير حجاب .

مهمارة بن شهاب عامل على الحديد على الكوفة ، ظهر ثانية بمدينة الرسول ولما تمض على خروجه منها إلا فترة وجيزة ، وصار يشق الطريق إلى دار الإمام وإن في وجهه لوجوما ظلل قسماته بلون خذلانه ، وعلى ثوبه غبار رحلته الشاقة المزدوجة التي قطعها بين الحاضرة الإسلامية وبين مقر إمارته دفعة واحدة في الذهاب والعودة ، فقد امتنعت عليه الكوفة ، وحال بينه وبين دخول أرضها نهر رأوا أن ينقضوا أوامر الامام .

ويسير الرجل مهموماً إلى أمير المؤمنين ليحدثه مما لقيه ، فما نسمع طرفاً من حديثه حق نراها عودة كفيلة بإثارة التوجس في الأنفس لأنها تنبئ عن بوادر الانقسام في الدولة ، وبدء هبوط هيبة الخليفة في عيون بعض رعاياه ، واجترأهم على مخالفته والتمرد عليه . . . ثم ما يتبع هذا كله من وجوب العمل الحاسم لحصد شوكة العصاة .

ولكننا أيضاً لا نملك أن نمنع بسمة ساخرة يطيب لها الطواف بشعر كل منصف يحاول أن يستقصي أسباب كل فتنة ، ويرد مظاهرها البادية إلى أصولها الخفية . . . فاذا وسعنا هذا الاستقصاء فانا نوجب لأصابع القدر ، التي نسجت شباك العصيان حول الامام أثناء حكمه ، كيف استطاعت ان تستمد كل خيوط هذه الشباك من مادة واحدة — من غل الأنفس التي أكلتها الأحقاد ؟ . . . لم يعد عصياً على العين المتجردة من الهوى أن ترى في باطن كل امرئ ناجز عليا ، ووقف منه موقف عداء ، قلباً مظلماً كليلة في الشتاء غائرة النجم ! إنما الحسد هو الذي ناجزه ، والضميمة الجامعة والنقمة العمياء . . . وتعدد الخصوم والأعداء ، فلا ترام إلا صوراً شتى لأصل واحد في مختلف الأوضاع ، خلفهم دوافع من الهوى الشخصي يسوقهم — قسراً أو طواعية — إلى محاربة رجل كل جريرته أنه على :

الورث الشرعى للأحقاد والضغائن التى عاشت أزماناً فى صدور مقروحة ،
ولفحت نيرانها هاشمات ذات يوم ، ثم محمداً من بعده ، حتى حسمتها عنه
رحمة الله ! . .

لا أحد ممن عادى الامام كان يبتغى من خصومته نصرة صالح عام ، بل
كانوا يسرون صفين يقود أحدهما الحسد ، وتقود الآخر ضمائر مدخولة ، وما
منهم إلا من زخرت واعيته برواسب قديمة من مشاعر هوجاء لم يسعفها الزمن
بالتنفيس عنها ولم يسعف آباءه ، أو من له تاريخ مشوب بالصحيفة فاضت
سطوره بالموجدة على رسول الله ، وقد جاء يوم على أولئك الواجدين قهروا
فيه على الخضوع للإسلام ، واضطرم السيف أو اضطرتهم الحاجة إلى الدخول
فيه فأسلسوا قياده لمحمد ، ولكن نفوسهم المدخولة لم تقطهر بل رسبت مواجدها
زماناً فى القاع كأنها النار المخبوءة تحت الرماد .

وكان على هر الشخص الذى ادخروا له نيران الأحقاد . وإنه إذن لطعمة
ميسورة ، فليست له قداسة كقداسة ابن عمه تحميه من حسد الصدور المقروحة
أو غل الضمائر المدخولة ، ولكن الصدفة وحدها أعجز من أن تؤلب عليه هذه
الصور التشابهية من الخصوم ، وتصف جموعهم كلها جيشاً عابثاً يكيد له ، بل
هو التبيت والاتفاق على القدر ، فما من امرئ عاداه إلا نستطيع إذا رددنا
الطرف أعواماً إلى الوراء أن نراء قد عادى الرسول قبله وكاد له . . و عمارة
ابن شهاب رأى هذا أيضاً ذلك اليوم وهو على باب الكوفة بهم أن يدخلها
عاملاً من قبل على ، ولمسه بنفسه حين برزت له حفنة من الرجال يحملون
السيوف ويأبون عليه دخول مقر إمارته . مخالفين بهذا إنفاذ أوامر الامام .

ويرفع عمارة بصره والبلدة بادية له من قريب ، فإذا على رأس القوم
الذين قطعوا طريقه إليها رجل هو الخزى بذاته لو كانت للخزى قدمان .
ولا يستطيع عمارة أن يفعل شيئاً فليس يملك عتاداً ولا رجالاً يضرب بهم
هؤلاء الخصوم ، ولكنه يسمع صامتاً وعيد زعيم القوم إذ يقول :

« ارجع . . . فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلا ، وإن أبيت ضربت عنقك ! . . . »

فيكظم العامل غيظه ، وينطلق راجعاً إلى الحاضرة الإسلامية ليخبر أمير المؤمنين . ولكن الذكريات تنثال على مخيلته كما تراود الآن الخواطر النافذة إلى ما وراء ظواهر الأمور . إنه حقيق بألا يدهش من تصرف ذلك الزعيم ، ومن إعلانه المصيان والتمرد على الآمام لأن عصيانه حلقة تضاف إلى ما سبقها من حلقات ، فالرجل الذي تمرد على محمد إذ كانت في يده رسالة السماء خليق بالتمرد على علي وهو لا يملك برهاناً من السماء ، والنفس الآتعة التي سول لها البهتان أن تتحدث بلسان الله لا يعجزها أن تتحدث بلسان أهل الكوفة ! وليس يبعد عن الأذهان موقف بالأمس لهذا الزعيم الزنيم ، وقفه في حياة محمد ، مدعياً أنه نبي آخر من عند الله ! فإن لم يكن حسده مكانة رسول الله بين الناس ، وتوسله بكافة الأساليب التي قد ترفعه في العيون ، وإن كان أسلوبه هو الافتراء على الله ، وزيف قلبه عن جادة الحق الإلهي إلى الهوى النفسي الممعن في الضلال حتى غاية الحسدود . إن لم يكن هذا كله هو الشاعر المقيته التي دفعته إلى ذلك الموقف البعيد عن كرامة العربي العادي فضلاً عن كرامة مسلم مثله أقر ذات يوم بالإيمان ، فأى الشاعر إذن كانت توجه فيه خطاه ؟ . . .

إنها لعاطفة انبعثت عن أحط الانفعالات في نفس ذلك النبي المزعوم ! في نفس طليحة بن خويلد متنبئ بني أسد ، الذي ارتد عن الإسلام في حياة محمد وادعى نبوة جديدة حين أبي عليه حسده أن يتفرد محمد دونه برسالة السماء ! . . . فذلك الرجل الذي تصدى بسيفه لمهارة بن شهاب ومنعه من دخول قاعدة حكمه ، كان يتحدث بلسان أهل الكوفة بغير تخرج ، وفي سر عجيب لا مثيل له إلا تمده من قبل بلسان الله ! . . . وقد نم هذان الوقفان عن حقيقة قلب طليحة وقدر الإيمان الذي يعيش فيه . كان أشبه شيء بالتربة القاحلة الصلبة ، لا تطلع زرعاً وإن بولغ في تعهدها أزماناً طويلة

بالسقياء . وإذا كان التاريخ يثبتنا أنه ادعى النبوة وارتد بعد إسلامه ، فإن الأولى بنا أن نقول إنه ادعى الإسلام من البدء ، ولم يعرف قلبه طعم الإيمان . ولا يخالف بهذا القول حقيقة الحال ! ..

لقد ذهب طليحة وأشباهه من المتبشرين أمثلة خالدة في تاريخ الافتراء ، ودرست نبوءاتهم صوراً من القدر بالغة الضخامة لأنهم غدروا بالله وناموسه ورسوله فضلاً عن غدرهم بأحلام الناس . ولقد عاد الرجل ثانية إلى الإسلام فما نراه دخله إلا مقهوراً بسيف أبي بكر الذي سله على عنق الردة ، وما زالت بنفسه بقية من الشك في الدين المقتصر وبقية من التمرد مدخرة إلى حين — هو يحدثنا عنهما بذات لسانه حين يجيء إلى عمر مبايماً بمد وفاة الصديق . . . يقول له ابن الخطاب وهو لا ينسى بهتانه القديم :

— يا خدع ! . . ما بقي من كهانتك ؟

— نفخة أو نفختان بالكير ! . .

ولا يكاد ينطلق الزمن في أبراجه حتى نرى الكذوب طليحة صادقا هذه المرة ، يختص ببقايا إفكه وحسده على ابن أبي طالب وخلافته بعد أن فشل بالأمس في الكيد لمحمد ورسالته . وإذا هو حين تجيئه الأنباء بقيام حزب الثأر لعثمان يرى الفرصة مواتية لينفخ بكيره — نفخة أو نفختين ! — في رماد الفتنة عساه يؤجج النار على وريث الرسول . .

عاد عمارة بن شهاب إلى المدينة مردوداً عن إمارته . ولكنه لم يكن آخر عامل للإمام دفعه الناس عن دخول قاعدة حكمه بل نرى على أثره سهل بن حنيف قد رده أيضاً فريق من أهل الشام . وتبدو علائم التمرد سافرة لعمري أمير المؤمنين . وتبدو معها سمات الانقسام في صرح الدولة واضحة كأنها الصدوع في البنيان . . فهذه بغير شك الثمار المرة التي أطلعتها صيحة عائشة في وديان البلد الحرام .

تكاد أن تتفق الآراء الصائبة الرشيدة على الحل الوحيد الذي ليس ثمة

سواء لأمثال هذه المحنة وهو وقع الفتنة وقتلها في المهد قبل أن يتم لها النضج .
 وإنه للرأى الذى جال بخاطر على إذ ذاك غير أن الامام كان كعهدنا به رجلاً
 لا يسارع إلى إذكاء نار العداء ، بل يؤثر الهدوء كخطوة أولى فيعمل ولا يهمل .
 ويمد في جبل اللين ما وسمعه عسى أن يتبين مناوئوه سواء السبيل . كان دائماً
 لا يبادر بالضربة حتى ينذر . وقد عزم من البدء على معالجة الحال كما على
 عليه مصلحة أمتة التى أصبحت أمانة في عنقه ، ووفق ما توجه عليه مسئوليته
 أمام الله وأمام الأجيال كرئيس ديني وزمى للدولة . ولكنه رأى لزما عليه
 أن يعمل بحذر وحيلة حتى لا يدع في قراره أية ثغرة قد تنفذ منها عناصر
 الشعب من النهازين وأصحاب المطامع والغايات .

وكان أول من حسب حسابهما طلحة ورديفة الزبير ، فأحب أن يشاركاه
 في القرار الذى يتخذه . ذلك لأنه عرفهما لا يرضيهما الرضا ولا يقران حياله
 على حال . بل هما دائماً أقرب إلى الشعب عليه من سواهما وأدنى السادة إلى
 أفئدة الجمهور المفتون عادة بالشخصيات البراقة وهما بدأ بهما أبداً على الشكوى منه
 والضيق بكل تصرفاته دون موجب ، أدعى الى مخالفته وإثارة الاعتراض عليه
 إن حزم أمره وعالج الموقف الجديد دون أن يشاورهما فيه . ثم لعل أول مادفعه
 إلى إشراكهما في الرأى رغبته في تنقية جو المدينة من الشعب الذى لا بد
 سيثيرانه لو أنه أغفل شأنهما حتى يستطيع أن يجابه مناوئيه في الخارج وهو
 مطمئن الى التفاف الجبهة الداخلية حوله في حاضرة الدولة .

لذلك أرسل اليهما ليعرض أمامهما المحنة الناشئة كيلا تكون لها عليه
 حجة . وليسألتهما الرأى المدخر الذى يستطيعان بذله . فلما حضرا مجلسه ،
 راح يسطرهما الموقف لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووصفها بما كاد
 أن يجعلها مرئية رأى العين ... ثم أردف فقال :

« ... ان الذى كنت حذرتكم قد وقع يا قوم ... وإن الأمر الذى وقع
 لا يدرك إلا بأمانته . وإنها فتنة كالقار ، كلما سمعت ازدادت واستفارت »

فأى الردود كان حقيقاً بأن تنفرج عنه شفاه الصاحبين . . . وبأى لسان
بنطلقان ؟ . .

أحسبهما لم يجدا القدرة على الجواب بعد أن تحدثت قبلهما الأحداث .
ولعل خواطرهما جرت سراعاً إلى خارج نطاق الدار . . . ثم بعيداً عن أسوار
المدينة . . ثم إلى بلدة الحرم حيث نزلت عائشة ولحق بها كل مناوىء للإمام
من بنى أمية وأحلافهم ومن تعلق بأذيالهم من ولادة عثمان . . . كانت هناك
مسلحة تامة الجهاز فيها أموال ورجال وسلاح ، فدأخذت أهبتهما للانطلاق
عبر الصحراء على بريق السيوف ، بل سبقتهما دعوة التمرد على الحاكم الشرعى
للبلاد مجللة بنقاب الثأر للخليفة المقتول ، تمهد الطريق أمامها للجيش
المجهزة ، وتفتحنهم على الرعايا الوادعين ثقتهم بالإمام قبل أن تقتحم بلادهم
صفوف الجنود .

أفأسف الرجلان وقد شهدا الآن نتائج هذه الدعوة الهدامة ، أم رأيا فيها
أولى خطواتهما إلى إدراك مايبغيان ؟ . . . إنهما على أى حال قد آمنا بصدق
فراصة علي وثقاؤ نظره إلى عواقب الأمور ، فتكشف لهما اليوم إلى أى مدى
كان محقاً في مخاوفه حين جاءه يريدان قهره على الافتصاص من قتلة عثمان . .
في ذلك اليوم حذرهما مغبة التسرع . وأهاب بهما أن يصبرا حتى يهدأ
الناس ، وألا يجاهرا بدعوة ، الخطر الجاثم وراء بشا لن يصطلى منه الثوار
بقدر ما تصطلى الأمة كافة ويصطلى نظام الاسلام ، وهل فاتهم إذ ذاك أنها
دعوة فرقة ، حرية أن تتشعب حياها الآراء وتتمزق وحدة الأمة ، ثم تنجاب
آخر الأمر عن حرب أهلية بين أبناء الشعب الواحد تدلّع نيرانها في
كل إقليم ؟

على أنهما الآن لم يدليا إليه بجديد ، ولم يسعفا بالرائى الشديد الذى ثارا
من قبل لأنه لم يلتزمه . . . بل قالوا له :

« فأذن لنا أن نخرج من المدينة . فلما أن نكابر ، وإما أن تدعنا . . »

فإلى أى مكان أرادا الخروج ؟ . . . قد يقف المرء وقفة تفكير طويلة

عند هذا الجواب الذى لا يحدد الغرض منه تحديداً واضحاً يكشف عن نواياها
اللاذهان ، ولكنه حين يزن الألفاظ التى ألبست ثوب غموض يراها أدنى
إلى ذلك الغرض القديم الذى انطوى على رغبتهما فى ولاية العراقين وأباه عليهما
الإمام . ولعل هذا هو معلق بذهن على إذ ذاك ورأى معه أن يكفيهما مشقته ،
لأنه ما لبث أن قال :

« . . . سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجِد بداً فآخِر الدَّواء
السكى . . . »

وكذلك آثر أن يمهّل العصاة الذين ردوا عماله عن الكوفة والشام .
واختار اللجوء إلى الوسائل السلمية فكتب إلى أبى موسى وإلى معاوية عسى
أن يظفر منهما بجواب يتضمن نزوعها إلى سبيل السلام .

ولم يلبث أن جاء الرد المرقوب من أبى موسى يعلن فيه طاعته وطاعة
أهل الكوفة — أولئك الذين تحدث بلسانهم منذ أيام طليحة بن خويلد
وأعلن تمردهم . . . ولكن ابن أبى سفيان لم يرسل حرفاً . وظل ضارباً
فى صمته حتى يتبين أى الطريقين أجدى على مطامعه : طريق الوفاق أم طريق
الشقاق .

ثم حانت أخيراً ساعة البت ذات يوم خلال الشهر الثالث لمقتل عثمان . . .
فى غرة ربيع الأول اخترق دروب المدينة راكب نجذب إليه أنظار الناس .
فقد كان معتدلاً على راحلته ، ممدود الرأس إلى أقصى ما يستطيعه عنقه المبطون ،
لا ينزل بصره إلى المارة أو الجالسين . وكانت يده مرفوعة إلى أعلى ، بها طومار
مختوم بلوح به بين لحظة وأخرى كأنه يشير به انتباه كل متطلع إليه . . . وقد
كان حقاً خليقاً بأن تتعلق به العيون ثم تهمس على أثرها الشفة فى دهشة
واستفكار ، ناطقة بالكلمات القليلة المكتوبة عليه :

« من معاوية إلى على » .

من معاوية ؟ . . . بغير هذا اعتاد المال أن يكتبوا إلى الخلفاء . . . بغير
هذه القصة وهذا الاستعلاء . . . ولكن ابن أبى سفيان لا يضيره

أن يدهش الناس ويغضب عاليا ، لأنه قد احتار طريقه وأعلن العصيان ..
 وأدخل رسول التمرد إلى الإمام . وتقدم إليه بالطومار المختوم ففضه ،
 فإن هي إلا نظرة واحدة حتى رفع بصره إلى الشامي يستوضحه الأمر .
 كانت الرسالة في جوفها بيضاء لا تحمل كلمة واحدة . . .

— ماوراءك يا رجل ؟ ...

فتلفت الرجل حوله في حذر ثم قال :

— آمن أنا ؟ ...

— نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

— ورأى أنى تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود ..

— ممن ؟

— من خيط تفسك !

فلم يغضب الإمام لهذا الاتهام الظالم ، بل تذرع بالهدوء والترث لسمع
 بقية الحديث وأردف الرجل يقول :

— .. وترك ستين ألف شيخ يبكون تحت قيص عثمان وهو منصوب

لهم قد البسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟

— نعم .

— أأست موتورا كثرة عثمان ؟ .. اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان .

ولم تعد بقية في الكلام ، فأشار للرسول :

— اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

ومضى عائدا يجتاز دروب البلدة وإن الناس ليهمون به لولا أن سبقت له

كلمة الإمام بالأمان ..

معاوية أسفر عن دخيلته ، وسدد أولى ضرباته . ولكننا نراها ضربة أصابت الإسلام قبل أن تصيب الإمام . وقضت في النهاية على السلطان الروحي الذي مكنت له العقيدة في القلوب والخواطر . أما الصرح الشامخ الذي وضع محمد نواته ، ورعاه من بعده خلفاؤه الذين ترسموا خطاه ، فقد أوشك أن يصبح ظلا للماضي ، يطوف به الذهن كما يطوف بالطلل الدارس .

بهذه الضربة افتتح السبيل أمام الأهواء والمطامع ، وكسر القيد الذي كان يحبسها في نطاق ضيق من خشية الله ومبادئ الأخلاق القويمة . وانطلقت الأنانية بغير حاكم تسود النفوس والضمائر ، ويتحكم ناموسها في الأفراد الذين وهنت فيهم سطوة الإيثار والتضحية وحب الحق . فإن هي إلا أعوام حتى نرى الدولة الإسلامية تستند إلى قوى ظاهرية بين مال وعتاد وإرهاب ، بمد أن كانت تستند إلى الإيمان بحقها في هذه الحياة ، وبواجبها الذي يفرض عليها نشر رسالة ترفع البشر من وهدة الطلام ، وبقدرتها الكامنة في قلب كل مواطن — لا في سيفه — على سيادة العالم . ولئن ظلت لها زماناً رقعة الأرض التي أظلمت أعلامها الخفاقة ، فإن بقية من القوة الدافعة التي انبعثت عن قوة الدين في عهده الزاهر هي التي حفظت لها هذه الأرض . وما نلبث كلما تقدم الزمن أن نجد الوهن يسير في عظامها بقدر ابتعادها عن جوهر العقيدة وخصوصها لأهواء النفس . ذلك أن سلطان الروح بدأ يفترق القلوب حتى دالت أخيراً دولته وأخلى عرشه لسلطان المادة . وما كان لنظام سياسي أن يعيش ويأخذ في النماء إذا لم توطد المثل العليا أركانه ، وتسك ما بينها كما يسك الملاط ما بين أحجار البنيان . . .

إن جريرة معاوية لا تقاس بنتائج عصيانه للإمام وتمرده على خلافته ،

وإنما تقاس بالفتاوى البعيدة التي أصابت صرح الإسلام حتى اليوم . ولسنا نشك في أن الأقدار هي التي شاءت لهذا الدعي أن يشق طريقه . ولكننا نؤمن بأن الدولة الإسلامية كانت حقيقة بأن تبقى على الزمن خالدة ، تنشر أجنحتها حينما أشرقت الشمس لو أنيحي لها أن تعيش كآلتها الأولى خاضعة لناموس الروح . على أن ابن أبي سفيان كان لا يستطيع أن يعيش إلا في جو أطاعه . وقد علم أن عليا رجل مستقيم المنهج ، لا يدين بغير شرعة الله ، ولا يقر للأناية بالحق في الحياة . بل قد خبره يأخذ نفسه قبل إمرته بتسويد المثل العليا وجعلها الهدف الذي يجب أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بإنسانيته ، فهو إذن بعد أن انتهت إليه مقاليد الحكم أحرص على هدفه وأقدر على نصرته . وما دام هذا طابع عهده فليس عمة اختيار لمن يدين بغير هذه المثل إلا أن يختفي أو يعمل على اختفاء هذا المثل من الميدان .

كان الطومار الفارغ الذي قطع الصحراء من الشام هو الدعوة السافرة لأصحاب الفتنة المتآمرين ليرزوا من أوكارهم ويعملوا علانية . فقد اطمأنت به خواطرم ، وعرفوا أنه عنوان قوة من الرجال والعتاد تربض في الشمال يستطيعون أن يركنوا إليها في شد أزرم إذا أعلنوا هم أيضاً العصيان ، وقد تقووا فعلا بتمرد معاوية ، واستشعروا شجاعة ، كانت تخونهم قبل اليوم تتدفق ثانية في عروقهم كما تتدفق الدماء . وامل المدينة لم تسمع لفظاً من قبل للاتجار بالنظام القائم كما سمته في هذه الفترة وكما همست به السنة الحافدين على الإمام . واعلمها لم تشهد هجرة كهجرتهم من جناباتها إذ ذاك وفرارهم منها كلما استطاعوا الفرار . كان أولئك النعميون عباد الذات ينظرون إلى عمرد ابن أبي سفيان كفاتحة عهد جديد ، أن أن يظفروا فيه بتحقيق الأوطار وبلوغ أجدى الغايات .

• • • ثم نرى طلحة بن عبيد الله يبرز ثانية على رأس الصفوف هذه المرة لايسير جدلاً جديداً بغير طائل ، ولا يتصدى لمعارضة كلامية تخونه فيها حجته أمام منطق الإمام . إن الظروف قد تغيرت والريح تسير له رخاء كما يلوح ودوره

اليوم أصبح غيره بالأمس ، حين كان لا يعدو تجسيم الهنات ثم الانتظار .
لم تعد به الآن حاجة للتربص ولا للمكوث فاعداً يشهد مركب الحوادث الذي
أخذ يسبر ، ووجب عليه أن يكون في ركابه أو يضيع .

وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لمجده ، وهامى عائشة بمكة قد
انتشرت دعوتها ونمت الحركة التي بدأتها منذ أربعة شهور ، وزاد أتباعها حتى
ليسهل أن يكون منهم جيش مرهوب . أماميلها السياسي معروف . وأما
الحليفة المرجو الذي لن تدعو لسواه فليس سواه . فمن البدء كانت داعيته ،
أو ستظل كذلك في قراراتها حتى يتبين لها أن تعاود النداء باسمه مقرونا بلفظ
الخلافة الجليل ؟ .

على أنه لم يعدم شعوراً خفياً يزحف إلى صدره كزحف الحية الرقطاء وهو
يتجه بعينه صوب الشام . هو حقاً فرح بتمرد معاوية على الإمام وعده خطوة
واسمة نحو النصر ، ولكنه مع ذلك كان قلق الخاطر وخياله تطوف به صورة
سليل الأمويين . . فهذا الأمير منافس خطر بغير شك يجب أن يحسب له ألف
حساب . إنه فضلا عن حسن تأهبه بالعتاد والرجال وامتلاكه ناصية رعاياه ،
له في السيادة مطعم قديم . وهو أيضاً ولي دم عثمان الناهض الآن لأخذ الثأر
من كل امرئ شرك فيه . فاذا ذكر دم القتيل لم ينس القاتل ، ولم ينس أعوانه
وإخوانه ، ولم ينس قبلهم من دفعهم بتحريضه إلى ارتكاب الجرم . فهل يستطيع
طلحة أن يخفى عنه كفه الحمراء ؟

نحسبه جاهد ليبعد هذا الخاطر عن ذهنه حتى لا يفسد عليه أمره ،
واكتفى بالفرصة التي أحسها حين علم بتمرد معاوية وإعلانه العصيان على
الإمام . . . إن قوة طائفة في الشمال تؤيد إذن خطته ، وتهب لذات الدعوة
التي استحدثتها عائشة بمكة . . . تهب لمناجزة الخصم المشترك وإدالة سلطانه ،
وتهباً لضربه الضربة التي ينتظرها هذا المتطلع إلى مقفد الحكم وكل متطلع
مثله إلى النفوذ أو إلى إشباع هواه . ويوم يتحقق لطلحة أمل ويخاض الميدان
من خصمه المرهوب ، يهون عليه بمده أمر كل خصم سواه !

أما الآن فقد وجب أن يلحق بموكب الفضال ويعمل لمجده ! . . . وإذا كانت نفسه أكبر عنده من أن يحملها على الفرار فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يخرج بها من المدينة ولا تنقص من قدر كبريائه . وأيسر هذه الوسائل ما كان يتعلق بالدين ، لأنه به يستطيع الفوز برضاء الخليفة وإقراره . . . كذلك صحب رديفه الزبير ، وانطلقا مما إلى على يطلبان منه الإذن بالخروج .
قال له :

« إذن لنا يا أمير المؤمنين . . . »

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي طلبا فيها السماح بمفادرة المدينة ، منذ جاء طومار ابن أبي سفيان ! .
— تريد العمرة .

فرمقهما هنية بنظرة نفاذة ، ثم قال برنة المستريب :

— والله ما العمرة يريدان ! .

-- والله ما تريد إلا العمرة .

— بل القدرة ونكث البيعة ! .

انكشفت له مغاليق القلبين كما ينكشف عن الصحائف غلاف كتاب ، فأى شعور يا ترى اجتاحهما وقد نزلت كلماته عليها كالسان السوط ؟ .

لو ددنا لو كان الزمن لم يطامع على الصاحبين تلك الملاحظة ، أو جنبهما الهوان الذي زخرت به ، ولكنها كانت مشيئة نافذة جرت بها يد القدر في سجله ، وكتبت على الزبير وطلحة ما يرجو كل عارف لقدرة أمثالهما من قادة الإسلام لو تنزها عنه . فقد مضى الشيخان يؤيدان قولهما ، ويدفمان عنهما تهمة أمير المؤمنين بأيمان مغالطة هما يعلمان بغير شك أنها قسم حاث . . . ولكن الحلف وحده كان الوسيلة التي تباغهما ما يريدان .

وقال على وما زالت نفسه مترعة بالشك والريبة :

— فأعيدا البيعة لي ثانية . . .

فمسلًا دون تردد ؟ وبإيعاء كرة أخرى وهما يعقدان له المواعيق والعهود
بأيمان جديدة . . . ثم مضيا عنه خفيين كآثما أتيح لهما الخلاص من نار ،
وانطلقا إلى درب مكة ، وإن بصدر كل منهما آمالا مبسوطة الرقعة كامتداد
الفضاء الفسيح ..

وكانت المديفة إذ ذاك صامته ترقب سير الحوادث ، وتنتظر القرار الذي
لا بد سيتخذه الإمام حيال متمرد الشام . لقد جاءت الأخبار بطاعة أبي موسى
في الكوفة وبيعته وبيعة أهل إقليمه لأمر المؤمنين ، وها هو الزمن يمر ولا
جواب يأتي من قبل معاوية رغم ترفق على به ، ورغم إرساله إليه يعظه ويبصره
ويهيئ به أن يستجيب لمشيئة جماعة المسلمين . . . انقضى الزمن وابن أبي
سفيان موغل في صمته وموغل في عصيانه ، فدل بهذا على إضماره العداء ،
وانطوائه على نية الخلاف . وإن الناظر إلى سياسة على حيال ولاية عثمان ليعلم
الآن مدى صوابه حين أبي إلامهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بعبادته ومثله ،
ويعلم أيضاً أنه كان نفاذ البصيرة ، مؤمناً باستجابة البلاد كلها له لأنه لم يعمل
إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة . وها هو الزمن قد
أثبت فراسته ، فجاءته الطاعة من كل إقليم . أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد
به لأنها في قبضة رجل مفتون بالسلطان ، إقراره عليها — كجزله سواء
بسواء — لن يسفر إلا عن تمردة لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي
وقع في كف غريمه القديم . ولعله لو أثبتته الإمام في حكم الشام لوسعه أن يبدو
في أنظار الجماهير أقوى منه في حالة العزل ، لأنه يستطيع حينئذ أن يقول للناس
إنه يأبى البيعة لمن ولاه ، ولا يمتيرها إلا ثمناً يشترى به أمير المؤمنين صمته
عن اتهامه بمقتل عثمان ! . .

ولم يبق ثمة أمل في إصلاح الحال برد معاوية عن غيه بوسائل الترفق .
فقد كشف عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه . وكانت الأخبار تطالع
المدينة بين كل يوم وآخر بتأهبه واستعداداته . وكان أنصار على يترقبون

أمره وينتظرون ما ينجاب عنه تقريره ، والحدس يتراوح بهم بين انتصار سياسة الإهمال أو سياسة القتال . فلما أن انقضى الزمان وركود ، وملكهم الحيرة ، دسوا إليه زياد بن حنظلة عسى أن يعرف لهم حقيقة الخطة التي سينتهجونها في النهاية . فما هو إلا أن دخل عليه زياد وراح يحاول الطواف بحديثه حول الموضوع ، حتى بادره الإمام :

— يا زياد تيسر . . .

— لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام !

— بل الرفق والأناء أمثل . . .

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بعنق »

فما جله أمير المؤمنين بقوله :

« متى تجمع القاب الذكى وصارما وأتقا حميا تجتنبك المظالم ! »

ووضح بهذا ما خفى هنيهة عن الأذهان . باتت الخطة التي لم يبق اليوم معدى عن اتخاذها حيال متمرد الشام .

وخرج زياد فاستقبله الناس بالبواب :

— ما وراءك ؟

— السيف يا قوم ؟

على أن ابن أبي سفيان حالفه زمنه ، فيسر له أمره ، وفرش طريقه أمامه بالورود ! . فلم يكد على يطالع أصحابه بما عزم عليه ، حتى امتدت أصابع القدر إلى ذلك العزم فطوته ، وإلى الضربة القاصمة التي كان وشيكا أن يوجهها إلى خصمه فأرجأها . . . ذلك أن القسم الغليظ الذى حلفه طلحة والزبير كان خدعة ، وكان سترا أريد به حجب الغدر الذى يبتاه . . . فقد جاءته أخبار مكة تحمل إليه بداءة « العمرة » التي انتواها الشيخان ! . . . إن النبأ قد صورهما بدعوان الناس إلى الإصلاح .

وقال لأعوانه الذين سألوه :

« . . . ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالآوا على سحق إمارتى ،

ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وا كف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني عنهم . . . »

ولكنه في قراراته كان لا يسلم من الشك . ولا يستطيع أن يقصر نفسه على الهدوء ، والاطمئنان . وقد صدق شعوره . فقد جاءت له الحقيقة الواضحة بعد قليل ، وعلم أن حزبهم بكّة قد تبعاً للقتال ، وهم بالسير إلى البصرة . . . فإلى أي شيء يسيران إن لم يكونا قد اعزما أموراً أهونها حمل أهلها - مثلهم - على نقض إمرة الإمام ؟ . . .

وهتف على وهو يكاد أن يرى بعينه لهيب الفتنة يعم أقطار الدولة : « إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . . . »

وقد فعلوه . وتواترت الكتب والأخبار بما عزموا عليه . ولم يمد في نفسه ظل رينة من حقيقة الموقف الذي اختارته عائشة وصاحبها ، ومسارعهم إلى تقويض بنيان الدولة بهذه الدعوة التي خرجوا بها من حيز القول باللسان إلى المناجزة المسلحة بالسيف والسنان . علم على كل هذا وأيقنه ، ولكن أمراً واحداً لم يكن قد علمه بعد ، وكان إذ ذاك بعيداً عن ظنه . . . ولو استطاع أن ينفذ ببصره إلى مغاليق السر عند الشيخين ، لعرف السبب الحقيقي الذي دفنهما إلى تعجل حربه ، ولرآه ممثلاً في كتاب صغير قطع الصحراء من الشام إلى مكة حتى صار إلى يد الزبير بقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لعبد الله الزبير أمير المؤمنين . من معاوية بن أبي سفيان .

سلام على ، أما بعد فأني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا

كما يستوسق الحلب . فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن

أبي طالب ، فإنه لا شيء يمد هذين المصريين ، وقد بايعت لطاحه بن عبد الله

من بعد . . . فأظهروا الطاب بدم عمان ، وادعوا الناس إلى ذلك . وليكن

منك الحد الحد والتشهير . . . فأظفر كما الله وخذل مناوئكما ، والسلام . . . »

(نم الجزء الثاني وبداية الجزء الثالث)

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤١٠